ثلاثة ملوك

في بغداد



تأليف : العقيد جرالد دي غوري

الملحق العسكري في السفارة البريطانية ببغداد



ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي



منشورات مكتبة المثنى - بغداد

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 17 / شعبان / 1443 هـ
الموافق 18 / 03 / 2022 م

م. سرمد حاتم شكر

سرمد حاتم شكر السامرائـــي



ثلاثة ملوك في بغداد

تأليف: العقيد جرالد دي غوري
الملحق العسكري في السفارة البريطانية ببغداد

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي

الطبعة الأولى
١٩٨٣ ميلادية

منشورات مكتبة المثنى - بغداد

مطبعة الارشاد - بغداد

الى اعظم من كنت اعتز به في حياتي
زوجتي الغالية ام رياض
التي شاركتني شظف العيش
وشدت من ازري ايام المصائب التي
شهدتها في ظل حكم الجهلة من الحكام الظالمين
والتي طالما اشفقت علي من كثرة ماكنت اكتبه
واطالعه وحاورتني في فوائد ذلك
اقدم هذا الاثر ليذكر بوفائها واخلاصها وشجاعتها

١٩٨٣/٤/١ **سليم طه التكريتي**

مقدمـــة المترجـم

مؤلف هذا الـكتاب (ثلاثة ملوك في بغداد) ، واحد من رجال المخابرات العسكرية البريطانية الذين أمضوا في العراق أكثر من ربع قرن ، واطلعوا على المزيد من اسرار السياسة العراقية في العهد الملكي ، وشاركوا بصفة غير مباشرة في نسج بعض جوانبهـا ٠ فلقـد قدم العقيد جرالد دى غورى الى العـراق أول مرة في سنة ١٩٢٤ ضابطا في قوات المرتزقة (الليفي) التي انشأها الجيش الانكليزى اثر احتلاله العراق خلال الحرب العالميـة الاولى ، ليعهـد اليهـا بحراسـة المؤسسات العسكريـة الانكليزية ، ومن ثم خدم في البعثة العسكرية البريطانية التي كانت تشرف على تكوين الجيش العراقي خلال الفترة بين سنتي ١٩٢٤ و١٩٢٩ ٠

وفي سنة ١٩٤٠ تم ارسالـه الى المملكة السعودية كضابط اتصـال سياسي فأمضى هناك سنة كاملة ، عاد بعدها الى العـراق ليشد مـن ازر عبدالاله ونورى السعيد اثناء ثورة ايار الوطنية سنة ١٩٤١ ، كما استطاع قبيل دخول القوات الانكليزية الى سـوريا في تلك السنة ان يجند الف ومائتي محـارب من الدروز السـوريين الى جانب القـوات الانكليزية للاستيلاء على سـوريا وانتزاعهـا من يد الحكومـة الفرنسية الخـاضعة للاحتلال الالماني آنذاك ٠ ونظرا لخدماته التي أداها اثناء ثورة ايار فقد أهداه عبدالاله وسام الرافدين ،واصبح وزيرا مفوضا لبريطانيا في العراق٠ وفي سنة ١٩٤٣ قام دى غورى بجولـة في الجزيرة العربيـة ووضـع عنها كتابا سماه «العربية السعيدة» ٠ وبالاضافة الى ذلك وضع عدة كتب اخرى من اهمها «حكام مكة» الذى صـدر بلندن سنة ١٩٥١ عن تاريخ

الاسرة الشريفية في الحجاز ، وسيرة عن أحد الضباط الانكليز المغامرين في بلاد العرب ، وكتابا عن «اسرائيل الحاضرة» .

يمثل هذا الكتاب سردا موجزا للاوضاع التي شهدها العراق منذ قيام العهد الملكي حتى سقوطه في شهر تموز سنة ١٩٥٨ ، وهو يكشف عن بعض الجوانب غير المعروفة عن تلك الاوضاع ، وعلى الاخص ما اتصل منها ببعض الحوادث المهمة من امثال انقلاب بكر صدقي ، ومقتل الملك غازي ، وقيام ثورة ايار سنة ١٩٤١ ، ووثبة كانون سنة ١٩٤٨ ، والتطورات التي سبقت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .

ويعتبر الكتاب في الدرجة الأولى بمثابة مذكرات أو ذكريات وملاحظات شخصية ، كتبت باسلوب رشيق سهل خال من التعقيد ، وهو يؤلف في الواقع مصدرا مهما من مصادر تأريخ العراق الحديث لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة الى أي باحث أو مؤرخ .

والحقيقة اننا الآن في امس الحاجة الى ان نعرف وجهة النظر العالمية ، ولا سيما الغربية ، في اوضاعنا الماضية والحاضرة على حد سواء ، ولا بد لنا من الاطلاع عليها على الرغم مما تضمه من امور مغايرة للحقائق ، أو ان تكون قد كتبت بلهجة معادية ، ومن وجهة نظر مخالفة، وذلك لكي يتسنى لنا بهذا ان نتعرف على جوانب النقص في حياتنا الحاضرة ، ونلم بالصادق من آراء الغير عنا ، فنستطيع بذلك ان نصلح الاخطاء ، ونصوب الآراء المغلوطة المتعمدة التي تنشر عن اوضاعنا الراهنة، لان في ذلك أساسا قويما لتحسين الاوضاع ، ولتهيئة المصادر الصحيحة لاعادة كتابة تاريخنا القويم . وهذا هو ذات الهدف الذى دفعنا الى ترجمة هذا الكتاب ونشره .

بغداد ١٩٨٣/٥/١ — **سليم طه التكريتي**

الفصـــــل الاول

العمـالقة ••••• يتراجعون !

فيصل الاول ومملكة الـعراق الحديثة

« أما بالنسبة الى العـراق ، فلا توجد لديـه عادة الشك »
« في انّ حيــاته الظـاهرية تتلـون بالعـواطف المتغيرة »
« فهـي وان كـانت غير مقيّدة ، الا انهـا في ديمومتهـا »
« تكون صادقة ••••• »

توماس لييل
في كتابه « بواطن العراق وظواهره »

THOMAS LYELL: THE INS AND THE OUTS OF MESOPOTAMIA 1923

كانت السفينة صغيرة ، ومن طراز قديم ، لها مروحة سقفية تدور ببطء في غرفـة الطعام ، اضافـة الى مراوح كهربيـة صغيرة لا يجرى تشغيلها الا في افضل «القمرات» • كان هناك صوت يرافق السفينـة في سفرتها ، ويروح بين آونة واخرى يحك ظهره بهيكلها • كان جهـاز السفينة قد كف عن «غنائه» المتذبذب في المحيط الهندى ، وشرع الركاب المحليون يمكثون تحت اشعة الشمس على ظهر السفينة ، وكانت رائحة سمن الضأن الذى كانوا يطهون به طعامهم ، حادة جدا •

انحنينا فوق القضبان ، ورحنـا نتحدث عن البلاد الممتدة امامنـا ، بلاد الرافدين التى سميت حديثا باسـم العراق ، والتي منحت حكومـة وطنية من لدن الحكومة البريطانيـة التي وجدت ان الحكم المباشر هناك يكلفها الغـالي من الارواح والاموال • لقد اصبح الاحتـلال العسكرى تأريخا غابرا ، وتم بسرعة جلاء الحامية التي كانت تضم زهاء ستين ألفا من الجنود ، وضعف ذلك العدد من الافراد العاملين في المعسكر •

قال أحد المسافرين ، وهـو مـن العسكريين البريطـانيين ، ان « المرحوم اللورد كتشنر ، كان يأمل بأن يصبح أول نائب للملـك في الشرق العربي ، وانه لم يكن من غير الصواب ان يظفر بذلك الهدف في سنة ١٩١٤ ذلك لان الناس في الكثير من انحاء تلك المنطقة ، بما فيهـا العراق ، كانوا على العموم امين ، وغير مستخدمين في الادارة ، ولديهم عادات غير ملائمة لها » •

وعند انتهاء الحرب ، كان اللورد كتشنر قد مات وكانت بريطانيا متعبة • ومع ان تركيا العثمانية قد انهارت ، فقد كانت هنالك التزامات تتحكم بمنصب نائب الملك لها مكانتها •

لقد شجعت بريطانيا شريف مكة الاعظم على الثورة ضد سيده التركي • وبعد وقت قصير أثناء الحرب ، قدمت بريطانيا وعدا لليهود الصهاينة وللفرنسيين • وكانت هذه الالتزامات الثلاثة متناقضة فيما بينها[١] • لكن بريطانيا بالنسبة الى العراق كانت تبذل جل جهدها بالالتزام بوعدها تجاه العرب ، وان تتذكر كيف ان الثورة قد اجتاحت الفرات في سنة ١٩٢٠[٢] •

كانت بريطانيا تعمل على اقامة حكم تحت امرة «فيصل» ، الابن الاكبر لشريف مكة الاعظم ، يؤيده في ذلك اتباعه من ابناء الرافدين

---

(١) يقصد المؤلف بالالتزامات الثلاثة ، الوعد الذي قطع للحسين بن علي ملك الحجاز باستقلال البلاد العربية ووحدتها ومن بينها فلسطين ، ووعد بلفور للصهاينة بايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، ومشاركة فرنسا في الغنيمة بفرض انتدابها على سوريا ولبنان وفقا لاتفاقية سايكس – بيكو السرية •

(٢) لم تكن الثورة خاصة بمنطقة الفرات وحدها • فقد بدأت اعمال الثوار العراقيين في المناطق الشمالية ، والشمالية الغربية من العراق قبل ان تبدأ في المناطق الجنوبية • ذلك ان معارك الثوار ضد الانكليز في السليمانية ، ودهوك ، والزيبار ، وتلعفر وغيرها، قد انفجرت قبل معارك الرارنجية والكوفة بعدة شهور ، وان كانت هذه المعارك الاخيرة ذات نطاق أوسع • فلقد شارك كل الشعب العراقي عربا واكرادا في تلك الثورة الكبرى ، التي لم تحقق ثمارها المرجوة كما كان يؤمل ذلك •

وسوريا الذين حاربوا مع لورنس[3] . كانت القوة الجوية الملكية التى مازالت فتية ، تحاول ان تضمن سلامة حكم فيصل . غير ان الشيء الذى أثار الدهشة فيما بعد ، وحرك الانزعاج لدى الجيش الذى كان يسبقها في التكوين ، هو تكليف المرتزقة العرب بأمر الحراسة اثناء الحرب ، حيث أصبح المرتزقة من الاكراد والآثوريين يؤلفون القاعدة الاساسية للقوة الجوية الملكية[4] .

ولقد اضيف المرتزقة العراقيون في النهاية الى قائمة الوحدات الانكليزية العاملة فيما وراء البحار ، والتى يستطيع الضباط الاعتياديون من الجيش البريطانى ان يعملوا فيها . وكان ذلك الترتيب مباركا من لدن الضباط الذين كانوا يتطلعون الى المغامرة ، وللحصول على مرتبات أفضل مما كانوا يحصلون عليه في بلادهم ، وهكذا كنت أنا واحد من اولئك الذين ارتبطوا بذلك العمل في العراق .

يحظى العالم العربي بجو ساحر . فبغداد مدينة هرون الرشيد ، وبتاريخها الطويل ، كان لاسمها اغراؤه وطعمه . وفضلا عن ذلك كان العراق مايزال بلدا فتيا وان كان موقعه في ارض قديمة . وكانت وحداته العسكرية المؤلفة حديثا تضفي على الواجبات العسكرية اهمية غير اعتيادية . وهو بلد يستحق الالمام به سياسيا وستراتيجيا .

---

(٣) لم يكن فيصل هو أكبر انجال الحسين كما ذكر المؤلف ذلك خطأ ، فأكبر انجال الحسين هو علي الذي ولد سنة ١٨٧٩ وتوفى في سنة ١٩٣٥ ، ويليه الملك عبدالله ، ثم فيصل الاول .

(٤) هي القوة التي ألفها الانكليز من المرتزقة، واكثريتهم من الآثوريين، والتي عرفت باسم قوات « الليفي LEVY » . وظلت هذه القوة موجودة الى أن تم تسليم قاعدتي الحبانية والشعيبة الى الجيش العراقي سنة ١٩٥٤ .

كان الوصول من الغرب الى العــراق في سنة ١٩٢٤ ما يزال يتم عن طريق ركوب احدى السفن التى تمخر البحار الى «بومباى» ، ومن هناك يتم ركوب سفينة اخرى اكثر بطئا الى الخليج العــربي • وكان العراق مؤشرا عــلى الخــرائط القديمــة باسـم « بلاد الرافدين » أي «ميسوبوتاميا» ، وهو حوض خصب وواسع تماما ، ترويه ثلاثة انهار هى دجلة ، والفرات ، وكارون • وحين ينظر المرء لاول مرة الى هــذه البقاع من الخليج العربي ، تبدو له اشبه بخيط في الافق ، حيث يلتقي الطين مع الماء الداكن العكر ، لكنه يكون غزير الخصوبة تحت الشمس الحارة ، والسماء المرطبة •

كانت هذه البلاد هي موطن مخازن الغلة بالنسبة الى القدامى من السكان • لقد دمر الغزاة المغول ، في القرن الثالث عشر ، قنوات الري ، ولذلك فلم يبق لهــذه البلاد ، بعد ذلك الوقت ، من صادرات ســوى التمور التى تكثر بساتينها في منطقة البصرة ، وهى من اوســع البساتين في العالم • ولم يفعل العثمانيون ، الذين خلفوا المغول في الحكم ، شيئا ابدا لاصلاح قنوات الري • ومهما كان سحر بغداد فان القسم الجنوبى من بلاد الرافدين ، والمحصور بين النهرين ، يؤلف في معظمه ارضا قفراء مجدبة ، معرضة لعواصف الرمل العنيفة ، ولمرض الكوليرا الذى يفد كل سنة تقريبا ، والتى يشمئز منها افراد الجيش ايام الحرب •

على مثل هذه الشاكلة كان الطريق المتعرج الذى يصل الى البصرة ميناء العراق ، مرورا بمدينــة «بومباى» • ولقــد استفسرت من وزارة الحربية قبل ان اغادر انكلترا ، عما اذا كنت استطيع السفر في طريق جديد عبر الصحراء السورية بالسيارة ، غير ان الجواب كان جافا • فقد اعتبر سؤالي ذاك منطويا على الحماقة بكل وضوح • ذلك لان البديل

الوحيد لطريق البحر ، هو سلوك طريق بدائي ، وذلك بركوب القوارب في نهر الفرات ، أو مع قافلة من الابل ، أو ركوب عجلة تجرها الخيول على ضفاف نهر الفرات • أما الطريق المقبول لدى اصحاب الخدمة في الوصول الى العاصمة الجديدة ، فهو بواسطة الباخرة ، ومن ثم بركوب القطار على سكة الحديد التي خطط لها الالمان وقام الانكليز ببنائها[٥] •

عندما اقترب القطار من بغداد ، اخذ يمر خلال روابي كبيرة في ارض جرداء ، وذلك هو كل مابقي من «بابل» موطن «برج بابل» وهكذا ماتزال بابل حتى الآن تقوم في ارض متعددة اللغات[٦] يوجد في جنوبي العراق كثير من الهنود ، بعضهم من التجار ، والمرابين ، والمشتغلين بالاعمال البسيطة • وهناك مائة الف شخص في الشمال يستعملون اللغة التركية لغة وحيدة لهم • أما التجار الذين يعملون في نقل السجاد ، فانهم يتكلمون الفارسية ، وان اول وزير للتربية لم يكن يعرف الكتابة الا بالفارسية[٧] ولم يكن احد ليعتبر استعمال تلك اللغة من الامور الشاذة •

---

(٥) يشير المؤلف بهذا الى سكة حديد بغداد ـ برلين التي بدأ الالمان بمدها قبل انفجار نيران الحرب العالمية الاولى ، والتي كانت ستخترق العراق من الاراضي التركية حتى الكويت • وقد بوشر بمد هذا الخط في سنة ١٩١٢ من بغداد باتجاه الشمال فوصل الى سامراء عندما قامت الحرب ، حيث أكمل الانكليز هذا الخط الى الشرقاط ، ومن بغداد الى البصرة •

(٦) اشارة الى الاسطورة القائلة بأن اسم «بابل» قد أخذ من تبلبل الالسنة ، أى كثرة لغات الاقوام التي كانت تسكن هذا الجزء من العراق •

(٧) كان أول وزير للمعارف في الحكومة المؤقتة التي الفها عبدالرحمن =

أما في الشمال الشرقي فهناك الاكراد الذين يتكلمون لغتهم الخاصة ويفعل ذلك أيضا الآثوريون وهم قوم لاجئون الى العراق • ويؤلف اليهود زهاء ثلث سكان بغداد تقريبا • وكان أول وزير للمالية يهوديا • وهناك اقليات اصغر ، من امثال الصابئة صاغة الفضة وصناع القوارب في الجنوب ، واليزيدية في الشمال وحتى المسلمون كانوا منقسمين الى طائفتين • وعلى هذا فان تنصيب ملك عربي ، غير معروف لدى اهل البلاد قبلا ، لا بد وان يجابه مهمة شاقة لمزج مثل هذه العناصر الكثيرة في امة حديثة ، ما لم يحظ بالتأييد من لدن دولة خارجية قوية • ففى الشرق حيث لا توجد سوى اهمية ضئيلة من دون الضغط الاجنبي ، تكونت الاقطار العربية الجديدة التى كانت قبلا تؤلف اجزاء من الامبراطورية العثمانية ، على ايدي الحلفاء ، وعصبة الامم • وكانت حتى حدود هذه الاقطار ، واستقرارها غير مؤكدة في اول الامر •

كان فيصل معروفا لدى اوربا بأنه ليس سوى قائد لموقعة من وقائع الحرب في الشرق ، أي الثورة العربية • ولكن تلك الموقعة كانت رومانسية اذا ماقورنت بالملحمة الهائلة في فرنسا ، تلك الملحمة التى تركت الذين شاركوا فيها ، وهم لايملكون سوى الشيء الضئيل من تصورات الفروسية في الحرب التى خاضوا غمارها في البداية •

=

النقيب ، من كربلاء هو محمد مهدي بحر العلوم ، وقد استبدل في الوزارة النقيبية الثانية بالشيخ هبةالدين الشهرستاني ، ولسنا نعتقد ان أيا منهما لا يعرف الكتابة باللغة العربية ، بل على العكس من ذلك كانت للشهرستاني مؤلفات منها كتاب «الهيئة» ومجلة تصدر بالعربية باسم «العلم» قبل الحرب العالمية الاولى •

ولذلك ظفر فيصل بشهرة غريبة غير اعتيادية ، راح السحر يضفي عليها كل مالديه من سمو • ففي اليوم السابع من شهر آب سنة ١٩٢٠ كتبت صحيفة التايمس مقالة افتتاحية مطولة عن فيصل قالت فيها « ان الامير فيصل منشىء الجيش العربى هو صلاح الدين العصر ! » • ومضت الصحيفة تقول ان «صفته وشخصيته ماتزالان كتابا مغلقا حتى بعد ان انعقد مؤتمر الصلح • لقد كانت الصحافة ترى شخصه الجذاب، لكنها لا تسمع سوى الجانب الرومانسي كثيرا من خدماته الحربية • ففى سنة ١٩١٨ نصب فيصل ملكا على سوريا ، لكنه ارغم على مغادرة دمشق في سنة ١٩٢٠ عندما دخلها الفرنسيون • وزادت التايمس على ذلك قولها « لقد كان الفرنسيون يرتابون من تنصيبه على سوريا ، ومن التأييد السري الذى كان يحظى به من لدن بريطانيا ، كمشروع ماكر لنشر النفوذ البريطاني »•

ولقد نشر «لورنس» مقالة عن فيصل في مجلة «بارك لاند» في شهر تشرين الاول سنة ١٩٢١ ، ذكر فيها المزيد من المعلومات الخاصة القليلة • ومما قاله « ان فيصل هو الشخص السابع والثلاثين المتحدر مباشرة من صلب الرسول ••••• وقد جيء به منذ ان كان فتى طريا ليعيش بين البدو بقصد التعود على الحياة الشاقة • وكان وهو في عنفوان الشباب نائبا في البرلمان العثماني • كما انه شارك في القتال مع احدى السرايا العربية لحساب الاتراك في اليمن • وحين قامت الثورة ضد الاتراك في سنة ١٩١٦ ، كان فيصل يقود البدو بنفسه ، ولم يكن لدى هؤلاء في ذلك الوقت سوى القليل من البنادق ، كما انهم لم يكونوا يملكون مخازن للعتاد !•

كان عليه ان يحافظ على روحية اولئك الرجال ، عن طريق

تذكيرهم بالمكاسب المادية التى سوف تعقب ذلك . فقد كان يملأ حقيبة الخزينة التى يحملها معه بالاحجار ، بدلا من النقود ، ثم يضعها بكل مباهاة على ظهر بعير ..... ولقد استطاع الاسطول البريطاني، بالنجاح السريع الذى احرزه في الساحل ، ان يجلب الاسلحة ومخازن العتاد الى فيصل ، وان يوطد قواعد جيشه على اسس اشبه بالاسس العملية .

ويواصل لورنس مقالتـه تلك فيقـول « وبالطبع فقد بلغ عمله الدرجة القصوى ، بانفجار الحماسة القوميـة المدهشة ، التى اجتاحت سوريا في ذات الوقت الذى تم فيه تدمير القوات التركية على ايدي الجيوش الحليفة . وقد دخلت القوة التى قادها فيصل مدينـة دمشـق في اليـوم الثلاثين من شهر ايلول سنة ١٩١٨ ، باعتبارها طليعة الجيوش التى كان يقودها «اللورد اللنبي» » .

كان فيصل يتحدث المرة تلو المرة عما هـو مدين بـه الى بريطانيا العظمى . ولم يكن لورنس نفسه معروفا عندما كتب مقالته تلك . فقد كان الكتاب الذى وضعه الكاتب الأمريكى «لويل توماس»(٨) هـو الذى اضفى على لورنس الشهرة باعتباره بطلا في حرب البدو . ذلـك لان

---

(٨) وضع «لويل توماس» كتـابا عن حوادث الثـورة التي قام بهـا الشريف حسين في الجزيرة العربية بعنوان «مع لورنس في الجزيرة العربية»

LOWELL THOMAS: WITH LAWRANCE IN ARABIA

وقد عكفنا على ترجمته واعداده للنشر وفي هذا الكتاب أضفى توماس على لورنس مختلف نعوت البطولة والشجاعة والعبقريـة الحربية ، وما هو في الواقع الا واحد مـن عملاء المخابرات البريطانية ليس الا .

الكتاب الذى وضعه لورنس نفسه لم يكن قد تم نشره بعد[٩] •

كانت المس « غيرترود بل » معروفة بشكل افضل من لورنس ، بكتاباتها التى كتبتها قبل الحرب ، باعتبارها رحالة في البلاد العربية ، وفي بلاد فارس ، والتى قيل عنها بأنها كانت النصير المتحمس لفيصل ، والتى تعيش في بغداد في الوقت الحاضر ، والتى قال لي اصدقاؤها في انكلترا ، بانه لا بد لي من ان التقى بها هناك في أسرع وقت مستطاع ، ولو ان اسراعي في عرض رسالة تقديمي لنفسي عند وصولى الى بغداد ، قد أدت الى تأخرى في ملاقاتها •

× × ×

لم يطل الوقت حتى عينت للعمل في أحد المراكز العسكرية في بغداد ، وفي بيت كان يشغله رئيس الاركان الالمانى اثناء الحرب • وسرعان مارحت اطرح الاسئلة على بواب الفندق الذى حللت فيه ، وهو مسيحي ، عن المكان الذى يمكن ان توجد «المس بل» فيه • ولغرض الحفاظ على البرودة في المكان جهد المستطاع ، فقد غطيت باحة الفندق بسقف من نسيج الخيام يستطيع الحمالون ادلاءه من قمة السقف ،وكان لهذه الواسطة خلال الصيف تأثيرها المريح • أما في فصل الشتاء فانها تؤدى الى حلول ظلام بارد ، يزيد من تأثيره الدهان الاخضر المعتم الذى صبغت به الجدران •

هنالك شرفة تدور حول الباحة ، كما هو مألوف في كل البيوت القديمة في بغداد ، وتستند هذه الشرفة على اعمدة نحيفة من اشجار

(٩) أصدر لورنس بعد انتهاء الحرب مباشرة كتابا بعنوان «الثورة العربية» ومن ثم أدرجه في الكتاب الذي نشره فيما بعد بعنوان «اعمدة الحكمة السبعة» •

النخيل • وكان التأثير العام لهذه الاعمدة اشبه بالرسوم التى تظهر في بستان للنخيل ، يرسمه طفل غير فنان •

وتدور الممرات المظلمة خارج الباحة ، وتتصل بسلالم من الآجر، تؤدي الى الغرف الارضية ، والى السراديب التى يأوى اليها في منتصف الصيف • ولم تكن هذه المداخل التى تشبه الكهوف تغري احدا بالدخول اليها • وكان بواب الفندق يشير بيده البيضاء نحو تلك المداخل ويقول ، ان المس بل تعيش هناك •

كانت المس بل التى تنتمي الى اسرة شهيرة جدا في «يوركشاير» ، من أشهر الرعايا البريطانيين المعروفين في بلاد الرافدين ، أو ربما في الشرق العربي برمته • وتكشف مؤلفاتها الادبية عن معرفة وحساسية ، وقد لعبت دورا قديرا في الحرب، فكانت مستشارة للدبلوماسيين وللوزراء• ولو كانت المس بل رجلا ، لغدت واحدا من الدبلوماسيين والوزراء • ولكنها كانت في الواقع تشغل وظيفة السكرتير الشرقى والمستشار للمندوب السامي في بغداد • وكان من المستغرب جدا ان تسكن ذلك الفندق من بغداد ، والذى كان يتردد عليه بصفة غالبة ، التجار الانكليز المتزمتون ، أو الضباط الشبان من امثالي •

وفضلا عن ذلك كانت «المس بل» رحالة ومنقبة عن الآثار ، ولقد قامت بمفردها برحلات صحراوية طويلة مع العرب والفرس • فكانت تمضي سنة كاملة او اكثر من ذلك ، ومن دون مساعدة ، في خيام البدو، كما تمضي الاسابيع في القوارب التى تنحدر في مياه نهر الفرات ، في نفس الوقت الذى تتركز فيه كل مشاعر المرء في الراحة ،وفيما يحيط به•

قال لي صاحب الفندق ، وهو ارمني « ان المس بل تسكن الآن في

غرفة مطلة على النهر » • هذا هو الامر اذن ، ولكن ربما كان هنالك مكان ذو منظر حسن عند نهر دجلة •

بعثت بالرسالة ، وبقيت انتظر ولـكن لمدة غير طويلة • وبطريقة مبتسرة غير اعتيادية تم تقديمي الى «المس بل» في الحال ، وذلك في الغرفة التى تشغلها في الشرفة • كانت شمس الشتاء تسطع على صفحة الماء ، وفي داخل الغرفة • وعلى منضدة صغيرة وسط الغرفة ، وضعت جملـة من قناني الكحول ، كان اقربها قنينة من شراب «الجن» الشهير ، مع اقداح كان البعض منهـا مستعملا ، وعود لتحريك الشراب ، وادوات اخرى لاستعمال الاشربة •

والى ناحية اليمين امتدت نحو المنضدة ، فوق كرسـي واطىء ، ساق كبيرة ملفوفة باللصاق حتى الفخذ ، وكانت رسالتي المفتوحة ملقاة على ارض الغرفة •

خاطبتني الجالسـة بقولهـا « ادخل ياعزيزى واسـعف نفسـك بالشراب فانك في حاجـة اليـه • انك تريد ان ترى المس بل ؟ انا المس بل ! هل جئت الآن ؟ لا اكثر من ذلـك ياعزيزى • املأ لنفسك الكأس التى يملأها الرجل له ، واجلس هنا ، وخبرني عن نفسك ! » •

كانت المس بل نافدة الصبر بسـبب نقـاهتها • ولقـد فرحت لان الفرصة قد وفرت لها شابا كانت قد استولت عليه ، كما هو الواقع ، من المس بل ، وهي سيدة لا تحبها بكل وضوح • ولقد ازدادت غلطتي سوءا ، بارتكابي غلطة ثانية • فقد كتبت رسالة الى المس بل • وبدلا من ان أقول لها بكل بساطة بأنني قد اضعت رسالـة التقديم اليهـا ، اوضحت لها بايجاز كل ماحدث • ذلك لان وقوع خطأ بينها وبين أى

انسان آخر ، لم يكن يدور في الحسبان • ولقد تحققت في النهاية بأن ادخال البهجة على المس «غيرترود بل» ، والصفات الخاصة التي كانت تتصف بها السيدة الاخرى ، لا يمكن ان تحسن الوضع بالنسبة لي • ذلك لان الاسم الذى تحمله زوجة مدير ميدان السباق ، لا يمكن ان يربكها في اية حالة من الاحوال •

وربما لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يقع فيها الخطأ بين الاثنتين• ترى هل كانت الذكية المس بل قد اخبرت بواب الفندق بخبث مسبق، بأن لا يدل عليها جميع الزوار الذين كانوا يسألون عن «غيرترود بل» ؟• لا بد انها كانت تتصرف مثلها ، فقد كان زوجها قويا وفكها ، وهو ـب الى لعبة الخيل ، من الشخوص التى كانت تصمم لكي تعطى ـارة الانقاذ ، في مسرحيات شكسبير ، تلك التى تكون عادة جد ـرورية في الفترات التى تقع مابين المشاهد البطولية والمذابح ، واعمال العنف الاخرى •

لم تكن المس «غيرترود بل» محبوبة من لدن الضباط الشبان ، وهى تختلف عنهم في بلد لا يجد فيه معظمهم سوى القليل مما يوفره العمل لهم • فهى بالاحرى لم تكن بالنسبة اليهم اكثر من رئيس سياسي ، وكاتبة قديرة ، وسيدة كبيرة ، ومؤلفة يعجب بها حقا • انها المس بل وكفى ! ولذلك فانني وان لم التق بالمس «غيرترود بل» في الحال ، الا انني كنت ألمحها عن بعد ، في حفلات الاستقبال ، كما شاهدتها في احدى المرات تمتطي صهوة جوادها وهى عائدة في مساء يوم شديد الحرارة •

لقد رأيتها على الطريق الذاهب الى الكاظمية شمالي بغداد ،

يتقدمها اثنان من الخيالة الهنود ، في حين كانت هناك عربة كبيرة تقترب من طريق ضيق مترب يمـر خلال بساتين النخيل • وحين كانت تلـك العربة تنط ببطء فوق قناطر صغيرة متعاقبـة عبر قنوات الرى ، كانت تثير وراءها سحبا صغيرة من الغبار • وعلى فترات كان يبرز من هـذه البساتين شخص منتصبا ، في رداء اسود ، فوق سرج فخم الطراز على ظهر مهر عربى واسع الخطوات • لقد رأيت العلـم البريطاني ، والمندوب السامي يجلس في سيارة وهو يحيي المس بل ، التى كانت تضع سوطها بشكل عمودى بالنسبة الى حافة سرجها ، وذلك ردا للتحية ، وقد ركزت مهمازها وهى راكبة ، وانطلقت خببا الى امام •

بعد مرور فترة تأن طويلة ، كيما تظهر خلالها سبب اشمئزازها لما حدث بشأن الرسالة دون شك ، دعيت في امسية يوم من ايام الربيع لزيارتها في بيتها ، وهو عبارة عن بنـاء واطىء من الطين والآجـر ، يقع وسط حديقة من الورود في الباب الجنوبى • كان يحيط بالمبنى وبالحديقة سور عال من الطين له باب خشبية ، ينبغى لك ان تطرقه وتنتظر حتى يفتحه خادمها المسلم ، ويقودك الى شبابيك فرنسية طويلة، تطل على غرفة صغيرة ، صنعت بحيث تكون مشابهة ، حسب المستطاع، لغرفة الاستقبال الانكليزية ، ويتوفر فيها المزيد من الالاعيب والرسوم ، مع نبتة ذات اوراق عريضة تملأ موقد التدفئة •

كانت المس بل نحيفة بشكل ملموس • وحين نهضـت انتصـبت واقفة تماما ، وقد اضفى طولها غير المعتاد ، شيئا من الفخامة على تكوينها الظاهر ، وكان انفهـا النحيف المستقيم من النوع الذى يدلل بصفـة تقليدية على الذكاء النادر • كان شعرها ذا لون ذهبى رملى وقد اخذ يتحول الى لون قهوائى ، ذلك انها كانت آنذاك في السادسةوالخمسين

من عمرها • كانت تضع على رأسها قبعة من الطراز الادوردي[١٠] تغطي جبهتها تماما • وكان ملبسها المسائي مصنوعا من قماش «الكريم» ، وفضفاضا بشكل واسع ، ترتدى معه طيلسانا من « الموسلين » • كانت تعتمد في اختيار قبعاتها وملابسها ومعاطفها من اسواق باريس • وكانت تعتبر اللباس الدنيوي الخالص ، هو اللباس المناسب للمرأة الانكليزية في الشرق •

لم تكن طريقة استقبالها فخمة تماما • كنت قد وصلت دارها مبكرا بعض الشيء • ولم يكن احد من الضيوف قد وفد الى هناك بعد • كانت تجلس في كرسي صغير مغطى بالنسيج الرقيق وهو من الطراز الفكتوري • ومما جعلنى احس بنفسي انني امام شخصية ادوردية ، غريبة عن الطريقة الحديثة ، انها لم تطرح ايا من الاسئلة المباشرة الا بعد ان حضر الآخرون •

لقد حضرت المس بل قبل ثلاث سنوات على ما اعلم ، مؤتمر القاهرة الذى عقده ونستون تشرشل وزير المستعمرات ، وكان يرافقه لورنس بصفة مستشار له ، وكانت المس بل من الذين ايدوا بحماسة ملوكية فيصل ، وكانت كلماتها الصريحة لاول ضابط سياسي التقت به بعد عودتها من ذلك المؤتمر قولها «لقد اقتلعناها»[١١] •

---

(١٠) نسبة الى عصر الملك ادورد البريطاني

(١١) ذكر المؤلف في الحاشية ان هذه العبارة منقولة من كتاب «السر ريجنالدوينغيت» المعنون «بعيدا عن أضواء المسرح»
SIR REGINALDWINGATE
"NOT IN THE LIMELIGHT"
ونضيف الى هذا ان هذا الكتاب هو مذكرات السر وينغيت الذي =

كان فيصل في حاجة قصوى الى مثل هذه المساندة فيما بعد ، وقد شكرها ، وكان شديد الامتنان منها • كانت ملأى بالحماسة ، وتستمتع بخلق الملوك •••• لقد كتبت الى ابيها من بغداد في ذلك الوقت تقول له « اليس هذا بالامر العجيب ؟ لقد كنت افكر في بعض الاحيان بأنني لا بد وان كنت في حلم ! » •

× × ×

هنالك مصاعب كان لا بد من التغلب عليها • ذلك ان معظم الناس كانوا مترددين بشأن فيصل قبل مقدمه • وليت ذلك كان نتيجة جهل به فحسب • ففي المناطق الحضرية الجنوبية ، حصل رخاء في اعقاب الاحتلال العسكري • **ولذلك لم يكن السكان هناك يؤيدون تغيير الحكم البريطاني • وكان بدو الصحراء غير مكترثين بالامر في حينه • ولكن في شهر حزيران سنة ١٩٢١ ، وقبل وصول فيصل تماما ، كتبت المس بل تقول « انها لحالة مضحكة حقا ان انبىء الناس ، المرة تلو المرة ، فيما اذا كانوا يرغبون في قيام حكومة عربية ام لا ، وانه ينبغى ان تكون لهم حكومة عربية لا بريطانية » •**

وبعد ان قدم فيصل الى العراق ، كانت المس بل ماتزال تضغط

=

لعب دورا كبيرا في «المكتب العربي» الذي انشأه الانكليز في مصر في أوائل الحرب العالمية الاولى ، وأخذ على عاتقه تنظيم الاتصال بالشريف حسين للقيام بثورته ضد الاتراك وانشاء الحكومة العراقية بعد الحرب • ولا يزال توجد في الاسكندرية حتى اليوم منطقة تعرف باسم «وينغت» من المؤكد ان المذكور كان يعيش فيها•

على العراقيين بأن فيصل هو الرجل الحق • ففى اجتماع موسع لبدو الصحراء الغربية ، وحين راح فيصل يتحدث اليهم بلغتهم الخاصة ،كان يتحدث بلغة الصحراء العظيمة ، اللغة الجهورية الفخمة التى لا تشبهها لغة اخرى • لقد كان فيصل يتحدث مثلما يتحدث شيخ القبيلة الى ملتزميه ، الى درجة ان كلا من «فهد الهذال» الرئيس القديم والشهير لقبيلة «عنزة» في العراق ، و «علي السليمان» رئيس قبائل الدليم قالا له وجها لوجه « يا فيصل اننا نقسم بالولاء لك ، لانك مقبول من لدن الحكومة البريطانية ! » •

وكذلك كان الاكراد ، هم الآخرون في حاجة ماسة الى المزيد من الاقناع • وهناك آخرون غيرهم ، واقليات اخرى وبعض الموظفين الانكليز الذين كانوا يرتابون في فيصل او يعارضونه • ويعتقد «السر رونالد وينغيت» ان « هذه القطعة المفردة من حماسة لورنس ــ وانا اخشى ان يكون ذلك التحزب الرومانسي الذى تبديه المس «غيرترود بل» لشيخ الصحراء الملتحي صاحب العقال والمساهم معي في الرغبة المفهومة لدى حكامنا في ان لا يدعوا صديقا مهملا •••• ــ ان ذلك كله سوف ينجم عنه وضع سياسي غير مستقر بصفة متواصلة في العراق ••• » •

اما «سنت جون فلبي» [وهو من منتسبى الخدمة المدنية في الهند ، وضابط سياسى ، ورحالة شهير ، ومؤلف] فقد كان يدعو الى الجمهورية • وكان هناك آخرون يشاطرونه ذات الرأى •

جاء الاستفتاء لصالح فيصل ، وقد ذكرت التقارير البريطانية الرسمية ، ان نسبة المصوتين لصالحه كانت ستا وتسعين في المائة • ولكن

كانت تلك في الواقع عملية غير مؤكدة • فلولا تدخل الضباط السياسيين البريطانيين ، وايضاحاتهم ، وترتيباتهم ، لجاء الاستفتاء عكس ذلك • ولقد ذكر احد اولئك الضباط السياسيين ان كثيرا من الناس الامين في الشمال كانوا يظنون انهم لا يصوتون لاختيار ملك ، وانما للحصول على المزيد من السكر والتموين في وقت قصير • في حين ظن بعض الشيعة في الجنوب بأن فيصل كان شيعيا وليس سنيا •

× × ×

كان ضيوف المس غيرترود بل على مائدة العشاء في اول ليلة التقيت فيها معها ، اثنين من اعز اصدقائها في العراق ، وهما النقيب «التدكلايتون» من ضباط المدفعية في الجيش العراقي المشكل حديثا ، و « كينهان كورنواليس » الذى جاء الى العراق مع فيصل وبطلب منه ، وظل يعمل معه مستشارا لوزارة الداخلية • وكان كلاهما ، مثل المس بل ، من المؤيدين الاشداء لنظام الحكم الجديد • ولقد تحدث كورنواليس عن النقص البادىء في الحماسة ، وكيف ان فيصل كان على استعداد لحضور حفلات استقبال كبرى في محطات القطار بين البصرة وبغداد ، وكيف ان القطار كان يمر في الغالب بمنصات خالية تقريبا من الناس الذين يجلسون عليها • وواصل كورنواليس بصوته الواطىء العميق يقول «وحين وصلنا اخيرا الى «الحلة» اخبرت الضابط السياسى هناك «برترام توماس»[١٢] ان من سياسة حكومة جلالته مساندة فيصل ، وانه ـ أى برترام ـ اذا ماقدر قيمة عمله ، فانه يحسن صنعا ان هو اتصل بالافراد البارزين في اللواء ، وجاء بهم في اسرع وقت مستطاع الى بغداد ،

---

(١٢) ذكر المؤلف في الحاشية عن برترام توماس بأنه اصبح في النهاية من الرحالين وتولى منصب وزير المالية لدى سلطان مسقط وعمان، وكان اول اوربي يجتاز «الربع الخالي» في الجزيرة العربية •

بمثابة وفد للترحيب بقدوم فيصل •

كان كورنواليس رجلا عملاقا يبلغ طوله اكثر من ستة اقدام ، وذا انف كبير بصفة مميزة ، ومن السباقين الى الشهرة في الجامعة التى كان يدرس فيها • وكان في اثناء الحرب يعمل في المكتب العربي بالقاهرة ، تحت امرة المستعرب الشهير «هوغارث»(١٣) ومن ثم عمل ضابط اتصال بين فيصل والقائد البريطانى العام في سوريا • وكان حجمه الضخم ، وطريقته الهادئة ذات اثر فعال •

ولقد عاد كورنو واليس ، حين غادر فيصل سوريا،وعلى اثر المذكرة التى قدمها الفرنسيون ، الى وزارة المالية في القاهرة • ولكن حين وافق فيصل في سنة **١٩٢١** على ترشيح نفسه ملكا على العراق ، سأل كورنو واليس عما اذا كان يستطيع ان يلحق في السويس • وفي جدة اقبل عدد من العراقيين الذين هربوا من بلدهم بعد فشل ثورة **١٩٢٠** ضد البريطانيين ، الى ظهر السفينة التى كانت تقل فيصل ، واتصلوا به • ويقول كورنو واليس عن تلك المقابلة متهكما « ليس هناك شك في انه كان لديهم المزيد مما يريدون ان يقولوه له عن بلدهم • ولقد ظل فيصل على ظهر السفينة وهو يتحدث اليهم ، وفي غضون ذلك لم يفتهم الاتصال بالبريطانيين »(١٤) •

---

(١٣) هوغارث HOGARTH اسمه الكامل ديفيد جورج هوغارث من اليهود المبرزين في عالم الاستشراق في بريطانيا عمل مدير المتحف الاشموني وكان من أكابر المعنيين بالتأريخ العربي لكنه كان في ذلك الوقت من أركان الحركة الصهيونية ومن الرؤساء الذين تولوا الاشراف على المكتب العربي في القاهرة وقد تولى قيادة وحدات عسكرية خلال الحرب العالمية الاولى •

(١٤) يشير المؤلف بذلك الى الوفد الذى ارسله العراقيون بعيد الثورة =

كان فيصل محظوظا اذ توفر له رجل مثل كورنواليس ٠ فهو وان كان يميل الى الاتصال بفيصل عن طريق الحكومة المصرية قبل ثلاثة شهور من ذلك الوقت ، الا انه كان عليه ان يمكث في العـراق لفترة محدودة ، الى ان غادره سفيرا متقاعدا بعد عشرين سنة من ذلك ٠كان كورنوواليس ، يعمد بصفة اكثر من الآخرين ، الى اجـراء تـوازن بين الحكومة العراقية والسلطات البريطانيـة اثنـاء الفترة العظمى من تلـك السنين ، وقد ظفر بثقة فيصل اكثر مما ظفر به اى انكليزى آخر ٠

لم يتم وصول فيصل الى بغـداد طبقـا للتوقيت المخطط ، وذلك بسبب الجولة التى كان يود القيام بها في المدن الجنوبيـة ٠ واذ كان البارزون من البريطانيين والعـرب قد تجمعوا في مبكـر صباح اليـوم التاسع والعشرين من شهر حزيران ، في محطة القطار،وعلى رأسهم السر برسي كوكس المندوب السامي ، فقد علم الجميع بأن فيصل لن يصل الى المدينة الا في منتصف النهار ٠

كان الوقت آنذاك هو منتصف فصل الصيف ، وعندئذ انبـأ السر كوكس كل فرد من الحاضرين ، بأن يعودوا ، وان يتجمعوا مرة اخرى عند المساء ، كما بعث ببرقية الى فيصل يخبره فيهـا بأن يؤخر وصوله حتى ذلك الوقت ٠ لقد بقي فيصل وكورنوواليس ينتظران بغداد ، بدلا من ان تنتظرهما بغداد ذاتها ٠ وهكذا وبطريقـة محورة قليلا ، لكنها متطابقة مع وعودنا اثناء الحرب ، بدأ الهاشميون يحكمـون من مكـة الى العراق ٠

=

الى الحجاز للاتصال بالملك حسين بن علي وعرض مستقبل العراق عليه وكان من اعضاء ذلـك الوفد محمد رضـا الشبيبي وجعفر ابى التمن ٠

اصيب فيصل بخيبة امل ممضة ـ كما انبأ بذلك كورنوواليس ـ جراء الاستقبال البارد الذى استقبل به لدى وصوله الى العراق • فقد قال بأنه كان يتوقع وجود احساس حقيقي بالاستقلال وبالوحدة بين اهالي العراق ، وانهم كانوا يريدونه حقا • غير انه لم ير سوى دليل ضئيل على ذلك • كان يشعر ان اول شيء يفعله ـ اذا ما اراد العراق ان يصبح دولة مستقلة ـ هو ان يخلق ذلك الاحساس • ولذلك استكان كثيرا الى جعفر العسكرى ، ونورى السعيد ، وهما من مواليد العراق ، ومن الضباط الشبان السابقين في الجيش العثمانى ، الذين اشتركوا معه في الثورة العربية •

كان نورى السعيد هو الذى سبقه في التوجه الى العراق ، وفي تنظيم الحماسة الضئيلة التى اظهرت لفيصل عند وصوله فلم تكن تلك هى المرة الاولى التى كان ينبغى فيها لفيصل ان يواجه الصدمات ، ثم ينجح بعد ذلك في التغلب عليها بمساعدة البريطانيين • فعندما سافر في سفينة حربية بريطانية الى فرنسا ، ممثلا للعرب في مؤتمر «فرساى» ، التقى في مارسيليا بضباط فرنسيين اعلموه بأن حكومتهم لا تعتبره رئيسا للوفد ، واقترحوا عليه بدلا من ذلك ، ان يقوم بزيارة ميادين القتال • غير انه فارق اولئك الضباط ، وتوجه الى انكلترا ، حيث استطاع البريطانيون حمل الفرنسيين على القبول بحضوره ، وفي الوقت ذاته استقبله ملك بريطانيا ، ومنحه قلادة الوسام الفكتورى ، واكرم وفادته•

ولقد صحبه الى المؤتمر كل من رستم حيدر ، وتحسين قدرى ، وكلاهما سوريان ، ونورى السعيد الذى كان في الثلاثين من عمره ، اى اصغر من فيصل بثلاث سنوات •

في تلك الايام كان فيصل مايزال يرتدى الملابس العربيــة ، «الكوفية والعقال» • ولقـد وصفتـه صحيفـة «الفيغارو"FIGARO لدى وصوله الى «بولون ـ سرمير» ، بأنه قد حظى «بمقابلـة مهيأة في وقتها من لدن الحكومة على يد النقيب «بيسانى» (الذى كان موجودا في الجزيرة العربية اثناء الثورة) مندوبا عن وزارة الشؤون الخارجيـة ، والذى بقى مصاحبا له اثناء المؤتمر •

ادت ثلة من القوات الفرنسية وجوقة الشرف ، التحية والتكريـم للامير الذى تنـاول عشاءه المهيـأ في حينه ، ومن ثـم ذهب الى أحـد المسارح فجلس في مقصورة مختـارة لكى يشاهد مسرحيته «المفضلـة LA FAVORIT"

واخيرا وفي منتصف شهر كانون الثانى سنة ١٩١٩ في باريس ، ـعي فيصل الى استقبال رسمي في فندق «دي‌فيل» • وكان يحمل وسام جوق الشرف ، ويرتدى لبـاس رأس يذكر من يراه بأنـه «ابو هول مصرى» ، وقد وقع في الكتاب الذهبى للمدينة ، وقدمت له هدية بندقية صيد فاخرة مطعمة بالذهب •

لقد كان استقبالا تصعب مقارنتـه بتلـك الصدمـات الاوليـة التـى استقبل بها في مارسيليا ، عند وصوله لاول مرة الى اوربا الغربيـة ، أو بالتقدم الضئيل الذى استطاع ان يحققه في المؤتمر • ومع ذلـك فهـو غير قادر على ان ينسى طرده بالقوة من سوريا على يد الجنرال «غورو» والجيش الفرنسى في سنة ١٩٢٠ ، سوريا التى سارع الى دخولها ظافرا في بداية شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، وتم تنصيبه ملكا عليها •

سرعان ما تبخرت ، في مؤتمر الصلح ، احلام العرب بالاستقلال

المباشر ، وبالوحدة • وهكذا فحين قدم فيصل الى العراق للمرة الاولى سنة ١٩٢١ ، وهو في سن السادسة والثلاثين من عمره ، كان حذرا جدا من وعود الحلفاء ، وكان يؤمن بصفة اكثر ، بالمساعدة التي يستطيع الحصول عليها من افراد قلائل ، والاعتماد على نشاط اتباعه من العرب العراقيين ، اولئك الضباط الشبان في الجيش العثماني ، والذين عرفهم اثناء الحرب ، وقد شارك معظمهم في الثورة العربية ، وقد كانوا موجودين في العراق سنة ١٩٢٠ ، ويحقدون على الوجود البريطاني في العراق •

وحتى لو كان اهالي بغداد كلهم مستبشرين لاستقبال فيصل ملكا عليهم في سنة ١٩٢١ ، فان المدينة ذاتها لم تكن على استعداد آنذاك للقبول بأي ملك كان • ذلك لانه لم تكن فيها اية اماكن ، بل وحتى اية ابنية ملائمة يستطيع الملك اختيارها بيسر لاستعماله الخاص • ذلك لان بغداد بقيت حاضرة غير حقيقية طيلة سبعة قرون تقريبا ، منذ اليوم الذي خرج منها آخر خليفة عباسي مع اسرته مستسلما للجيش المغولي الذي ذبحهم فيما بعد ، وذلك في نقطة جد قريبة من المكان الذي قتل فيه احفاد فيصل ، بعد مرور سبع وثلاثين سنة على تتويجه !•

لم تكن في بغداد آنذاك سوى ثلاثة جسور خشبية مثبتة على زوارق • لقد كانت لدى البسطاء من الناس آنذاك خرافة تقول بأن بغداد متى ما اصبحت لها خمسة جسور ـ مثلما كان الامر عليه في زمن الخلفاء ـ فانها سوف تنهار • ولقد قال اولئك الناس ، وهم يبحثون عن برهان يؤكدون به صدق خرافتهم تلك ، ان الجيش الانكليزي قد اقام في وقت من الاوقات جسرين اضافيين ، الى الجسور الثلاثة(١٥) •

---

(١٥) المعتقد ان هذين الجسرين الاضافيين قد انشئا غداة احتلال
=

اعتاد الولاة العثمانيون الذين كانوا يديرون شؤون ولاية بغداد ، السكن في قلعة تقع عند البوابة الشمالية للمدينة • وكانت تلك البوابة مع البوابات الاخرى ، والسور المتهدم جزئيا ، والسدة المحيطة ، تشير الى حدود مدينة بغداد حين وصل فيصل اليها ، ولذلك فانه اتجه الى القلعة ليسكن فيها • كان يركب سيارة اعدها له البريطانيون ، وهو يمر بها عبر الشارع الوحيد في بغداد ، والذى يخترق شبكة من الازقة والطرقات المكتظة التى تشغلها الاسواق التى تؤلف مدينة بغداد •

لقد اصرت القيادة العسكرية الالمانية العليا ، على شق طريق عبر المدينة لاغراض التموين العسكرى • وقد تم شق ذلك الطريق حسب التوجيهات العسكرية ، ولذلك كانت ترى على امتداد انصاف دور ، وقطع من الاثاث وغيرها ، ظلت ظاهرة للعيان لعدة سنوات مؤخرا[١٦] كان هذا الشارع الذى سمى باسم الجنرال «مود» ، الذى مات بالكوليرا في بغداد في سنة ١٩١٧ ، غير معبد • ولذلك فحين كانت الامطار تهطل في ايام الشتاء ، يصبح السير في شوارع المدينة امرا متعذرا • واذ كانت الامطار تؤدى الى المضايقة ، فلم يكن يبتهج بها الا نادرا ، ولذلك كان الناس يهربون منها كيلا يبتلوا •

الانكليز لبغداد وكان احدهما في منطقة الهنيدي (معسكر الرشيد الحالي) والثاني في سلمان باك ، وقد تم رفعهما بعد فترة قصيرة.

(١٦) قام خليل باشا قائد الجيش العثماني في بغداد ، بشق هذا الشارع الذى اقتطع جزءا كبيرا من بناية شركة «لنج» الانكليزية. ولذلك سمي هذا الشارع باسم «خليل باشا جادەسي» وقد نقشت بهذا الاسم مرمرة الصقت على باب مسجد «سلطان سيد علي» وبقيت ظاهرة للعيان الى ان تم تجديد بوابة المسجد المذكور في سنة ١٩٣٤ ، وذلك حتى بعد ان سمي الشارع باسم « شارع الرشيد » في سنة ١٩٣٥ •

كذلك كان الحمالون اللورستانيون (الفيلية) الذين يعملون في مرفأ الكمرك[١٧] يتوقفون عن العمل موقتا ، ومن ثم يقفون في صفوف لكي يحملوا على ظهورهم البارزين من العراقيين ومن الاوربيين عبر الشوارع الفائضة بمياه الامطار ، لقاء «آنات» قليلة[١٨] . لقد اعتاد اولئك الحمالون حمل الاحمال الثقيلة ، والصناديق المرزمة ، بل وحتى الجسور والعوارض . ولذلك كان نقل البشر على ظهورهم يعتبر من اعمال النقل الخفيفة .

وحين كانوا يسلكون طريقهم عبر الشارع يعلقون اطراف ارديتهم القصيرة في احزمتهم ، ويغوصون في الاوحال حتى الركب ، وهم يضحكون ويمزحون ويتبادلون بذيء القول .

ولم تكن البيوت في بغداد قوية وطيدة لانها مبنية بالآجر ، ولو ان جدرانها غالبا ماتكون سميكة لغرض توفير البرودة ، كان يصعب التأكد من بقاء أي شيء في المدينة منذ ايام الخلفاء ، وان اقدم البيوت فيها قد بنيت مجددا ، وجددت واجهاتها وسقوفها .

في بغداد طبقة متوسطة محدودة كانت تتألف من التجار الاغنياء ،

---

(١٧) كان هذا المرفأ امام بناية المستنصرية التى حولها العثمانيون الى مخازن للسلع المستوردة والمصدرة ودائرة للكمرك . وكانت القوارب والمراكب الصغيرة التى تنقل البضائع من البصرة او الموصل تقف عند هذا المرفأ .

(١٨) جمع «آنة» وهو من النقد الهندى الذى ادخله الانكليز الى العراق بعد الاحتلال مباشرة وظلت هذه العملة سارية المفعول الى ان تم اصدار العملة العراقية الملكية في سنة ١٩٣١ وكانت الآنة تساوي خمسة فلوس .

وزعماء رجال الدين ، وقلة من الاسر المتنفذة التى كان على فيصل ان يقنعها بأن تكون من انصاره • وقد ظلت اسماء هذه الاسر تتردد في قوائم الوزراء حتى سنة ١٩٥٨ ، وان كان ذلك على نطاق اقل بمرور الزمن • وكانت الاسرة البارزة بين تلك الاسرة هى اسرة النقيب رئيس الاسرة الكيلانية التى كان نفوذها يمتد من الصين الى المحيط الاطلسى ، وذلك عن طريق انصاره من اتباع الطريقة «القادرية» •

وبالاضافة الى ذلك فهناك زهاء عشرين عائلة بارزة اخرى ، من امثال اسرة فؤاد الدفتري ، والشيخ ابراهيم الراوي ، ورفعت الجادرجي، وموسى الباجهجي ، ويوسف السويدي ، وعبدالمجيد الشاوى ، ومحمد جواد[١٩] ، ومحمد جعفر ابو التمن ، وعبدالغني كبة ، وفخرى الجميل زادة ، والشيخ احمد الداود ، واسرة آل النائب ، والجوربجي ، وآل عطيفة في الكاظمية ، والخضيرى ، والاورفلي ، والشابندر التى كان يرأسها محمود الشابندر ، واسرة عبدالرحمن الحيدرى وهى من اربيل•

اما في انحاء القطر فقد كانت الاسماء البارزة هى اسم امير ربيعة ، وزعيم قبيلة «عنزة» ، وزعيم قبيلة شمر ، واسرة السعدون في المنتفق ، والاسرة البابانية في كردستان •

وكانت هذه الاسر والعشائر متوطنة مستقرة ، ماعدا قبيلة شمر • وغالبا ماكانت هذه الاسر تقاوم احداها الاخرى ، كما كان عليه الامر في ايطاليا اثناء العصور الوسطى •

وكان بعض افراد هذه الاسر يعيشون في اسطنبول منذ الايام التى

---

(١٩) هكذا ذكره المؤلف باسم محمد جواد ، ولعل المقصود به رضا الشبيبي وهو ابن جواد بن شبيب •

سبقت الحرب العالمية الاولى، حين كانت اسطنبول عاصمتهم الامبراطورية •

اما في العاصمة الجديدة بغداد - فكان يندر وجود عوائـــل ذات شخصية ماخلا اسرة نائب الوالي السابق[٢٠] واسرة رئيس اركان الجيش العثماني المشير محمد فاضل باشا الداغستاني ، وهو قوقازي متحدر من نسل حاكم ولاية داغستان التي كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي ، والذي اعطيت له اراضي زراعية في العراق ، اثر تقاعده عن الخدمة •

وكذلك توجد في بغداد مبـاني كبيرة متداعيـة ، تختفي سـاحاتها الواسعة خلف ابواب ثقيلة مزخرفة بمسامير نحاسية ، وفيها غرف ارضية خالية من النوافذ ، وتقع داخل ازقة ضيقة • وبعض العوائل في بغداد من اصل تركي ، شارك اسلافها في جيش السلطان مراد ، فاتح بغـداد • ولذلك كافأهم على خدماتهم تلك بأن اقطعهم الاراضي • وهنالك عوائل من اصل فارسي ، وقد اغتنى البعض منهم عن طريق ممارسة التجارة ، فأصبحوا يحملون اللقب التكريمي المعتاد وهو «جلبي» • ولكن نصف ، أو أقل من نصف العوائل البارزة في بغداد ، والثلث من سكانها ، كان يجري في عروقهم الدم العـربي ، وبينهـم حتى المتحدرون من افـراد الامبراطوريات القديمة ، والجيوش الغازية في العصور الخوالي •

ويطلق رؤساء العوائل الكبيرة لحـاهم ، ويعتمـرون بالعمـائم ، ويلبسون الجلاليب الطويلة ، ويسيرون على مهل ، ويزنون كلماتهـم ، ويحافظون على ثرائهـم ، ويخفون مقداره • وحتى اولادهـم مايزالون يميلون الى ارتداء الاثواب التي تتدلى على الركبة في أيام الصيف ، وان

---

(٢٠) يقصد المؤلف بذلك الاسر التركيـة • اما ماعناه باسرة نائـب الوالي السابق ، فالمقصود به اسرة «الكهية» ، وهي على اكثر احتمال اسرة «سليمان فائق» والد حكمت سليمان •

كانوا يرتدون البدلات والطرابيش الحمراء في معظـم اوقات السنة • وكمظهر من مظاهر الاستقلال والانعتاق ، اصبحت الملابس الغربية تعتبر بشكل متزايد من الامور التى يتباهى بها للظهور بمظهر التقدم ، ومجاراة الغـــــرب •

وكان فيصل ورفاقه من الشبان ، منذ الثورة العربيـة ، يشجعون هذا الاتجاه ، وقد ابتدعوا لهم لباس رأس وطنى[٢١] •

ليس في بغداد من الخدمات مايمكن ذكره في الغالب • ذلك لان مرافق الماء والنور بدائية • فالماء يتم نقله من نهر دجلة مباشرة الى اكثر انحاء المدينة والبيوت الكبيرة • وفي هذه البيوت الكبيرة توضع حنفيـة الماء وسط الباحة ، وربما توضع اخرى في الحمـام التركى الخاص • ومع ذلك فان الماء ينقل باليد ، او على ظهور الحمير في قرب جلدية من النهر ، ثم يترك ليبرد في جرار من الفخار ، تكون كل واحدة منهـا كبيرة تسع لاحتواء احد الصبيان ، أو «واحدا من الاربعين حرامى ! » • وهناك اسطول عربات من الطراز الفكتورى ، يؤلف الشـكل الوحيـد العام لوسائط النقل في المدينة • ويرتدى سائقو هـذه العـربات كوفيات ملفوفة يتدلى طرف منها فوق الاذن ، لتؤلف عمـامة صغيرة تعرف باسم « الجراوية » •

ويعتبر البغداديون الاخرون ، اصحاب «الجراويات» من سـائقى العربات ، واصحاب الزوارق ، من الاناس الساقطين ، غليظى الطباع ، سيىء الخلق ، لكنهم مع ذلك يكونون من الفكهين والعابثين •

ويصعب الحصول على احـد من الصـناع ســوى الجوهريين ،

(٢١) هو ماعرف باسم «السدارة» وخوذة الجيش المطوقة بالعقال •

والصاغة ، وصانعي الزوارق ، والبنائين ، والصفارين الذين يتركز فنهم في الدرجة الاولى في قوة اذرعهم •

عندما وصل فيصل الى بغداد ، لم تكن لديه لا حكومة ولا ادارة ، ماخلا المجلس المؤقت للدولة ، الذى كان يترأسه النقيب ، والوظائف العسكرية البريطانية شبه المدنية • وكان يصعب الحصول على اشخاص مؤهلين لممارسة العمل بمثابة كتبة اداريين ، ماعدا اولئك الذين هربوا مع العثمانيين ، وربما لن يعودوا ، وبعض السكرتاريين اليهود ، والكتبة المسيحيين ، والهنود الذين يعملون في المؤسسات التجارية ، التى انضم اغلبهم اليها من قبل • ذلك ان كل العوائل المسلمة تقريبا ،كانت تحتفظ لها بسكرتاريين من اليهود ورجال الاعمال ، وان كل اولادهم تقريبا ، كان يجرى ختانهم عندما يحين الوقت ، على يد ربيين من اليهود • وكان المسيحيون ، والهنود واليهود ، يقومون بالاعمال التى يتحاشى المسلمون القيام بها ، أو التى لايقدرون على النهوض بها • وباختصار كانت عاصمة فيصل الجديدة عبارة عن خلية شرقية قديمة ، ماتزال تتشبث بطريقة الحياة التى الفتها في العصور الوسطى ، والتى نسيها العالم الغربى ، او في الواقع اجزاء واسعة من ممالكه الحديثة •

× × ×

تم تتويج فيصل ملكا على العراق في الساعة السادسة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر آب سنة ١٩٢١ ، في ساحة مكشوفة وسط القلعة • وكان فيصل قد اقبل من مسكنه في القلعة يصحبه كل من المندوب السامى البريطانى السر برسى كوكس ، ورئيس اركان الجيش البريطانى العام السر ايلمر هالدين ، والسيد محمود الكيلانى ابن نقيب

بغداد الذى لم يحضر بنفسه بسبب كبر سنه ، و «حسين افنان»[٢٢] سكرتير مجلس الدولة • وكان مرافق فيصل برتبة نقيب هو «تحسين قدرى» السورى •

كان فيصل يرتدى بدلة من قماش «الخاكي» وقد تقدم هو وجماعته في طريق فرش بالسجاد الى منصة واطئة فرشت بالسجاد ايضا، وضعت فيها بعض الكراسى ، وعرش صيغ على طراز عرش «وستمنستر»• غير ان هذا العرش سرعان ماأصابه الوهن نتيجة الصندوق الذى حفظ فيه ، حيث ظهرت علامات تدلل على اصله • فقد قيل ان ذلك الصندوق كان في الاصل يستعمل لحفظ قناني « البيرة » اليابانية من علامة « اساهي » !•

قرأ السيد محمود النص العربى لاعلان الملوكية ، الذى كتبه المندوب السامى • ورد فيصل على ذلك الاعلان ، ثم عزف جوق موسيقي لحن « ليحفظ الله الملك ! » ، وقام حرس الشرف من الفوج الاول كتيبة «دورستشاير» بعرض السلاح ، واطلاق احدى وعشرين اطلاقة للتحية •

---

(٢٢) حسين افنان فارسي متجنس بالجنسية المصرية ، قدم مع الحملة الانكليزية التى احتلت العراق في الحرب العالمية الاولى بصفة مترجم لها وقد مولته السلطات البريطانية لاصدار صحيفة يومية تبث الدعاية لها ، وكانت تسمى باسم «الشرق» صدر عددها الاول في يوم الجمعة الثلاثين من شهر آب ١٩٢٠ ، ثم مالبث بعد تشكيل الحكومة العراقية ان تولى منصب سكرتير مجلس الوزراء، وكانت ابنته «بديعة افنان» من موظفات وزارة الخارجية ايضا • واول من كشف عن هوية حسين افنان هو الصحفي المرحوم عبدالغفور البدري في السنة الاولى من جريدة «الاستقلال» •

وكان المشاهدون قد توافدوا على القلعة طبقا لبطاقات الدعوة التى وجهت اليهم • ونشرت جريدة «التايمس» في اليوم السادس من شـهر تشرين الاول ، صورة تبين ان كل الصفوف الثلاثة من المشاهدين تقريبا، كانوا من البريطانيين ، وان نصفهـم من الرجال والنصف الآخر مـن النساء ، وكان الرجال يرتدون قبعـات واقيـة من الشمس ، واخرى عسـكرية •

ولقد كتب مراسل «التايمس» يقول ان بعض الاشـخاص المحليين البارزين الذين تجمعوا في المؤخرة، لم يسمح لهم بالمشاركة في الاحتفال• وحين تراجع المدعوون بذات النظام ، كان العلم العراقى يرفرف عـلى القلعة وبقية البنايات الحكومية وقد تم اعداد دستور وضعـه المحـامى البريطانى «السر ادورد بونهام كارتر»[٢٣] ، وتم عرض ذلك الدستور من قبل لجنة بريطانية عراقيـة مشتركـة على المجلس التأسيسى ، الذى كانت مهمته هى الموافقة على الدستور ، وذلك قبل ان يتم حله ويستبدل ببرلمـان •

ولقد تقرر ان يضم البرلمان اعيانا ونوابا ، وان يتم اختيار النواب من قبل اشخاص يجرى انتخابهم انفسهم من قبل ناخبين اولين ، ولم يكن يسمح للمرأة بحق التصويت ، واعلـن بأن الملـك سيكون ملـكا دستوريا ، وان يتمتع بسلطات اقل مما كان البريطانيون يرغبون في ان يتمتع بها ، وان كان هو نفسه فعلا في وضع قوى يكفى لدعوة الوزارات، وحلها وفقا لرغبته •

---

(٢٣) تولى منصب مستشار وزارة العدل في العـراق سنوات عديـدة طيلة بقائه في خدمة الحكومة العراقية •

عهـــد الى السر كنهان كورنواليـــس ، المستشـــار الاول في وزارة الداخلية ، والمستشار الشخصى للملك في ذات الوقت ، بأن يعمل عـلى ترتيب الخدمات المدنية العراقية بأسرع وقت مستطاع ، وتنظيم نواة من الضباط السياسين البريطانيين ، الذين اصبحوا فيما بعد مستشارين في مختلف الدوائر حين غدا العراقيون قادرين على اشغال المناصب التنفيذية ، وتم منح العفو الى العراقيين الذين كانوا يعملون مع الاتراك ، وسمح لهم بالعودة الى العراق ، وفعلا عاد عدد كبير منهم •

هناك عدد من البريطانيين لم يمكثوا ـ لسبب ما او آخر ـ طويلا في العراق ، في حين قرر آخرون منهم ان يمارسوا خطهم في العمل مع اعضاء الدولة العربية الجديدة ، وان يخدموها بجدارة لسنوات عديدة • ففى الايام الاولى كان البعض منهم يستمتع بحياة التحرى والمسؤوليـة غير الاعتيادية ، ولو بمزيد من النصب والخطر ، في زوايا نائية جدا من البلاد ، في جبال كردستان ، أو في الصحراء النائية • اما الاخرون الذين اقاموا في المدن فانهم سرعان ما اخذوا يشاركون في الاسلوب الحكومي ، حيث يزداد الطلب على المهام الفعاله العديدة ، قبل ان يتم الاستقرار • وكان من بين تلك المهام وضع الخطط لتنظيم امور الرى ، وتســـوية النزاعات القبلية طويلة الامد ، ومشاريع تســوية الاراضى ، وانشـــاء الدوائر الجديدة ، وتدريب الوزراء غير المدربين ، واكمـال سـجلات السـكان •

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ السياسيون يعلنـون جهـــارا بأن الخدمات التى يؤديها الموظفون البريطانيون ليست لها قيمة كبيرة ، وانهم ، أى الموظفون البريطانيون ، كانوا يتخذون الكثير من القرارات التـــى تجرد الوزير من امتيازه • ولم تلبث الصحافة مؤخرا ، إن اخذت توجه

القدح الى الموظفين البريطانيين في الكثير من المناسبات • ولكن الحقيقة هى ان عمل الموظفين البريطانيين في الايام الاولى كان ضروريا لكي تستطيع الدولة الفتية ان تستمر في الوجود ، وربما كان ذلك من الاسباب الاضافية لتوجيه الكراهية الى اولئك الموظفين البريطانيين • على ان معظم الساسة العراقيين كانوا في مجالسهم الخاصة يدلون باراء اخرى اكثر صدقا ، فقد كانوا يعتمدون على البريطانيين في الاراء الحصيفة ، والعمل الشاق والسريع معا •

ومنذ الايام الاولى لحكمه ، جوبه فيصل بطائفة من المتطرفين من القوميين العرب الذين كان يجد نفسه ملزما بفعل السياسة ، بمداراتهم ان لم يكن تشجيعهم من جانب ما ، ومداراة البريطانيين من الجانب الاخر • فمن دون وجود القوميين لا يوجد أى امل في الاستقلال ، ومن دون وجود البريطانيين لا تستطيع الدولة ان تنهض • كان فيصل مرغما على ان يسيّر الارنب ، والصياد مع كلاب الصيد !• ويبدو انه لم يجد شيئا عسيرا في ذلك اول الامر • فقد تعلم تلك العادة عندما امضى ايام شبابه في تركيا العثمانية •

× × ×

عندما بلغ فيصل السنة الثالثة والعشرين من عمره في سنة ١٩٠٨ ، استدعى السلطان اباه حسينا ، وطلب اليه ان يعود الى مكة حاكما عليها ، وذلك بعد ان امضى سبع عشرة سنة في اسطنبول بأمر من السلطان نفسه• كان يراد منه ان يخلف ابن عمه الذى توفى في اسطنبول قبل ان يعين خلفا للشريف «علي» الشاب الذى ازيح عن منصبه لاسباب سياسية على يد حركة الشباب الاتراك •

كان الاسلوب المطبق لدى العثمانيين منذ امد بعيد ، هو ان يجلبوا

الى العاصمة اسطنبول ، ذلك القفص المتلألىء ، اوثق اقارب الشريف الذى يحكم «مكة» ، وربما حتى منافسيه • ولقد طبق العثمانيون ، ذات الاجراء مع الاسر الاخرى في الولايات القائمة • ولذلك كان ابناء تلك الاسر واقاربها ، يتعودون على اتباع الاساليب التركية ، ويتحدثون باللغة التركية ، ويحضرون الى البلاط • وبهذه الطريقة اصاب اولاد الشريف حسين في شبابهم ، نظرة الى العالم اوسع من تلك التى ينظر بها اقاربهم الذين تخلفوا عنهم في مكة • كما انهم قد تعلموا من والدهم ايضا ، بأنه ينبغى لهم في اسطنبول ان يحذروا التفرق ، وان يسلكوا طريق الحذر في مباهجهم ، وان يراقبوا مغزى كلام الباشوات والسفراء الاجانب ، وسلوكهم •

جعلت منافسات الدول الكبرى قبل سنة ١٩١٤ ، من مدينة اسطنبول لوحة للمؤامرات والالاعيب السياسية ، التى لم يكن ابن شريف مكة فيها اكثر من مخلب ، لكنه المخلب الذى يستطيع ان يراقب اللعبة ويتعلمها • واذا ماكان صبورا وذكيا فان في مقدوره ان يتطلع حتى الى توجيه نفسه نحو الاتجاهات النافعة •

كانت تعقيدات المراسيم العثمانية ، وتقييدات البلاط ، وتزلفات الدبلوماسية اللطيفة ، وتراجعاتها الظليلة ، وشراك الكرم ، كانت كل هذه من الموضوعات التى تلقنها فيصل على يد ابيه ، في العاصمة القديمة التى انشأها الامبراطور «قسطنطين» ، والذى مايزال معروفا لدى العرب باسم ملك «الروم» • واذ جىء بفيصل في مثل هذا الجو ، واستفاد من النظرات الصائبة ، ولانه كان الابن الثالث لابيه ، فقد اصبح المطمح السياسى يمثل الطبيعة الثانية له !•

كان فيصل مدينا بفرصته الاولى للظهور زعيما عربيا ، الى تعاظم

الاستبداد الذى كان يمارسه عبدالحميد سلطان تركيا ، وما اعقب ذلك من ظهور حركة «الجامعة الطورانية» التى تولى امرهـا الشباب الاتراك المقلدون للغرب بعد سنة ١٩٠٨ • ولقد اعتاد فيصل على القول بأنه لم تكن لدى والده الشريف الاعظم ، او امير «مكة» ، اية سياسة انفصالية عن الامبراطورية العثمانية في اول الامر ، وان اباه كان على غرار المثقفين في سوريا ، يطمح الى التطور داخل الامبراطورية العثمانية ، وانه اذا ماوجدت قلة من المتطرفين ، فان امثـال هؤلاء لا يمكـن ان يعدوا من الاشخاص الخطرين •

ومع ان فيصل كان قد افضى بهذا التقييم المعتدل بعد الحـــرب العالمية الاولى بوقت طويل ، الا ان هذا التقييم يعود في الواقع الى «عصبة الوطن العربى»[٢٤] التى تأسست في باريس سنة ١٩٠٤ • فقد كان لمثل هذه الحركـــة ، من القوة والشـهرة ، مايكفى لحمـل احـد الموظفين الفرنسيين السابقين ، هو «يوجين يونغ» على تأليف كتاب دعاه «السيادات التى سبقت الثورة العربية • الازمة العالمية المقبلة» والذى نشرته مؤسسة

---

(٢٤) ذكر المؤلف هذه المنظمة باسم عصبة الوطن العربي
LIGUE DE LA PATRIE ARABE

وهي منظمة اسسها في باريس احد السوريين المسيحيين ويدعى «نجيب عازوري» سنة ١٩٠٤ وكان هدفها تحرير العراق والشام• وقد اصدرت عدة نداءات تدعو العرب فيها الى الثورة • وفي سنة ١٩٠٥ اصدر نجيب كتابا بالفرنسية عنوانه «يقظة الامة العربية» ثم اصدر في نيسان ١٩٠٧ مجلة شهرية بالفرنسية بالتعاون مـع بعض الفرنسيين باسم «الاستقلال العربي» •
جورج انطونيوس «يقظة العرب» ص١٧٢ •

هاشيت سنة ١٩٠٦[٢٥] .

ففى الصفحة السادسة من هذا الكتاب يصور «يوجين يونغ» الامة العربية في المستقبل برئيس رفيع يظهر في مكة او في الطائف ، التى يلجأ اليها المسلمون من كل انحاء العالم لتلقي الاوامر والتعليمات». ولقد اشتهر السلطان عبدالحميد بأنه كان شديد الخوف جدا من مطامح الشريف حسين واولاده ، وقد برهنت الحوادث بأنه كان على صواب في ذلك .

× × ×

في حزيران سنة ١٩١٣ عقد مؤتمر عربي في باريس ، كان يشدد الضغط على الاهتمام بالحقوق العربية ، كما تألفت عدة جمعيات عربية لهذا الغرض[٢٦] . وكانت بعض تلك الجمعيات سرية ، من امثال الجمعية التى اسسها ضباط الجيش وعرفت باسم «العهد» ، والتى كان مقرها الرئيس في دمشق ولها فروع قوية في العراق . ولما كان فيصل ممثلا في البرلمان العثمانى ، فقد كان يقوم بالتنقل بين مكة واسطنبول باستمرار ، وغدا قادرا على اقامة اتصال وثيق مع الحركة العربية عن طريق اعضائها النشطين في دمشق .

---

(٢٥)
EUGINE YOUNG: LEPUISSANCES DEVANT LA REVOLT ARAB. LA CRISE MONDIALE DE DEMAIN HACHETTE 1906.

وقد ترجم هذا الكتاب في جزئين الى العربية وطبع في سوريا في اوائل سنى العشرينات .

(٢٦) انظر مقالتنا المفصلة عن المؤتمر العربي الاول في باريس في العدد الحادى عشر من السنة الثالثة من مجلة « الاقلام » التى تنشرها وزارة الثقافة والاعلام .

وبعبارة مختصرة لعب فيصل قبل الحرب وخلال السنتين الاولين منها ، دورا مزدوجا • فقد كان من ناحية يعد الاتراك بمساعدته هو وابوه لهم ، في الوقت الذى كان فيه من الناحية الاخرى يعمل سرا على الثورة ضدهم • وفضلا عن ذلك استطاع الحكم العثمانى ان يحمى العالمين العربى والاسلامى طيلة اربعة قرون من العدوان الاجنبى عليهما، وسمح للولايات العربية قبلا بدرجة من الاستقلال الذاتى • يضاف الى ذلك ان السلطان العثمانى كان يعتبر هو خليفة المسلمين ، والمدافع عن المؤمنين ، ولذلك ظل العرب يفخرون بأن اللغة العربية بقيت هى اللغة الروحية للاتراك •

أما بالنسبة الى الحكومة الانكليزية في الهند ، فانها كانت تسيطر على الملايين من الرعايا المسلمين ، ولديها جيش كان الكثير من خيرة المقاتلين فيه من المسلمين ، وكان كل واحد منهم يطمح في الحج الى «مكة» موطن الدين الاسلامى •

ولذلك كانت تركيا اكثر اهمية لهم • وفي داخل الامبراطورية التركية كانت اسرة فيصل ، اشراف مكة الذين كانوا يحكمون هناك ، ويسيطرون على شؤون الحج منذ الف وثلثمائة سنة ، ذات موقف فريد•

كان عبدالله الابن الثانى للشريف حسين ، على اتصال معالبريطانيين بشأن مستقبل العرب ، قبل الحرب العالمية الاولى[٢٧] • ومع ان عبدالله

---

(٢٧) لم يوجد أى دليل قطعي على وقوع اتصال بين فيصل أو عبدالله بالبريطانيين قبل الحرب العالمية الاولى وان حدث مثل هذا الاتصال من قبل عبدالله لوحده فبيل الاتصالات التى جرت بين البريطانيين والملك حسين بعيد وقوع الحرب وان كانت اتصالات =

وفيصلا كانا على الدوام ينقادان الى ابيهما ، الا انهما كانا في قلب الحركة السياسية التى كانت تأمل ان تحقق للعــرب وضعــا جديدا • ومــع ان كثيرين من العرب كانوا اثناء الحرب وخلال الثورة العربية التى اعقبت نشوبها ، غير «قوميين» في احاسيسهم ، الا انهم ظلوا يتباهون بعنصرهــم العربى ، ويتحمسون بحكومة الفرد الواحد ، اكثر مما كانت تتطلــع اليه الحركة التى استطاع الغرب ان يغريها ويمنيها بالامانى •

في اليوم الحادى عشر من شــهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ اذاع الرئيس الامريكى «ولسون» نقاطه «الاربع عشرة» • واعقب ذلك ، في شهر تشرين الثانى من ذات السنة ، نشر البيان المشترك الذى اصدرته الحكومتان الفرنسية والبريطانية عن «تحرير الشعوب التى كانت تعــانى الاضطهاد تحت حكم الاتراك» ، واعلان رغبتها في الانعتاق النهائى الكامل، وتشجيعها على انشاء حكومات وطنية • كان بيان السابع من تشرين الثانى سنة ١٩١٨ هذا ، وشروط الهدنة ، والمادة الثانية والعشرون من ميثاق «عصبة الامم» كانت كل هذه البيانات قد عززت فكرة العــــرب ، وقوت املهم في تقرير مصيرهم بأنفسهم •

× × ×

عندما وصفت «المس غرترود بل» في تقريرها الادارى ، الاحوال التى كانت سائدة في بلاد الرافدين في نهاية الحرب ، كانت تلح عــلى ترضية الشعب بمطامح الادارة البريطانية • فلقد كانت تعتقد بأن الشيعة سيقاومون بشدة تنصيب امير من مكة • ومع ذلــك اضافت المس بل في

=

عبدالله بالبريطانيين قد سبقت اتصالات ابيه بهم وكل ذلك حدث بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى •

تقريرها تقول «ان بغداد التى تعتبر المصدر الفعال للتفكير السياسى اكثر من أى جزء آخر من العراق ، لم تدل برأيها في الموضوع بعد • ففى بغداد آنئذ ، والتى كانت المس بل مصيبة في تحفظها ازاءها ، كانت وعود الرئيس الامريكى ، ووعود الحلفاء ، والحركة القومية ، قد اصبحت اكثر حيوية ، ولو انها أقل انتشارا مما كان فيصل يتوقعه فيها عندما وصل اليها •

ولقد كانت نتيجة ذلك ، وعلى نطاق واسع ، هو ان الانتداب البريطانى لم يكن ممقوتا من لدن المتطرفين وحدهم حسب ، بل كانت ممقوتة أيضا تلك «العقيدة» التى قدمت اليهم في شكل المعاهدة البريطانية المقترحة ، حيث جرت المطالبة بتعديلها علانية • لقد تعهدت بريطانيا في تلك المعاهدة بأن تضغط على ترشيح العراق لعضوية عصبة الامم «حالما يصبح ذلك أمرا ممكنا» • ولذلك تم التوقيع على اتفاقات ملحقة بالمعاهدة تشمل التعاون العسكرى ، والشروط المالية الملائمة للعراق •

كانت بريطانيا تريد ان توطد اسس الدولة التى مازالت جنينا ، ولذلك كان امرار المعاهدة وعرا • وقد جاءت اول دلالة على الطريق الذى ستسير الامور فيه ، في حفل الاستقبال الرسمى الذى جرى في الذكرى الاولى لتنصيب فيصل ملكا على العراق • فما ان دخل المندوب السامى البريطانى القصر، حتى اوذي بتظاهرة استقبلته عند عتبات البلاط، كان يقودها احد موظفى البلاط ذاته(٢٨) •

---

(٢٨) قام الحزب الوطني وحزب النهضة في الثالث والعشرين من آب ١٩٢٢ ، وفي الذكرى الاولى لتنصيب فيصل الاول ملكا على العراق ، بتظاهرة سارت الى البلاط الملكي (دار الضباط الجديدة التىيجري بناؤها الآن) وقدمالحزبالوطني مذكرة الى البلاط ،ومن =

طلب المندوب السامى اعتذارا عما حدث ، فقدم اليه ذلك الاعتذار، ولكن لم ينزل العقاب بأى انسان • وقبل ذلك الحادث بأيام قلائل كان القوميون في سوريا قد حاولوا اغتيال الجنرال كاترو «المندوب السامى الفرنسى • كما اقدم الجنرال «غورو» عدو فيصل» المعروف ، اثنـــاء مشاهدته احدى التظاهرات ، على قتل أحـد المترجمين الفرنسيين الذى كان يسير مع المتظاهرين • [أشار الجنرال كاترو الى تلك الحادثة في

=

ثم تحولت التظاهرة الى اجتماع عام امام البلاط القى فيه ممثلان عن الحزبين خطابين وحين حضر المندوب السامي الى البلاط لتقديم التهنئة الى الملك فيصل في ذكرى تتويجه هتف بعض المتظاهرين «يسقط الانتداب» وقيل ان الجماهير هتفت ايضا «يسقط الانكليز» وكان فهمي المدرس رئيس امناء الملك واقفا مع المتظاهرين يطلب من الملك ليسمع مايقوله الخطباء •

ولما عاد المندوب السامي الى ديوانه ارسل كتابا الى رئيسالديوان الملكي احتج فيه على الحادثة وطلب اليـه ان يعتذر ، وان يعزل فهمي المدرس وان يخبر بالاجراءات التى ينوى جلالـة الملـك ان يتخذها ضد خطيبي الحزبين المذكورين • ولما بلغ فهمي المدرس بطلـب المندوب السامي عزله ، استقال مـن وظيفتـه وقبلـت الاستقالة ، وارسـل سكرتير الملك الخاص كتـابا الى سـكرتير المندوب السامي يقول فيه ان الملك يبدي اسفه العظيم للحادث وانه سيعمل كل ماهو لازم ويصلح الحالة حسب رغائب المندوب السامي» (حسين جميل : الحياة النيابية في العراق وموقف جماعة الاهالي منها) منشورات مكتبة المثنى الطبعة الاولى ص٢٣٦ـ٢٣٧ بغداد ١٩٨٢ •

مذكراته التى نشرت بعنوان «بعثتان في الشرق الادنى» وطبعت بباريس سنة ١٩٥٨ •

DEUX MISSIONS EN MOYEN ORIENT : PAR GENERAL CATROUX. PARIS 1958.

وسرعان ما أفلت الوضع في عاصمة فيصل ، عندما مرض الملك بالزائدة الدودية • وهكذا ، ولحسن الحظ ، اصبح المندوب السامى البريطانى الذى اضطر الى فرض سيطرته مجددا اثناء مرض فيصل ، في وضع يستطيع معه ان يقمع الاضطراب بيد قوية • كان البعض يظن - ومن بينهم بعض خصوم الانكليز على الاقل - ان العملية التى اجريت للملك آنذاك ، قد رتبت بقصد القضاء على حياته • والواقع ، وكما ذكر الاطباء ، ان تلك العملية قد أجريت في الوقت المناسب تماما •

في الوقت الذى وصل فيه فيصل الى العـــراق ، كان الاتراك في الشمال يظهرون بشكل سافر ، أشد العداء للعـــراق ، على الرغم من توقيعهم على الهدنة ، التى تم ابرام الصلح اثناءهـــا • فمـــا ان انسـحب البريطانيون حتى شرع الاتراك بالتقدم •

ولقد اقدم الاكراد على قتل ضابطين بريطانيين بمنتهى الفظاظة ، وصمموا على الالتحاق بالاتراك •

ومنذ سنة ١٩٢١ كان أحد الموظفين الاتراك يكمن في راوندوز ، في الجبال الشمالية الشرقية ، ومعه عدد من الشقاة الذين كانوا يثيرون الاضطرابات ، وقد جعلوا القسم العراقى من كردستان كله في حالـــة هياج وغليان • وهكذا وفي شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٣ ، كانت منزلة الحكومة العراقية هناك ، قد تدنت الى الحضيض ، ولم يكن الشـــبان

القوميون في بغداد يعلمون شيئا ما عن هذا الوضع ، وان علموا به فقد كان ذلك على نطاق ضيق جدا •

كان فيصل يقدر حق التقدير خطورة مركزه • فهو قد يخسر نصف مملكته ، واذا كان قد خسر النصف فقد يخسر الكل • ولقد نشرت صحيفة التايمس في اليوم التاسع من شهر شباط سنة ١٩٢٣ مقالة مسهبة ضمت حديثا مطولا ادى به فيصل الى مراسل تلك الصحيفة• ومما جاء في تلك المقالة « لقد كان فيصل يؤكد عدم وجود ذرة من العدل في ادعاءات الاتراك بالموصل •••• فاذا ما اقدموا على اتخاذ الخطوة الاولى ، ونجحوا في ذلك ، فانهم سوف يبذلون فيما بعد ، جل نشاطهم للسيطرة على العراق برمته » •

وكان الموضوع الثانى الذى يحس فيصل بوطأته عليه ، هو المشكلة العويصة التى أثارها رجال الدين في مدينتى كربلاء والنجف ، الذين كان يشك آنذاك في تآمرهم على الحكومة العراقية ، والذين راحوا يحرضون رؤساء العشائر على الامتناع عن دفع الضرائب ، ونشر دعاية مؤداها ان الاشتراك في الانتخابات القادمة ، يعتبر من الاعمال التى لا يرضى الرسول «محمد» عنها •

ويمضى فيصل في حديثه الى مراسل «التايمس» فيقول « ان السلام الذى بدا وكأنه سوف يسود الشرق الاوسط ، لم يكن في الواقع سوى وهم من الاوهام » • وفي ذلك الحديث ذاته ، وجه فيصل رسالة الى الشعب البريطانى والى الامة العربية • وكان يأمل من الشعب البريطانى ان يفكر بحليفه الصغير في الشرق ، كما كان يأمل أيضا ان تسعى بريطانيا الى حماية وجود الامة العراقية تجاه الاخطار التى راحت تهدد الآن ذلك الوجود في الصميم •

على هذه الشاكلة ارغم مارشال الجو السر جون سالموند ، قائد القوات البريطانية في سنة ١٩٢٣ ، على القيام بعمليات عسكرية ضد القوات التركية التى اخذت تتغلغل بقوة متزايدة في الشمال ، وكذلك ضد الشيخ محمود ، الزعيم الكردى الذى أعلن نفسه ملكا ، وراح يحرض على استقلال كردستان بالشكل الذى عرضته معاهدة «سيفر» •
واذ خشى فيصل على وحدة مملكته ، وضع الجيش العراقى الصغير تحت امرة المارشال «سالموند» ، وسعى الى تأليف قوة غير نظامية من أفراد العشائر لتمزيق جناح القوات التركية ، وعين اخاه الشاب «زيد» قائدا عاما لتلك القوة ، فاتخذ من مدينة الموصل مقرا له •

وفي الوقت ذاته ، وفي مؤتمر «لوزان» طالب الاتراك بولاية الموصل ، وطالبوا اللورد «كرزن» بردها اليهم •

ولكن «كرزن» فند ادعاءات الاتراك تلك بكل مقدرة في المؤتمر ، وحال دون نجاحها • أما في شمالى العراق ، فان التظاهر بالقوة ، وبالعمليات التى قامت بها القوة الجوية البريطانية ، قد وضعت نهاية لتلك المساعى التركية • ويتحدث المارشال سالموند في الرسائل التى كتبها عن تلك العمليات ، بحماسة متناهية عن التعاون الذى ابدته القوات المحلية التى وضعت تحت قيادته •

ومع ان مدينة راوندوز ، التى تقع خلف مضائق عميقة ، ولا يمكن الوصول اليها الا بالطرق الخطرة التى تسلكها البغال ، قد اعيد احتلالها مجددا ، وامكن استتباب الامن فيها ، الا ان كردستان بقيت غير مسالمة زمنا طويلا • فلقد بقيت العمليات الحربية متواصلة فيها طيلة ايام حكم فيصل في الغالب ، وكانت مناطق الجنوب تأتى في الدرجة الثانية بالنظر الى الاضطرابات •

تم عقد اتفاق بدفع من البريطانيين ، بين امير نجد والعراقيين ، وقع عليه في مؤتمر «العقير» في سنة ١٩٢٢[٢٩] • وقد أدى ذلك الاتفاق الى تحسين الوضع على الحدود الجنوبية ، وذلك عن طريق تخطيط الحدود ، وتخصيص مناطق حيادية لرعي القبائل ، غير ان القبائل التى كانت تسكن شواطىء الأنهار داخل العراق ، كانت تثير الاضطراب دوما ، وتتذمر من سلطة بغداد عليها ، لانها لم تتعود مثل تلك السلطة ايام الحكم التركى • ولذلك كان لابد للقوة الجوية البريطانية من ان تعرض عضلاتها هناك علانية ، لمساندة القوة الجوية العراقية ، في الوقت الذى كانت فيه الحدود مع بلاد فارس ، والتى لم يتم الاتفاق عليها بوضوح ، تتطلب المزيد من المفاوضات • وعلى الرغم من مشاكل الحدود هذه ، وعدم الاستقرار في الاقاليم ، فقد كان الوطنيون في بغداد يواصلون تهجمهم على التدخل البريطانى •

بعد ظهور صعوبات كثيرة تم في النهاية قبول المعاهدة الاولى مع بريطانيا في شهر حزيران سنة ١٩٢٢ من قبل الوزراء العراقيين ،وصادق الملك عليها في شهر تشرين الاول من تلك السنة • غير ان الحكومة اضافت الى ذلك شرطا آخر هو ان المعاهدة يجب ان تصدق من لدن المجلس التأسيسى المقبل ، وكان المندوب السامى البريطانى يود مقاومة مثل هذا الشرط •

كان المندوب السامى الجديد «السر هنرى دوبس» ، مثل سلفه

---

(٢٩) اخطأ المؤلف في تحديد التاريخ الذى عقد فيه الاجتماع بين فيصل وابن السعود في مؤتمر العقير • فقد حدث ذلك الاجتماع في سنة ١٩٣٠ وليس في سنة ١٩٢٢ كما ذكر المؤلف ذلك خطأ • انظر تفاصيل المؤتمر في مذكرات سندرسن التى ترجمناها ونشرناها الطبعة الثانية ص١٤٧_١٥٧ سنة ١٩٨١ •

شديد الصبر بصفة مطلقة ، ولذلك راح المرة تلو المرة يفسر احكام المعاهدة لبعض اعضاء المجلس التأسيسى • في غمرة مثل هذا الاضطراب السياسى تم اغتيال السيد توفيق الخالدى ، عضو مجلس الاعيان ، وزير العدل السابق ، اذ اطلقت عليه أربع عيارات نارية حين كان عائدا الى داره ، بعد زيارة قام بها للمندوب السامى في اليوم الثانى والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٢٤ ، وكان يعتقد ان لنورى السعيد ضلعا في عملية الاغتيال تلك(٣٠) •

عقدت الوزارة العراقية اجتماعات عاصفة ، وهدد بعض المؤيدين للمعاهدة ، وجرح البعض منهم • وما ان بدأت اعمال العنف تظهر من قبل الاهلين حتى تم استدعاء القوات العسكرية لاعادة الامن الى نصابه • وأخيرا ، واذ ظل المندوب السامى ثابتا على موقفه ، ارتأى جعفر العسكرى رئيس الوزراء ، وهو من الضباط القوميين الشباب السابقين والمناصرين لفيصل ، ان يقوم بجمع اكثرية اعضاء المجلس ، ولو ان كثيرين منهم قد تغيبوا نتيجة التهديدات التى وجهت اليهم • ومع كل ذلك فلم يتم تبادل التصديق على المعاهدة الا في شهر كانون الاول ١٩٢٤ •

× × ×

---

(٣٠) لم يكن توفيق الخالدى عضوا في مجلس الاعيان كما اورد المؤلف ذلك ، لان مجلس الاعيان لم يكن قد تألف آنذاك • وكان وزيرا للداخلية عندما اغتيل • ورغم الاشاعات التى انتشرت في حينه عن اشتراك نورى السعيد وجعفر العسكرى في تدبير امر اغتياله ، فان الدافع الحقيقى الى اغتياله هو حدوث نزاع حول بعض الاراضى الزراعية في منطقة الدورة •
ولا توجد ادنى صحة للادعاءات التى ذكرها «عبدالله سرية» حول اشتراكه في مقتل توفيق الخالدى ، والتى ذكرها السيد عبدالرزاق الحسنى في كتابه «تأريخ الوزارات العراقية» على علاتها •

في بيت المس غرترود بل ، وفي ليلة من ليالي سنة ١٩٢٥ ، حين أنست بها لاول مرة ، اطلعت على أشياء عن التأريخ السابق للملك فيصل، وللادوار التى قامت بها المس بل والسر كنهان كورنواليس ، والاحوال التى كانت سائدة في القطر ، ولذلك رحت اتطلع الى زيارة فيصل .

ولقد قابلته لاول مرة وبصفة غير متوقعة . كانت تجرى من وقت لآخر حفلات مسائية في بلاطه خارج البوابة الشمالية ، يدعى اليهـا الضباط في بغداد ، والاشخاص البارزون ، وكبـار الموظفين المدنيين ، وأى من شيوخ العشائر الزائرين في ذلك الوقت . ولما كانت بناية البلاط صغيرة وبسيطة ، اذ لا تضم سـوى جملـة غرف واطئـة صغيرة اشبه بالاكواخ ، تربط بينها ممرات مسقفة ، فقد كانت مثل هذه الحفلات تعقد عادة ايام الصيف ، في حديقة تمتد امام الغرف .

كان كل من المس بل وكورنواليس يحضران مثل هذه الحفلات ، بالاضافة الى عدد من الضباط ، والعقيد «بيرس جويس» رئيس البعثـة العسكرية البريطانية ، وجعفر العسكرى ، ونورى السعيد ، وآخـرون امثالهم ممن شاركوا في الثورة العربيـة ، ويعملون الآن للمساعدة على تكوين مجلس للاعيان . كانت الساحة واشجار النخيل مضاءة بمصابيح صغيرة ملونة . وكان الجو حارا عادة يكتنفه ضباب من عاصفة رملية ومن اوراق النبات المتساقطة ، بحيث بدت الحديقة وقد لفها الغبار ، ازاء الملابس البيضاء ، والازرار الملمعة ، والملابس الخفيفة التى ترتديهـا النساء ، والجواهر المتلألئة التى تشع وتلتمع .

وصل المدنيون العراقيون وهم يرتدون «السدارة» لبـاس الرأس الجديد ، والتى لم تكن ملائمة لاى واحد منهم . كانت هنالك مائـدة

للطعام ، وجوق موسيقى عسكرى لم يكن قد تدرب على العزف جيدا ، لكنه كان يعزف بشكل ملائم •

الى احدى هذه الحفلات ، دعانى السيد تحسين قدرى ، مرافـق الملك فيصل ، لكى العب «البردج» شريكا له مقابل الملك ، في حين كان المشارك الرابع في اللعبة ، احدى السيدات الانكليزيات • كان فيصـل يرتدى بدلة بيضاء ذات اثواب زرقاء ، ويقف عند الطاولة ، وقد استقبلنا بابتسامة آسرة • كانت المس بل تعرف باسم «دوقة العلوية» ، وهو اللقب الذى اطلقته عليها النساء الانكليزيات الموجودات في بغداد آنذاك[٣١] ولم تكن لهذه «الدوقة» كلمة في تأسيس الدولة ، لكنها احبت ان تلعب دورا بارزا فيها بصفة اجتماعية • كانت زوجة احد الموظفين ، وهو مهندس في خدمة الحكومة ، قد ارتدت افخر ثيابها بكل عناية • وكان منظرها اخاذا بكل ما للمرأة من طاقة اجتماعية وكفاية •

كان تحسين قدرى ، ومن دون سبب معقول ، يخاطب فيصل بين آونة واخرى بقوله « لقد غلبتك بنقطتين ! » •

وكان هنالك مرافق آخر لا يفتأ بين الفينة والفينة ، ان يجلب أحد الضيوف عبر الحديقة ، لكى يتحدث ببضع كلمات مع الملك ، حتى اذا ماغادر هؤلاء الملك أو « تحسين قدرى » راحـوا يتساءلون مرة اخرى عن الرابح في اللعبة • وكان فيصل يتحدث بالعربية ويستعمل العبـارات الفرنسية التى تخص لعبة «البردج» •

---

(٣١) المقصود بذلك منطقة «العلوية» في بغداد والتى اقيم فيها اول ناد للانكليز هو نادى العلوية الشهير ، والتى كانت المس بل تقيم فيها في البيت الذى أهداها اياه صديقها «الحاج ناجى» •

استمرت اللعبة بحماسة • لكن غدا واضحا بأنني وشريكي سنكون الرابحان وذلك ماكنا نأمل فيه ، لان المراهنات لم تذكر في البداية ، ولان مراهنات القصر سوف تكون مرتفعة •

وحين اوشك فصل اللعب ان ينتهي ، أسرع تحسين قدري فأضاف علامات اخرى الى صحيفة ازدرائه قبل ان يستطيع أي فرد آخر اكمال اية اضافة ، بأن راح يقول مؤكدا « اننا جميعا مدينون لجلالته بخمسة باونات ! » •

نهض فيصل تعلو وجهه ابتسامة فاترة ، فسار الى امام ، وراح ينحني للحاضرين يمنة ويسارا ، ويصافح بحرارة اولئك الضيوف الذين لهم اهمية اكثر ، والذين لم يتحدث معهم الا نادرا ، ويستقبل المس بل التي انحنت امامه الى الارض • كانت اللعبة الوحيدة التي تمارس في البلاط هي لعبة الورق ، وهي اللعبة التي يراد بها تجنب الاحاديث المطولة •

ثمة العاب ساخرة اخرى كانت تجري ممارستها في عالم الشرق • لقد كان من دواعي المتعة تدبير المكائد ، او المساومة في سبيلها لاطول وقت مستطاع • وكان الاضطراب الوحيد الذي يصيب هذه الالعاب ، هو حين لا يقدر الخصم ان يتفهم القواعد ، ويبدي رغبته فجأة في اضافة المزيد منها بدقة ، ومن ثم يدفع الثمن عنها ، نتيجة سوء تفهمه •

لقد استحوذ فيصل علي في الحال ، كأي فرد آخر ، حين قابلته لاول مرة • كان نحيف الجسم ، رقيق العظام ، ذا اكتاف ضيقة ، وايدي واصابع رقيقة ، ووجه مستطيل عظيم الجمال ، يحمل في عينيه الكبيرتين الصافيتين جاذبية لا تقاوم • وكان حسن تكوينه ، ورقة

حركاته ، والاحساس بانه في حاجة ماسة الى المساعدة والدعم ، من الصفات التي لايتم الاحساس بها بسرعة في انحاء القطر .

لقد اتخذ فيصل له موقفا وسطا ، بين تشجيعه الوطني ، وتسكينه لردع البريطانيين . ففي بعض الاوقات يسير الطرفان معا بهدوء .ولكن يحدث بين وقت لآخر عدم توافق في الاصوات . فحين يقف وزراؤه ضد الانكليز بشكل مشهود ، يطلب المندوب السامي الى فيصل ان يعزلهم . ولكن حين يصبح اولئك الوزراء ضد فيصل وليس ضد الانكليز ، يروح فيصل يفكر في استدعائهم اليه ، ويطلب اليهم ان يقدموا استقالاتهم ، واذ ذاك يحذره الانكليز من مغبة الاقدام على مثل هذا العمل غير الدستوري .

ومع ان فيصل كان قائدا للثورة العربية ، فان رجل المناورات ، وليس رجل العمل ، هو الذي كان الناس في العراق يفكرون فيه . كان توجهه نحو العواطف ، اضافة الى قدرته في اثارة عواطف الناس القريبين منه ، ومع ذلك فان نجاحه يكمن في مثابرته ، وان كانت الخاصية السابقة اكثر وضوحا . لقد قال اللورد اللنبي عن فيصل بأنه كان « واحدا من ابهى اولئك الذين قاموا بدور بارز في الحرب العالمية. لقد كان بهي الطلعة . وبصفة ادبية ومجازية ايضا ، كان طويل القامة ، لطيف الشمائل ، وسيما الى درجة الجمال ، ذا عينين معبرتين ، تضيئان وجه شخصية هادئة . لقد كان شبيها بطراز الملوك حقا »[٣٢] .

أما السير هنري دوبس الذي خلف اسر برسي كوكس اول

---

(٣٢) من كلمة اذاعها اللورد اللنبي من راديو لندن على اثر وفاة فيصل في اليوم الثامن من ايلول ١٩٣٣ .

مندوب سام بريطاني في العراق ، والذي عرف فيصل لوقت طويل ، فقد قال عنه بأنه كان « يبدو في نظر عامة البريطانيين اشبه بالشخص الأسطوري ، بل هو «صلاح الدين» العصر ، الذي اعطي كل اللطف في مسلكه وفي شخصه • كان شخصية ملوكية حقا • ولا مجال الى الشك في ان العراق مدين بصفة اساسية في وضعه السياسي الحاضر الى جلالته »[٣٣] •

وتحدثت المس بل ، مثلما فعل ذلك كل من اللورد اللنبي ، ولورنس ، عن اول لقاء لها مع فيصل ، بأنه كان طويل القامة ، في حين قال لورنس عنه بأنه « اشبه بالعود » • وكتبت صحيفة التايمس في عددها الصادر يوم ١١ كانون الاول سنة ١٩١٨ تقول عنه بأنه «طويل القامة ، واكثر اعتبارا وظرافة من الطراز العربي المعتاد» • وربما كان اللباس العربي الذي يرتديه هو الذي جعله يبدو اطول مما كان عليه حقا ، وان مقارنته مع معظم اخوته العرب قصار القامة ، قد اكدت هذه النظرة عنه • والواقع ان هؤلاء كانوا على خطأ في ذلك • فقد كان طول قامة فيصل خمسة اقدام وتسع بوصات ونصف البوصة ، وذلك هو الطول الذي سجل له في دفتر القياس الذي يحتفظ به خياط ملابسه في لندن ، والذي جاء مطابقا لتقديراتي •

اعطى «هكتور بوليثو» صورة لشخصية «فيصل» في كتابه المعنون « الجيران الغاضبون » •

HECTOR BOLITHO: THE ANGRY NIEGHBOURS”

---

(٣٣) من خطاب له أمام الجمعية الامبراطورية الملكية في يوم ١٣ شباط سنة ١٩٣٨ •

فقد كتب عنه يقول « لقد كان يتحدث الي بقليـل من المباهاة في لندن ، وكان قادرا على التلاعب بالاسماء الكبيرة التى لا يعرفها اخوانه . لقد قرأ مؤلفات «غالسورثى»[٣٤] وكان يستطيع ان يقول بقليـــل من المباهاة «حين كنت اتحدث الى الملك» ، و «حين التقيت بأمير ولز على مائدة الغداء» . ويصف «بوليثو» يدى فيصل بأنهمـا نحيفتان ، وتكوينـه الجسمانى حسن ، ولكن عينيه بارزتان . ويبدو ان من المشكوك فيه انه استطاع ان يقرأ «غالسورثى» باللغة الانكليزية » .

والواقع ان فيصل كان يفضل الاتصال المباشر بدلا من الهجـــوم المباشر وجها لوجه في القضايا السياسية . كان صاحب مزاج هادىء ، ولو انه يغدو شديد الغضب في بعض الاوقات . لقد اشتد غضبه وحنقه عندما هاجمه مندوب احدى الصحف البريطانية ، واستنكر السياسـة البريطانية تجاه بلاده ، واتهمـه بأنـه ادلى بحـديث «كيما يستطيع ان يصحح آراء البريطانيين» ، واتخذ من ذلـك مجـرد فرصـة للهجـوم عليه مرة اخرى .

وبقي فيصل شـديد الغضب ، ولعدة ايام ، عندما كان في باريس

---

(٣٤) جون غالسورثي J. GALSWORTHY
من كتاب القصة الانكليز المشهورين الذين برزوا في سنى الثلاثينات من القرن الحالى وقد كان غالسورثى من المحبوبين لدى الانكليز لانه لم يخرج في قصصه وكتاباته عن نطاق قومه الانكليز ولم تعرف له شهرة واسعة لدى البلدان الاخرى ولذلك دهش نقـاد الادب العالمى عندما منحت جائزة نوبل للاداب في سنة ١٩٣٤ لهذا الكاتب وقالوا بأن المستوى الادبـى في العـالم قـد انخفض ، ذلك لان غالسورثى لم يقاوم الاستعمار أيا كان نوعه لا من قريب او بعيد ، ولانه كان يركز اهتمامه على احوال الطبقـة الوسطى الانكليزية لا غيرها .

سنة ١٩٢٦ ، وعلم بالقصف الفرنسي لوسط مدينة دمشق .
ولقد تضايق ذات مرة اشد مضايقة من مرافقه «تحسين قدرى» ، عندما ارتكب هذا غلطة بشأن اللباس الذى ارتداه في احدى الولائم في «طهران» ، وكانت نتيجة ذلك ، ان اضطر الى تغيير ذلك الملبس بسرعة، وفي آخر دقيقة .

وكان فيصل يشغل اوقات اخلاده الى الراحة ، بممارسة لعبتى «الشطرنج» و «البردج» . كانت لعبة الشطرنج شائعة في الحجاز ، وكانت اسرته تمارسها دون استثناء ، وقد تعلم فيصل هذه اللعبة مذ كان شابا ، كما حاول في بغداد ان يتعلم لعبة «التنس» التى احبها ، ولو ان طريقته في اللعب كانت من طراز قديم ، وغير بهلوانية .

لقد كان ينتظر الى ان تصل الكرة اليه ، وهذا ماكان يفعله غالبا، لان منافسيه في اللعبة كانوا يهتمون بتسليته ، ولانهم سيدعون الى اللعب معه مرة اخرى بدلا من توخى الفوز ، او ربما اغضابه .

وحين تكون الكرة قريبة منه ، يضربها ضربة حادة ، أو يرمى بها فوق الشبكة ، دون ان يقوم بمقدمات لذلك .

وقد يهتف احدهم قائلا «خمس عشرة نقطة محبوبة لجلالتكم !»، فيستدير نحوه بابتسامة مفرحة ، لكنه يضيع الضربة التالية ، نتيجة لذلك.
وتحدثت احدى النساء ممن كن يشاركن معه في لعبة «البردج» قائلة «اواه ياعزيزى ! . لقد اردت ان امزح مع الملك بالاضطجاع معه في سريره» . ومن دون ان يغتاظ ، راح يضحك من كل قلبه . لقد كان يحب مثل هذا المزاح الساذج ، ويستطيع ان يفهمه بالانكليزية ، ولو انه لا يستطيع ان يتحدث الانكليزية ، او يقرأها جيدا» .

ولقد حاول ذات مرة في مدينة «فيشى» ان يلعب «الغولف» ورغب في ذلك بشكل واف ، لكى يسلح نفسه بهذه اللعبة عند عودته الى العراق • وكان يصطحب معه كيسا كبيرا فيه عدد كبير من ادوات اللعب التى لم يستعملها •

× × ×

كان فيصل شديد الاهتمام بتحسين طرق الزراعة في القطر ، وسعى الى تطبيقها حتى على مقربة من بلاطه في بغداد ، كما بدأ بانشاء مزرعة نموذجية خاصة له في «خانقين» على الحدود الفارسية لان المياه المتوفرة هناك كانت غزيرة • وكان يزور هذه المزرعة باستمرار • ولم يكن غريبا عن ممارسة العمل الجسمانى أيضا • ففى احدى المرات وجده احد الموظفين البريطانيين في القصر ، وقد خلع صداريه ، وشرع يقوم نفسه بنقل بعض الاثاث ، لان حفلة استقبال ، كانت على وشك ان تقام ، ولان العاملين في القصر قد غادروه مبكرين ، نظرا لحلول احد الاعياد الدينية في المدينة •

كان اقتباس فيصل للوسائل الاوربية امرا مشهورا • كان يبرر ذلك بصفة شخصية في المسائل اليومية ، وبشكل سياسى في المسائل المهمة، اكثر مما يظهره افراد شعبه • لقد كان من اول العرب الذين اقبلوا على ارتداء الملابس الاوربية ، وكان يعيب اخوته لانهم لم يحذوا حذوه في ذلك • وحين كانت تقدم المشروبات الروحية عند زيارته لبعض المؤسسات المسيحية ، يرفض تناولها ، وكان يقول « ان في مستطاعكم تقديمها الى غيرى من الآخرين » ، واذ ذاك يتقبل نورى السعيد والمحيطون به ، تناول الشراب ، لانهم قد حصلوا بذلك على اذن من لدن فيصل •

وكان فيصل يشرب «الشمبانيا» اثناء وجبات الطعام ، ويعتبرها ذات قيمة من الناحية الطبية ، لانها كانت تقدم الى المرضى .

× × ×

ما ان غادر فيصل سوريا بعد احتلال الفرنسيين لها سنة ١٩٢٠ ، حتى امضى عدة ايام في دار «الجمعية الكنسية التبشيرية» في «حيفا» . وكان المتزمتون من رفاقه المسلمين يعارضون تلك الاقامة معارضة شديدة . ومن الامثلة البارزة على حسن اختيار فيصل في الامور السياسية ، اتفاقه المشهور مع الصهاينة[٣٥] ، واجتماعه مع ابن سعود الذى غزا بلاده

---

(٣٥) لا يخلو أى كتاب اجنبى صدر عن فيصل الاول حتى الآن من اشارة الى اتفاق زعم انه تم التوصل اليه بينه وبين حييم وايزمن بشأن مستقبل وضع اليهود في فلسطين . وما لبث هذا الاتفاق المزعوم ان اصبح بفعل بعض الكتاب والساسة الغربيين وعلى الاخص الانكليز والامريكان منهم ؛ يعرف باسم اتفاق فيصل وايزمن، أو اتفاق فيصل مع الصهاينة .

والحقيقة ان هذا الاتفاق لا اساس له من الصحة ولسنا نقول ذلك دفاعا عن فيصل وعن مسايرته المجبر عليها للانكليز في ذلك الوقت . ولكن الوقائع التأريخية الموثقة قد اكدت بما لا يدع مجالا للشك بأن ما عرف باتفاق فيصل وايزمن لم يكن في الواقع سوى احاديث عابرة غير مسجلة جرت بينهما . فمنذ ان ظفر الصهاينة بوعد بلفور القاضى بانشاء وطن قومى لليهود في فلسطين. راحوا يفتشون عن الشخص المقبل لزعامة العرب ، او أحد الاقطار العربية وحين وجدوا ان شخصية فيصل هى المرشحة في تلك الايام ، اخذوا يبذلون المستحيل للاتصال به ، والتفاهم معه حول مستقبل وعد بلفور ، وموضوع الوطن القومى لليهود في فلسطين، وذلك لكى يجعلوا من مثل هذا التفاهم مستندا يستندون اليه في تخطيط خططهم القاضية بالاستيلاء على فلسطين ومحاولة سلخها

واقتحها ، الامر الذى جعلت منه الانفة والمنازعات العربية طويلة الامد، امرا يستحيل حدوثه •

=

عن بقية انحاء الاراضى العربية التى وعدت بالاستقلال والسيادة من لدن البريطانيين حين اقدم الحسين بن على شريف مكة على اعلان الثورة ضد الاتراك والاعتماد في ذلك على وعود الانكليز ومواثيقهم التى لم ينفذوا شيئاً منها بعد الانتصار في الحرب العالمية الاولى •

ومنذ ان وضع الانكليز اول لبنة في بناء الوطن القومي لليهود في فلسطين باعلانهم وعد بلفور في الثانى من تشرين الثانى ١٩١٧ ، راحوا يسهلون لزعماء الصهاينة وعلى رأسهم وايزمن الاتصال بالشخصيات العربية لزعامة البلاد العربية كلها أو احداها بقصد التفاهم معه على مستقبل فلسطين ومستقبل اليهود فيها • فحين وصل فيصل الى نقطة «وهيدة» بين العقبة وعمان واتخذ منها مقرا لاعماله العسكرية ضد الاتراك سنة ١٩١٨ نقل الانكليز وايزمن الى هناك في سفينة رست به في ميناء العقبة ، ثم اخذوا به الى مقر فيصل في «الوهيدة» حيث جرى أول لقاء بينهما في اليوم الرابع من حزيران ١٩١٨ ودارت بينهما أحاديث شتى حول موضوع اليهود في فلسطين ، وتجددت هذه الاحاديث في لندن قبل انعقاد مؤتمر الصلح ، ولم يلبث وايزمن ان جعل من تلكالاحاديث موضوع اتفاق زعم بأنه توصل اليه مع فيصل ، وقد صنع وايزمن عدة نسخ من ذلك الاتفاق المزعوم وسلمها الى وزارة المستعمرات البريطانية التى أجرت عدة تغييرات عليها ، ومن ثم سلمت نسخة منها ، بعد التغيير ، الى لورنس لكى يطلع فيصل عليها • ولما لم يكن فيصل يعرف الانكليزية اطلاقا وكان يتحدث مع الشخصيات الغربية باللغة الفرنسية التى تعلمها أثناء وجوده في تركيا ، فقد اطلعه لورنس شفهيا على مضمون الاتفاق المزعوم فاعترض عليه فيصل وكتب بخط يده وباللغة العربية على النسخة الاولى تحفظات

=

كان العرب والاتراك العثمانيون مغرمين بالامثال وبالاوهام • ولقد افضى الي هنرى دوبس المندوب السامي في العراق ، بحكاية تصور تلك العادة ، ومدى استحواذ المسائل السياسية على تفكير فيصل •

كان فيصل ودوبس يتناولان طعام العشاء في احدى ليالى اوائل الصيف في دار المقيمية البريطانية وسط بغداد • وكانت لهذه الدار حديقة واسعة •

وبعد ان امتد الحديث الى القضايا السياسية ، غادرا مكانهما الى شرفة تطل على الحديقة • ففى مثل هذه اللحظات التى يكون الضيوف خلالها على مسافة ابعد مما يكونون عليه حول المائدة ، يتوقع اهل الشرق امكانية تبادل الثقة فيما بينهم •

واذ جلس الاثنان يتحدثان تحت النجوم ، وانتشرت النخيل المظلمة امامهما ، نظر هنرى دوبس ـ وهو رجل طويل القامة مليء

=

جاء فيها « اذا مانالت العرب استقلالها كما طلبناه ، بتقريرنا المؤرخ في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ المقدم نظارت خارجيت حكومة بريطانيا العظمى فانى موافق على ماذكر بناطق هذا من المواد ، وان حصل أدنى تغيير أو تبديل فلن أكون ملزوما ومربوطا بأى كلمة كانت بل تعد هذه المقاولة بلا شىء ، ولا حكم لهـا ولا اعتبار ، ولا أطالب بأى صورة كانت » •

وعندما أحيلت الوثيقة المزعومة الى السير ارنولد توينبي المؤرخ البريطانى المعروف وكان يعمل آنذاك رئيسا لدائرة الاستخبارات بوزارة الخارجية البريطانية ، كتب عنها تقريرا قال فيه « ان اتفاقية وايزمن فيصل هى أقرب الى تفاهم عـام من ان تكون وثيقة » •

البنية – الى فيصل وقال له « ان الوقت الحالى من السنة هو الوقت الذى يمكن النوم فيه خارج الابواب » • ثم اضاف بصوت خافت قائلا «ولسوء الحظ فاننى اظل ساهرا بسبب القطط التى تفسد مغامراتها الغراميـة ، النصف الاول من الليل ، وهديل اليمام قبل الفجر ، ولسـت متأكدا ايهما اكثر مضايقة لى • ولكن مع ذلك يستطيع جلالتكم ان يفهم بأننى مازلت مترددا في القضاء على تلك القطط واليمامات ! » •

وطبقا لما ذكره السر هنرى دوبس ، تطلع فيصل نحوه مستغربا وهو يقول « اننى لا اوافقك على هذا يا «سر هنرى» • فمن اى صنف نكون نحن العرب ؟ » •

لم يكن هنرى دوبس يلتقى مع المس بل وجاها على الدوام ، وذلك عندما يجد نفســه في نهج او تفهـم مختلف بالنسبة الى فيصـل ، والى القضايا السياسية عن بغداد • ولقد بدأ مركز المس بل في دائرة المندوب السامى يحيط به الارتباك • فقد كان هنالك حشد كبير من الزوار الذين يفدون لرؤيتها • ذلك لان اصحاب الصولة وعامة ابناء الشعب ، ما ان يصلوا الى بغداد ، حتى يتوجهوا اليها مباشرة ، وقبل ان يتم استدعاؤهم من لدن اية جهة اخرى •

ولقد كان القوميون ينظرون الى مركز المس بل في القطـــر ، نظرة عدم الارتياح • وكما عبر نورى السعيد عن ذلك بعد زمن طويل حين قال « لقد كنـا نعارضها لا لشخصها هى ، بل للدور الذى كانت تلعبه بمثابة رجـل » • وكانت حماستها الطاغيـة هى الاخرى مدعـاة للارتباك • كانت تحب دوما ان تكون في المقدمة ، ولذلك بدأ الملـك فيصل ينظر اليها نظرة الشك لكثرة حضورها عنده ، وكان يتردد ان

يوضح ذلك للسر هنرى دوبس • وفي احدى المرات اثناء تفتيش القوات العسكرية ، اثارت المس بل حساسية لايمكن نسيانها •

كان فيصل ، وهو يرتدى بدلة الخـاكى ، ويمتطى صهوة جواد ابيض ، يسير ببطء خارج البساتين المحيطـة بالارض المعدة للعـرض العسكرى ، وذلك لكى يحتل مكانه عند قاعدة التحية • واذا بـه يرى شخصا نحيفا ، يرتدى ملابس بيضاء ايضا ، وعلى ظهر مهر اسود ، يرخى عنانه ، ويقف الى جانبه ، انها المس بل !

وفضلا عن ذلك فقد كان وجود امرأة في خدمة الحكومة مايزال يعتبر في ذلك الوقت من الاخطاء التى يسجلها التأريخ في بلدان الشرق• ومع ان الرحالين الذين كانوا يزورونها ومنهـم الانسـة «فيتا سكثيل وست» (الليدى نكلسون) كانوا يلاحظون حماستها الغامرة ، وحيويتها التى لا تقاوم ، الا ان «الليدى نكلسون» قد كتبت عنها تقول «ان القاعدة الحقيقية لطبيعة المس بل كانت تتمثل في الواقع ، في قدرتهـا على اثارة العاطفة العميقة • فلقد اكتنفت حياتها مسرات كبرى واحزان عظيمـة ايضا • فكيف لها ، والامر على هذه الشاكلة ، ان لا تكون ذات مزاج تواق الى التجربة ؟ » •

عندما كانت المس بل شابة ، كانت مغرمة غراما عنيفا بالسيد «وليم لاسلنر» • كما انها احبت السيد هنرى كاروغان ، وارادت ان تتزوجه، ولكنه توفى على حين غرة في طهران ، وفي الوقت الذى كانت فيه بعيدة عنه في انكلترا •

ولذلك كان عكوفها على الترحال مع العرب الى بلاد مجهولـة ، يعتبر الى حد كبير ، بمثابة ترفيه لها عن احزانها ، في حين بلغ عملها

اثناء الحرب ، وعند مجيء فيصل الى العراق ، ذروته الخيالية .
وحين انبأتها وزارة المستعمرات بأن تعيينها اثناء الحرب كان على وشك
أن ينتهي ، فانها لا بد وان احست بأذى عميق نتيجة لذلك .

كانت المس بل ماتزال تحتفظ بمنصب المدير الفخري لمتحف
الاثار الصغير الذى انشأته في بغداد ، ولو انها كانت تعترض - بعد ان
تعاظم ذلك المتحف - بأنه لا بد وان يدار في الوقت المناسب من قبل
موظف بريطاني ، أو عراقي . كما ان فيصل والوزراء العراقيين ، لم
يعودوا يحتاجون الى مشورتها الا قليلا ، وذلك بعد ان توسعت معرفتهم
بأمور بلادهم . ولقد كانت تقول لاحد اصدقائها بأنها تحتفظ عادة
ببعض حبوب قوية المفعول ، وانها اذا «ما شعرت بأن الوقت قد حان
فلسوف تتناول تلك الحبوب ! » .

كان نومها شديد الاضطراب خلال صيف سنة ١٩٢٦ . وكان
يعطى لها مخدر منوم . وقد بدت في نظرى بأنها كانت شقية ، وان آخر
رسائلها الى ابيها ، توضح بأنها كانت في الواقع حزينة جدا .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر تموز تلك السنة ، ذهبت الى النهر
لتستحم كما اعتادت ذلك ، وقد بدا عليها بأنها كانت في وضع جيد ،
لكنها مالبثت ان توفيت في تلك الليلة .

× × ×

وعلى الرغم من كونه اميرا لمكة ، وسعيه المتواصل لارضائهم ، فقد
ظل فيصل يواجه صعوبات جمة كان يثيرها رجال الدين من الشيعة ،
في مدن النجف ، وكربلاء ، والكاظمية ، وعلى نطاق أقل في كل من
الكوفة وسامراء . لقد كان رجال الدين الشيعة هؤلاء يخشون - وهم

على صواب في ذلك ـ ان تعمد حكومة فيصل الى تقليل سلطانهم على افراد الشعب • فقد كان لهؤلاء تأثيرهم ليس في العراق فحسب ، بل وحتى في بلاد فارس ، لان شاه ايران كان شيعيا ، ولان اكثرية الايرانيين كانوا يعتنقون هذه العقيدة •

وكان معظم رجال الدين لدى الشيعة من الفرس ، او من اصل فارسى ، ولذلك كان هؤلاء يلقون الاحترام من الفرس الذين يزورون الاماكن المقدسة ، بأعداد كبيرة ، ويرسلون جثث موتاهم لتدفن في النجف وكربلاء • وقد يكون نفوذ رجال الدين من الشيعة غير محدود في بعض الاحيان • ففى القرن الماضى اقدم رجال الدين الشيعة في ايران على تحطيم احتكار الاجانب للتبوغ هناك ، بأن امروا الناس بالامتناع عن التدخين لمدة ستة اشهر ، فأطيعت اوامرهم تلك[٣٦] •

كان من الحكمة لفيصل ان يقوم بزيارة مدينتى النجف وكربلاء، بعد وصوله الى بغداد مباشرة،وان يكرر تلك الزيارة عدة مرات فيما بعد• وكان رجال الدين من الشيعة يحافظون على احترام ابناء طائفتهم لهم ، بعدم الظهور امامهم الا نادرا ، وارتداء الملابس والعمائم السوداء دوما • وكان كثير من سكان النجف التى انشئت في الاصل على حافة كهف يقابل الصحراء ، يسكنون في سراديب توفر لهم البرودة ايام الصيف • ولكن بعض الناس كانوا يستعملون هذه السراديب لاعمال السرقة ، او لاغراض اخرى غير مستحبة •

---

(٣٦) كان محمد حسن الشيرازى المقيم في سامراء ، هو الذى افتى بمقاطعة التنباك الذى منح الشاه ناصرالدين امتيازه للاجانب في بلاد فارس •

ويحضر على المسيحيين دخول الاماكن المقدسة ، ولا توجد بين الشيعة سوى اقلية تستقبل المسيحيين من دون عداء ، ومن هؤلاء «السيد جعفر عطيفة» ، من كبار الاثرياء الذى يمتلك البساتين الواسعة في الكاظمية قرب بغداد •

لقد كان البارزون من الاوربيين ، وكبار ضباط الجيش البريطاني ، والموظفون البريطانيون ، يقومون بزيارة السيد عطيفة • بل كان هو نفسه يدعوهم لزيارته ، شريطة ان يأخذوا الحذر اثناء قدومهم اليه ليلا في الايام التى تقام فيها مواكب العزاء خلال «عاشوراء» •

وحين تكون الزيارة بقصد المجاملة ، يستقبل السيد عطيفة زواره في بستانه خارج المدينة ، حيث يتم تبادل الرسائل معه مقدما ، ويستعد لملاقاة الزائرين عند الابواب الخشبية الكبيرة لبستانه ، الذى يحيط به سور يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدما ، وهو مشيد من الطين والقش • ويعرف مظهر السيد عطيفة البهج ، ومسلكه الذى ينم عن طراز العالم القديم ، ملاحظة غريبة لما كان الزوار يتوقعونه في بغداد ، والذين يصعب عليهم مشاهدة امثالها في أى مكان آخر • ولذلك اصبح السيد جعفر عطيفة في نظر اولئك الزوار يمثل «قطعة للعرض !» ، ولربما كان نفسه يعرف ذلك ، ويستمتع به •

والسيد عطيفة ، مثل معظم الرجال من هم على شاكلته ، يرتدى جلبابا وعمامة خضراء اشبه بقماش منضدة البليارد ، ويكون رداؤه الطويل من القماش الرمادى الفاتح المطرز بالسواد عند ياقة الرقبة والاردان ، وحذاؤه نعل اصفر اللون ، او ذو لون احمر شمعى ، وهو يحمل على الدوام في يده سبحة من العنبر ذات شراشب فضية • وكان

حاجباه بارزين وانفه كبير متميز بشكل ظاهر ،ولحيته وشارباه مصبوغين بالحناء ، او بدهان اسود •

وحين يستقبل احد زائريه ، يمسك يده بكلتا يديه ، وهو يردد «كم انا شاكر لكم جدا» ، «انا سعيد الحظ بكم جدا» ، «مرحبا بكم مرة اخرى» ، «كيف حالكم» ، «كيف صحتكم» •

وهكذا ينبغي على الزائر ان يجيب على كل هذه الاسئلة ، حيث تستمر الاسئلة والاستفسارات كلما تقدمنا في السير معه داخل بستانه ، الى ان نجلس على اسرة خشبية ، مغطاة بالسجاد الفارسي ، صفت في ممر ظليل بين ساقيتين يتدفق الماء فيهما ، وفي اعقاب ذلك يأمر السيد خدمه المنتظرين بجلب الشاى • ومع ان عددنا لم يكن يزيد على ثمانية اشخاص الا ان المائدة كانت تكفى لخمسة وعشرين رجلا ، لان المباهاة والمفاخرة تتطلبان ان تكون المائدة على تلك الشاكلة •

كان من بين الزوار كما اتذكر « السر هيوبرت يونغ » وكيل المندوب السامى • وقد انحنى الى امام ، في الوقت الذى كان فيه السيد عطيفة مشغولا بتحطيم كتلة من الثلج ، وراح يحدث ضيفته الاوربية «الليدى مونتباتن» «التى كانت تقول ان هذه الزيارة مثل زياراتى السابقة تماما كما اظن» • وعلى اثر ذلك استدارت الليدى مونتباتن نحو السيد عطيفة وراحت تسأله عن حريمه وعن بناته • وهنا تم جلب الهدايا ، وهى عبارة عن صناديق من الحلوى الفارسية ، وتلك اشارة لنا بأن نغادر «القرن» الذى يعيش فيه السيد عطيفة ، ونعود الى «قرننا» الحاضر •

× × ×

كانت تقام بين الفينة والفينة استعراضات للشرطة ، والقوات

العسكرية ، والكشافة ، وطلبة المدارس ، يحضرها فيصل مصحوبا دوما بأنصاره الثلاثة من السياسيين البارزين الاثيرين لديه ،وهم رستم حيدر، وجعفر العسكرى ، ونورى السعيد • فكانوا يقفون او يجلسون في صف واحد ، ويتبادلون من وقت لآخر الابتسامات ، ويتهامسون سرا فيما بينهم باللغة التركية •

كان رستم حيدر رجلا مثقفا • وهو سورى تلقى التربية الفرنسية• وكان طويل القامة ، وذا مظهر تقشفي فريد • وحين كان طالبا للعلم في باريس اصبح واحدا من الاعضاء الذين اسسوا جمعية « الفتاة العربية » السرية ، التى كانت تهدف الى تحرير الاقطار العربية من الحكم التركى، أو أى حكم اجنبى آخر • وكانت مبادرة جمعية الفتاة العربية هى التى أدت الى انعقاد المؤتمر العربى الاول في باريس سنة ١٩١٣ •

وبعد ان رافق فيصل الى مؤتمر الصلح ، التحق به في سوريا ، ومن ثم انضم اليه في العراق • ولقد تجنس بالجنسية العراقيـة ، وغدا المرافق الموثوق به لفيصل في البلاط ، ورفيقه الدائم في لعبة البردج • وكان رستم حيدر عضوا في حلقة صغيرة معقدة كانت تضم كلا من «حسين افنان» ، الذى غدا سكرتيرا لمجلس الوزراء المؤقت عندما وصل فيصل الى العراق ، بالاضافة الى زوجته الذكية المتحررة ، و «سيف الله خندان» الكردى المثقف ، وزوجته النمساوية •

لقد كان اهالى بغداد ينظرون الى هؤلاء الثلاثة نظرة ازدراء بسبب تلقفهم العادات الغريبة ، وكانوا يعتبرون من ذوى الفظاظة والخشونة • ولقد قتل رستم حيدر في مكتبه الرسمى حين كان يشغل منصب وزير المالية ، على يد مفوض شرطة سابق من ذوى الميول الالمانية ، وذلك في

اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثاني ١٩٤٠ .

اما جعفر العسكري الذي قدم من جمجمال قرب كركوك ، فقد خدم في الجيش العثماني ، الى ان اسره الانكليز في الصحراء الغربية ، وقد اقنعه نوري السعيد ، بأن يقطع على نفسه العهد ، ويلتحق بالامير فيصل ، ويكون واحدا من اتباعه في الثورة العربية . وقد تزوج هو ونوري السعيد كل منهما اخت الآخر ، وكان من اوثق اصدقاء نوري **السعيد** .

كان جعفر رجلا شجاعا مكتنز الجسم ، ذا شخصية مرموقة ، واحساس كبير بروح المرح . وكان يشغل منصب محافظ « حلب » عندما تولى فيصل عرش سوريا . ومن ثم عاد الى بغداد فأصبح وزيرا للدفاع ، ثم استأذن في السفر لاكمال دراسته الحقوقية في انكلترا ، وتولى بعد ذلك رئاسة الوزارة مرتين ، ثم اصبح اول ممثل للعراق في لندن سنة ١٩٢٥ . وحين كان وزيرا للدفاع آخر مرة ، تلقى مصرعه، ومن دون عداء ، على يد ضباط من الجيش العراقي ، وذلك اثناء الانقلاب العسكري الذي وقع في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٦ ، ودفنت جثته بسرعة على قارعة الطريق بين بعقوبة وبغداد .

اما نوري السعيد الذي تولى رئاسة الوزارة مرات عديدة ، ومع ذلك كان يضطر في عدة مناسبات ان يجد ملجأ له في الخارج ، فقد كان اطول حاكم في العصبة الصغيرة التي اعتادت ان تصحب فيصل في كل مكان في الايام الاولى للدولة . ولد نوري السعيد ببغداد سنة ١٨٨٨ ، واصبح ضابطا في الجيش العثماني ، وكان من الاعضاء المتحمسين في

جمعية «العهد» السرية ، وقد اسره البريطانيون سنة ١٩١٤ ، ونقلوه الى الهند ، ثم اختير للالتحاق بالثورة العربية .

ولقد عمل نورى السعيد مع جعفر العسكرى عندما تولى منصب رئيس الاركان ، أكثر من أى من العراقيين الآخرين ، لانشاء الجيش العراقى الذى فتك بهما في النهاية . وكان مثالا للذكاء الخارق ،وحسن الاختيار النادر ، والاحساس السياسى الجيد . ولم يفرط لا هو ولا جعفر العسكرى ، في الولاء للعائلة المالكة ، وفي ثقتهما بمساندة بريطانيا للحركة العربية . فقد كان يردد على الدوام « مادامت السياسة البريطانية مؤيدة للاهداف العراقية السامية ، فان اخلاصي لها يمكن الاعتماد عليه ».

وفي الايام الاولى لتأسيس المملكة العراقية ، ولانه كان من القوميين العرب المتطرفين ، امضى نورى السعيد فترة من الزمن تستحق التصوير، اذ كانت تحرسه ليل نهار ، عصابة مختارة من رجال اشداء ، يرتدى بعضهم ملابس افراد الانضباط العسكرى العراقى ، حيث تواترت قصص اخاذة عن حوادث الاغتيال،وعن التصرفات الفظة الخالية من العدل، وتعزيز التظاهرات المعادية للبريطانيين ولليهود ، والتى كان الطلبة يقومون بها نيابة عنه[٣٧] .

---

(٣٧) لسنا نعتقد بصحة هذا القول اطلاقا فلم يعرف عن نورى السعيد انه كان يحرض أحدا ضد البريطانيين ولا ضد اليهود أبدا ، وان راح منذ أوائل سنى الثلاثينات يحرض ضباط الجيش ضد بعض الساسة وبعض الوزارات التى لا تروق له وكان الدافع الى ذلك هو أن يظهر ، بعد وفاة فيصل الاول ، بمظهر الشخصية الوحيدة التى تستطيع أن تتلاعب بمقدرات العراق وكانت أساليبه هذه من الامور التى جرت البلايا الكثيرة على البلاد ، ومهدت لثورة

=

اما في ميدان العمـل فقد كان نورى السعيد ذا طاقـة في الاعصاب كاملة ، وتقدير رفيع لرجال الدولة ، وهما خصلتان كانتا تختفيان عادة تحت الصمت الذى يتميز به الرجل في الاوساط الرسمية الاوربية • وكان في الوقت ذاته يحب اللهو والمرح حسب الطريقة الشرقية • ولقد استعار مرتين ، احدى الدور لمدة ليلـة واحدة ، ذلـك لغرض امتـاع بعض الزوار الاوربيين من غير الرسميين • وكانت تلـك المتـع تضـم سلسلة مطولة من الفتيات الراقصات ، والممثلين من مختلف الاصناف ، بالاضافة الى جوق موسيقى عربى كان يعزف بصفة جيدة الاته الغربية ، كما كان يعرف العازفين على تلك الآلات ، والذين كان يأتى بهم اليـه حرسه الخاص •

ففى امثال هـذه المناسبات ، سرعان ما تأسره الموسيقى وتسبيه • ففى اول حفلة اقيمت في داري التى استأجرتها من جعفر العسكرى ، كان الجوق الموسيقى لا يفتأ يردد باستمرار ، وبأمر من نورى السعيد ، اشهر اغنية في ذلك الوقت ، هى اغنية «الكوكائين !» •

لقد قلت عن نورى السعيد انه لم يكـن يقرأ الاضابير • وأعـود فأكرر القول ان هذا الامر كان واقعـا حقا • فهو يأتى ليعرف مايريد معرفتـه عن أى موضوع ، بطريقـة طرح الاسئلة على اولئك الذيـن يفهمونها احسن من غيرهم •

= الرابع عشر من تموز التى لم يكن يتوقعها ولم يكن يعتقد بوقوعها أو بتحرك الضباط ضده حتى بعد أن وصلته التنبيهات والانذارات من حسين ملك الاردن عن ذلك قبل وقوع ثورة الرابع عشر من تموز ببضعة أسابيع •

ولم اسمعه ولا مرة واحدة كان يبدي فيها ملاحظة اصيلة ، لكنني لم اسمعه يبدى ملاحظة غير حكيمة • كانت ذاكرته جيدة • وكان يحب النكات الصغيرة • وقد حدث ذات مرة ، في احدى الحفلات المسائية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بزمن طويل ، ان القى في يدي صكا بمبلغ عشرين جنيها • واذ سألته مندهشا عن سبب ذلك ، رد علي بصوت يسمعه كل من يمر بنا ، بأنه كان قد استعار هذا المبلغ مني يوم كان خالي الوفاض تماما في بيت المقدس سنة ١٩٤١ •

وعند عودته من الولايات المتحدة الامريكية الى لندن ، بعد الحرب العالمية الثانية ، سأله احد موظفى وزارة الخارجية البريطانية عما اذا يستطيع ان يقدم له خدمة ما • فرد عليه نورى السعيد ، ان كل مايريده في الحال هو ان يرى «العقيد ايدي» ، الذى امضى في العراق وقتا طويلا عضوا في البعثة العسكرية البريطانية ، وذلك لانه لايعرف شيئا عن احواله • وما ان تم اخبار احد ضباط وزارة الحربية بذلك بنداء من لدن وزارة الخارجية ، حتى اسرع ذلك الضابط بانتداب احد الضباط ، وهو الذى افضى الي بهذا الحادث مؤخرا ، فركب احدى سيارات هيئة الاركان السريعة ، لكى تجلب العقيد «ايدي» من المعسكر الذى كان يعمل فيه خارج لندن ، ومن ثم اصطحبه فيما بعد احد ممثلي وزارة الخارجية الى الفندق الذى يقيم نورى السعيد فيه ، واذ ذاك قدم اليه نورى السعيد قنينة من الفلفل الاحمر ، واخرى من الفلفل الحار جداء كان قد جلبهما معه من الولايات المتحدة الامريكية ، وذلك لانه كان يعرف بأن العقيد « ايدي » مغرم بالفلافل ، ويعرف ندرتها في انكلترا آنذاك !•

وكثيرا مايكون نورى السعيد شديد الحساسية بدرجة اشد من

معظم رفاقه • وانني لاتذكر عندما وصلنا على ظهر الباخرة البريطانية «اجاكس» الى اسطنبول بعد الحرب الثانية ، كيف كان هو وداود الحيدرى يجريان في السفينة من جانب الى آخر لكى يريا المواقع على الساحل وفي المدينة ، والتى كانا يتذكرانها جيدا منذ ايام الشباب • لقد شاهدت عينى نورى السعيد تغرورقان بالدموع ، وهو يشير الى اماكن تجوالهما ، عندما كان شابا في الكلية العسكرية •

كان نورى السعيد رشيق البنية خفيفها قليلا ، تغطى احدى وجنتيه آثار بارزة لـ «حبة بغداد» • وكان على الدوام نظيفا ، حسن الهندام ، وغالبا مايحمل في يده مسبحة من العنبر • وللتدليل على صداقته ، كثيرا مايعلق اصبعه الصغير في اصبع الشخص الذى يريد ان يظهر له ذلك الاحساس • ويعترف حتى اعداؤه بأنه لم يجمع اية ثروة ، وبأية طريقة يكثر التساؤل عنها • وقد قتل ببغداد في شهر تموز سنة ١٩٥٨ وهكذا فان المستشارين الثلاثة للملك فيصل ، والذين كانوا على الدوام ، قد اعانوه اكثر من الآخرين في تأسيس الدولة ، وفي بعث «القومية» العراقية، ان صح هذا التعبير ، ان هؤلاء الثلاثة قد تم قتلهم على ايدى العراقيين انفسهم •

كان فيصل ، مثل سلفه العظيم الخليفة هرون الرشيد ، يمزح اثناء النهار عادة في بعض المناسبات ، مع هؤلاء الثلاثة وغيرهم من اعضاء حكومته • وكان فيصل لشدة تقشفه يحاول ان يوجد تناسبا مدهشا ، لما يتحدث به القوم عن «كمال بغداد» ، ويرى ان ذلك يجب ان يكون خارج مقره الرسمى ، أو عندما يقام عرض عسكرى لم يكن يتوقع حضوره فيه • فأمثال هذه الزيارات كان لها تأثيرها الفاخر ، وكان

ظهوره غير المعلن مسبقا ، يثير امتنان المواطنين الاعتياديين الذين يحبون الاهتمام الذى كان يبديه تجاههم .

× × ×

مالبثت عائلة فيصل ان استقرت معه في بغداد . ولما لم يكن قد اعد له قصر بعد ، فقد سكنت عائلتـه في احد البيوت ، ثم انتقلت الى بيت آخر قديم وبسيط على مقربة من البوابة الشمالية للمدينة ، ومن البلاط الذى كان يعمل فيه يوميا . كانت زوجته «حزيمة» ابنة عمه ، وشقيقة زوجة اخيه عبدالله ، صغيرة الجسم مثل بقية افراد العائلة الهاشـمية ، ومعظم النساء العربيات هناك . ولربما كان البشر والحيوان معـا في الحجاز ، مدينا في حجمه الى قسوة المناخ !.

كان لفيصل ثلاث بنات وولد واحد ، تركوا تحت رعاية مربيـة انكليزية هى المس «لوسى سمث» . كانت ابنته الكبرى «عزة» قد بلغت مرحلة الزواج من دون ان تجد بعلا لهـا مـن شاكلتها . وحين كانت تمضى العطلة في جزيرة «رودس» التقت بخادم فندق وتزوجت منـه ، ولكنه سرعان ماهجرها . ولقد عاشـت عدة سنوات في بؤس قاتـل في ايطاليا . وحين كان ابن عمها «عبدالاله» عائدا بعد الحرب العالمية الثانية من انكلترا عن طريق «روما» رتّب امر عودتها الى عمان ، لكى تكون تحت رقابة اسرة عمها الملك عبدالله[٣٨] . اما اخت فيصل من ابيـه ، فقد تزوجها احد العراقيين ، هو «عطا امين» الذى اصبح فيما بعد من اعضاء السلك الدبلوماسى .

---

(٣٨) ذكر الدكتور سندرسن في مذكراته التى ترجمناها وصدرت طبعتها الثانية ، هذا اللقاء الذى جرى بين عبدالاله وابنـة عمه «عزة» وعودتها بعد ذلك الى عمان والعيش فيها بقية أيامها ص٣٦٨ـ٣٧١ .

ومن بنات فيصل الاخريات «راجحة» التي اخفقت في الحصول على زوج من طبقتها ، فتزوجت من ضابط في القوة الجوية العراقية هــو «عبدالجبار محمود» ، الذى انتقل فيما بعد الى ميدان الاعمال فأصبح من الاثرياء حتى قيام الثورة في سنة ١٩٥٨ • لقد كانت راجحة وزوجهـا اثناء الثورة في اوربا وبذلك سلما من الاذى ، وان كانا قد فقدا ثروتهما. غير ان «راجحة» لـم تعش بعد ذلك طـويلا ، اذ ماتت بمـرض خبيث هــو مـرض « هودجكن » في مدينــة لوزان بسويسرا في شـــهر آذار سنة ١٩٥٩ • أما اصغر بنات فيصل فهى «رفيعة» التى كانت غير متزنة في الواقع ، وتوفيت قبل الحرب العالمية الثانية •

اما غازي وهو الطفل الثالث والابن الوحيد لفيصل ، فقد ولد في مكة سنة ١٩١٢ • وكان محبوبا جدا من لدن امه ، وكانت تتوارى بـه عن انظار نساء العائلة ، وقد تحرر من ذلك مؤخرا ، وسمح له بالذهاب الى المدرسة •

ولقد وافق ابوه في السن المحدد او حواليه ، كمـا يظن ، عـلى ارساله الى انكلترا للالتحاق بمدرسة «هارو» ، وهكــذا وحين كان في الثالثة عشر من عمره في سنة ١٩٢٥ ، تم ايفاده الى انكلترا •

ولهذا السبب فزع «امري» وزير المستعمرات البريطاني ، الذى كان يزور بغداد مع «السر صموئيل هور» ، عندما وجد «غازي» يكاد لا يعرف ولا كلمة انكليزية واحدة ، وانه غير مستعد تمامـا للحياة في مدرسة انكليزية عامة ، ولذلك عثر له على معلم هو «جونسون» من مدينة « ماردن فكراج » بمقاطعة « كنت » ، حيث كانت تعطى لـه دروس تحضيرية خاصة •

وفي اول ليلة قضاها «غازي» هناك اغلق ابواب غرفته ونوافذها . فقد افزعه عدم وجود الحراس بطابعهم المريح خارج الغرفة ، وانعدام الخدم من الزنوج الذيـن ينامون في الممرات استعدادا لاستدعائهـم . وسرعان ماراح غازي يصبو الى امتلاك سيارة خاصة به . ولقد قدم جعفر العسكرى وزير العراق المفوض في لندن آنذاك ، الى مدينة «هاردن» ، واقنعه بالعدول عن موضوع السيارة . ولكن غازي كتب الى ابيـه عما حدث ، فأبرق فيصل الى جعفر يسأله «لم تضايق ولدى ؟ اعطه سيارة». ولكن كان ينبغى – حسب القواعد الانكليزية – ان يكون لديه سـائق يسوق تلك السيارة .

لقد بدا من المعيب لغازي ان يظـل يركب دراجته ، وان يتجنب اصابة الاطفال بها اثناء الطريق ، ولو انه عندما كانت توضح له انظمة الشرطة ، كان يلاحظها باخلاص تام(٣٩) . وحتى اثنـاء فترة التعليـم الخاص لم يكن متوقعا ان يلاقى انتقال «غازي» من كنف امـه بصفـة مفاجئة ، وهى المغرمة جدا به في الوسط الملكى ، الى مدرسة انكليزية بعيدة ، نجاحا كبيرا ولم يتحقق ذلك النجاح فعلا . ذلك لان الشاب الشرقى قد يبز اقرانه كثيرا في بعض الوسائل ، لكنه يتأخر عنهـم في وسائل اخرى . فهو في اثناء الدراسة لايستطيع ان ينافس الغير حسب مستوى عمره ، حتى اذا ماجابهه الفشل غدا يكره الحياة .

عندما ترك غازي المدرسة قيل عنه بأنه قد هدد استاذه بأنه سوف يعود بجيشه ويحرق مدرسة «هارو» .

---

(٣٩) هذا الكلام من رسالة تعزية بعث بها معلمه «جونسون» الى صحيفة التايمس التى نشرتها في عددها الصادر في اليوم السادس من شهر نيسان سنة ١٩٣٩ .

والشيء المؤكد انه لم يكن سعيدا في حياتــه هنــاك • فلقد قدرت هيئة المدرسة انه لن يجد الحياة يسيرة في مدرسة انكليزية عامة ،ولذلك تقرر ان يعيش مع استاذ صغير السن يسكن مع زوجته وطفلته الصغيرة، بدلا من ان يعيش في بيت مدرسي مع اولاد آخرين •

ومنذ اللحظة التى دخل فيها مدرســة هارو ، وطيلة الفترة التى أمضاها فيها ، لم يستطع غازي ان يوطن نفســه على عملــه • ففى اثناء الليل كان مايزال يغلق ابواب غرفته ونوافذها ، مثلما كان عليه الامر في مدينة «ماردن فكراج» • وينام وهو يضع على رأسه قبعة ملاح جوي• وحين كان يسئل عن سبب ارتدائه هذه القبعة ، يرفع ورقة اذنه لكى يسمع السؤال ، ويوضح بأنه يفعل ذلك كيلا يستطيع «الجن» ان يلج اذنيه عندما يكون نائما ! • ثم يضيف الى ذلك قوله بأنه سبق له ان جرب القلق مع «الجن» في بغداد • فقد كان البعض من هؤلاء الجن في القصر ، ولكن اباه الملك قد طردهم من ممر السرداب ، بأن قرأ آيات من القرآن بصوت عال •

وحين لا تكون معه سجادة خالصة للصلاة ، كان غازي يستعمل صداريه بدلا عن ذلك • وفي احدى المرات سمع وهو يقيم الصلاة باكيا متهجدا ، وبطريقة مثيرة في وقت متأخر من الليل • وذلك لانــه كان سيتلقى ضربة من المرشد المسؤول عن الفتيان الخارجيين في اليوم التالى• لقد كان في حالة هياج بسبب ذلك الى درجة ان الاستاذ الذى كان يعيش معه تدخل في الامر وتم تأجيل الضرب بصفة محددة • وهكذا استجابت صلاته له •

كان شديد الايمان بالله • ففي احدى المرات قال لزوجة استاذه

التي كانت تحدثه عن رحمة الله « لسوف ترين ماسيصنعه الله بك ؟» . وكان يقصد بذلك ان الله سوف ينتقم منها له ! ولم ينس رفض جعفر العسكرى شراء سيارة له ، وظل في مدرسة هارو يكرر عدة مرات بأنه يكره جعفر العسكرى .

وحين كان يؤخذ الى اسبانيا اثناء العطلات ، كان يصر على تفكيره بأنه سوف يلتقى بالعرب الحاكمين فيها . ولكن سرعان ماخاب ظنه ، عندما وجد فعلا كنيسة مسيحية في المكان الذى كان يحتله «جامع قرطبة». وبعد سنين متأخرة سألنى احد اساتذة جامعة «غرناطة» ممن كانوا يتكلمون العربية ، والذى صحب الملك «عبدالله» مؤخرا ، في جولة قام بها داخل اسبانيا ، عن السبب الذى جعل عبدالله يرفض الاهتمام بعمارة المسجد ، وجعله يسير خلاله من البداية حتى النهاية من دون ان يرفع عينيه ولو مرة واحدة ، أو يطرح سؤالا واحدا . لقد كان ذلك يعود بالطبع الى صفة المباهاة لدى العرب .

فلست اظن ان احد الانكليز يسير في «نيودلهى» بعينين منصرفتين عما تقعان عليه ، ولو اننى اعترف بأن العرب قد حكموا اسبانيا ، واستوطنوها اكثر مما فعل الانكليز ذلك في الهند .

استرد غازي روحيته في اسبانيا ، حين وجد ان في مستطاعه ان يشتري السلاح ، والبدلات العسكرية . ولم يبدو حتى على معلمه في اللغة العربية ، الشيخ كاظم الدجيلى ، انه استطاع ان يعلمه المزيد ، وان كان المناخ الانكليزى قد اثر فيهما سوية ، وفي غازي بصفة خاصة. فلم يكن غازي مماشيا للحياة في انكلترا . ولذلك فانه لم يمض الوقت

الكامل في مدرسة « هارو » ، حتى نبذ حصيلة الدراسة والشؤون الاخرى كلها •

كان منذ شبابه يبدي اهتماما شديدا بالسيارات والطائرات ،ويحب السرعة • وكان يحتفظ بالظرف الطبيعى الذى اشتهر به والده •وحتى عندما كان شابا ، اختار له اصدقاء من الضباط والطلاب • واذا كان عدم احترامه للمؤسسات البريطانية قد دوخ البريطانيين ، فان من الخطأ التفكير بأنه كان لابد من مرور وقت طويل ، لكى يصبح فيه شديد الاستقرار قبل ان يرقى العرش •

الفصـــل الثـــاني

انتصـــار ٠٠٠٠٠ واندحـــار !

تجربة الدمقراطية البرلمانية في العراق

حيرة فيصل بين الانكليز والقوميين المتطرفين

« استوردت الانظمـة السياسـية والفلسـفية الى الشرق »
« الادنى ، تحت المعنى العـام للدمقراطية ، وتم تطعيمها »
« بصفة مصطنعـة في مجتمع اقطـاعي بطبيعته ، ونظري »
« بروحيته ٠ ولذلك كانت النتائج غير سعيدة ، ومخيبة »
« للآمال في الغالب ٠ ان الكبت والضغط اللذين اوجدهما »
« سوء التنظيم ، ونقص التفهم ، بل عدم تقييم المؤسسات »
« السياسية الحديثة ، كـل ذلك قد ادى الى الحط من »
« قيمة الدمقراطية ، في نظر الكثير من الشرقين ٠٠٠٠٠ »

زين نورالدين زين

في كتابه «العلاقات الانكليزية التركية وظهور القوميةالعربية»

ZEIN. N. ZEIN : ANGLO - TURKISH RELATIONS AN THE EMERGENCY OF ARAB NATIONALISM

كانت خطة فيصل في البداية خطة بسيطة هي : انجاز الاستقلال ، عن طريق تشجيع القوميين في المدن ، وكسب التأييد من لدن شيوخ العشائر وكبار المزارعين في المناطق الواقعة على ضفاف الانهار ، وذلك بأستعمال الكياسة ، واقناع من يعتقد ، هو نفسه ، بأنه يستحق ان يكون سيدا . فما ان يظفر بتأييد القوميين ، وذوى الاهمية من رجال الارياف، حتى يستطيع ان يداهن البريطانيين ، ويقنعهم بالدخول الى اتفاق ، على أهمية الاستقلال المبكر الذى يرتكز على ابراز الوحدة القومية في شكل عرضي حسن التوقيت .

ولقد برهنت هذه الخطة على انها كانت ايسر مما بدا عليها في أول الامر . ففى المدن كان زعماء القومية الحديثة من الشخصيات الكبيرة ، اضافة الى افراد الاسر القديمة . ولم يكن هؤلاء الاخيرون حديثي النعمة بصفة خاصة ، لكنهم وجدوا ان من العسير عليهم ان يروا بأن الافراد الذين كانوا من بداية منحطة قد اصبحوا من المرموقين، أو ان اولئك الذين كانوا يتلقون المساعدة العملية ، عن طريق رسالة توصية اعطيت لهم الى أحد الموظفين الاتراك قبل الحرب ، ان هؤلاء قد غدوا الآن من الوزراء وفي مستطاعهم ان يسيطروا عليهم الآن او على اتباعهم .

وكان اصحاب الثروة على علاقات جيدة مع الاتراك ، لكنهم مالبثوا ان أقاموا مثل تلك العلاقات الجيدة ، مع البريطانيين حال وصولهم

الى العـراق ، في حين خاض الشباب القومي غمار الكد والـكفاح ضد الاتراك ، وكذلك الكيد والكفاح ضد الانكليز في سنة ١٩٢٠[١] ، وقد تم بصفة مباشرة ، في قتل الضباط البريطانيين ، في بعض الحالات •

ولقد وجد اصحـاب الثروة ان مـن العسير عليهـم الايمـان بأن البريطانيين سوف يسلمون ، بصفـة حقيقية ، شؤون البلاد الى امثـال اولئك الرجال غير المجربين الحكم ، والذين كانوا يتصرفون مـن دون مسؤولية • ولذلك وجدوا ان من الخطر ان يقدموا على اثارة الشـعب وتحريضه ، مثلما كان يفعل اولئك من قبل • وفي الوقت ذاته شرع ابناء الارياف يشعرون بالقلق ، وأخذ الموظفون البريطانيون ينصتون بألم الى شكاواهم ، ويعملون على اصلاح الاخطاء ، والاهتمام بالتقاليد ، والخوف من الاثارة ، الا اذا غدت امرا لا مجال الى تجنبه •

وكان القوميون ، من الناحية الاخرى ، أقل اهتماما في تجنب عادة الاساءة • ومع ان فيصل نفسـه كان يميـل حسب استطاعته الى تطبيق الوسائل التقدمية لتحديث المجتمع ، الا انه كان يقف الى جانب اولئك القوميين • أمـا شيوخ العشـائر فكانت لديهـم وسائلهـم للتوصـل • فما ان اصبحوا من رجال الموقف ، حتـى غدا في مستطاعهم ان يقـوموا بزيارة الملك ، وكبار الموظفين البريطانيين • ولذلك كان هؤلاء الافراد يمثلون على الدوام حلقات الزوار مـن رجال العشائر في القصر ، وفي

---

(١) يشير المؤلف بهذا الى الثورة العراقيـة الكبرى المجيدة في سـنة ١٩٢٠ والتي كان المستعمرون ومـا فتئوا حتـى الآن ينعتونهـا بالاضطراب تارة وبالتآمر والكيد تارة اخرى ، انطلاقا من مفاهيمهم الاستعمارية التي تنكر على الشعوب حقها في التحرر والاستقلال والتقدم والثورة •

دوائر السر كنهان كورنوواليس ، والموظفين البريطانيين البارزين ، ويحظون منهم بالاهتمام المطلوب .

وقد يصل النزاع أحيانا بين القديم والحديث الى الذروة في بعض الحوادث . فقد يعود الشيوخ الغاضبون الى اراضيهم ليزيدوا من اخطائهم ، سواء كانت موهومة ام حقيقية ، فيهاجمون جباة الضرائب ، أو احد مراكز الشرطة ، ومن ثم يتم اخضاعهم باستخدام القوة الجوية البريطانية ، وقوات المرتزقة «الليفى» ، أو الجيش العراقى .

من الامثلة على الوسيلة التى حصل بها النزاع بين القديم والحديث ، والذى ادى الى عواقب وخيمة ، ان ذلك النزاع قد وقع على الرغم من النصائح التى أبداها الملك فيصل بنفسه شخصيا . لقد وصف لي الحادث التمهيدى لذلك النزاع ، أحد رجال الاعمال من الانكليز الذى كان ينزل في فندق صغير في الشارع الرئيس ببغداد ، والذى عرف مؤخرا باسم «شارع الرشيد» بدلا من شارع «مود»[٢] .

لقد انبأني ذلك الانكليزى بأنه شكا الى مدير الفندق ، الشخص الذى كان يسكن في غرفة تقع فوق غرفته هو ، والذى حرمه من نومه ، بكثرة صعوده اليها وهبوطه منها حتى مطلع الفجر .

كان شاغل تلك الغرفة احد شيوخ الريف وله مظهره المميز ،وهو من افراد «عائلة السعدون» الشهيرة في الجنوب . وقد اعتذر اليه عما بدا منه ، لكنه ظل يواصل الهبوط والصعود . وقد ذكر مدير الفندق

---

(٢) لم يطلق اسم « مود » على شارع الرشيد اذ كان قبل التسمية يعرف باسم خليل باشا جادەسي .

للانكليزى بأنه لا يوجد شيء يمكن ان يوقف الشيخ عن ذلك ، لانـه رجل مهم جدا ، ولا يمكن الاساءة اليه .

عندما قص ذلك الانكليزى تلك القصة علي ، استطعت ان اقول له بأن الانباء قد ذكرت ، بأن ذلك الشيخ ، وقبل ساعة مضت ، قد أقدم على قتل «عبدالله الصانع» احد كبـار الموظفين العراقيين ، والذى اصبح وزيرا قبل وقت قصير ، اثناء وجوده في مكتبه[٢] . والواضح ان القاتل أمضى ليلتين دون ان ينام ، وهو يعد العدة لفعلته تلـك ، وقد اعترف بالدافع الى القتل ، ولم يحاول ان يتجنب اعتقاله .

كان «الصانع» وهو ابن احد العبيد المملوكين قبلا لعائلة السعدون، قد تثقف ورغب في الزواج من احدى فتيات عائلة السعدون . وقد انبأ الملك فيصل بذلك فتلقى منه التبريكات ، ولذلك اقدم على ما اراد . كان مثل هذا الامر بالنسبة الى عائلة السعدون اذلالا لا نظير له ، ولا يمكن ازالته الا بالموت . وهكذا حكمت المحكمة على القاتل بالسجن ، لكنه مالبث ان خرج منه .

وكانت هنالك مؤامرات بين الوزراء وفرقائهم الى درجة تعودهـا الملك فيصل ، وان كان نفسه يقوم بتدبيرها ، وكان النظام البرلمانى القائم يميل نفسه الى مثـل ذلك . فنادرا مايحتفظ رؤساء الوزراء بحكوماتهم متماسكة الى زمن طويل . ذلك لانه خلال حكم فيصل الذى امتد اثنتى

---

(٣) لم يشغل عبدالله الصانع أى منصب وزارى ، كما ذكر المؤلف ذلك خطأ ، وانما كان يتولى منصب مدير الداخلية العام عندما اغتيل . وكان القاتل هو عبدالله فالح السعدون . أما ماذكره المؤلف سماعا عن الآخرين بشأن اصل عبدالله الصانع فلا اساس له من الصحة.

عشرة سنة ، قامت خمس عشرة حكومة ، كانت منها تسع حكومات رأسها ابناء الاسر القديمة ، وست حكومات تزعمها القوميون الشبان من طراز الضباط السابقين في الجيش العثماني • ولذلك كان القصر ، هو الاخر ، غاصا بالساسة الذين كانوا يسعون الى تهدئة خواطر الملك ، او ارضائه •

فمنذ اوائل الصباح حتى منتصف النهار ، يقوم رئيس التشريفات بتقديم القادمين واحدا اثر واحد • كان اول رؤساء التشريفات هو «صفوت باشا» ، ومن بعده «تحسين قدرى» المرافق السابق لفيصل(٤) ، وقد تزوج من احدى وريثات احد اصحاب بساتين التمور في البصرة ، وتجنس بالجنسية العراقية • وقد ينتظر البعض من هؤلاء القادمين الى البلاط مدة يوم كامل لكي يحظوا بمقابلة الملك • واذ ذاك تجرى عملية المناورة والتحويل الحذرين بين المشاهير الصامتين ، بحيث يتم تقديم الاشخاص ذوى الاهمية ، او اولئك الذين لهم اسباب ملحة ، على اولئك الذين جاؤوا من قبلهم ، وهكذا يجرى تقديم القهوة والشاى الممزوج بعصير الليمون ، والسكاير ، في الوقت الذى يقبل فيه المرافق ويروح ، وهو يهمس بالرسائل الى رئيس التشريفات •

وفي اثناء ذلك تقدم الى شيوخ البدو ، والزوار القادمين من الجزيرة

---

(٤) هو صفوت باشا العوا وكان يتولى منصب ناظر الخزينة الخاصة وهو سورى الاصل ومن ضباط الجيش العثماني وقد كان يدرس اولاد الحسين في اسطنبول •

اما تحسين قدرى فقد تزوج ابنة عبدالوهاب القرطاس ، احد اعيان مدينة البصرة في ذلك الوقت ومن اصحاب الاملاك والبساتين فيها •

العربية ، وشرق الاردن ، او من الصحـراء السوريـة ، القهوة التى اعتادوا تناولها ، من قبل احد اتباع الملك من « مكة » ، والذى يعرف عاداتهم البدوية • وتعطى لكل واحد من هؤلاء هدية ، اما في صفة نقود، أو ملابس ، أو تموينات اطعمة ، أو اسلحة ، او بهذه كلها • وهكذا كان فيصل ، يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، منهمكا في مهمته الشاقـة التى لم يساعده أحد فيها ، باعتباره ملكا على بلد حديث لم يكن متمتعـا بالسلطة الحقيقية ، لانه يخضع للحكومة المنتدبة •

ولما كان فيصل منحدرا من نسل الرسول «محمد» (ص) ، واميرا من مكة ، فقد اعانه وضعه هذا على ممارسة الحكم بطريقة نظرية اكثر عزلة ، وكأنه لاتوجد انقسامات بين المسلمين انفسهم ، اضافة الى وجود القوميات الاخرى داخل القطر • ولذلك راح يواصل تودده الى الافراد، ويستغل الانقسامات القائمة بين القوميين ، واصحاب الثراء ،والبريطانيين، ويميل بصفـة اكثر الى الفريق الاول من الفرقاء الثلاثـة ، في سـبيل تأمين المستقبل •

وحين بدأ فيصل وحكومته القومية يشعران بقوتهما المتنامية ،والتى كانت تدعمها القوة الجوية البريطانية ، شرعا يسلكان طريقا اقوى بشأن السياسة الداخلية • فلقد قرر فيصل والحكومة ، المباشرة بتنفيذ التجنيد الاجبارى ، ونزع سلاح العشائر الجنوبية ، ومعظمها من الشيعة ، والتى كانت بطبيعتها مفرطة في روحيتها المحافظـة ، ومتمسكة بمعتقدات ذات سمات خرافية شديدة جدا •

وكانت هذه المشاعر المتطرفة تظهر بجلاء في المواكب التى كانت تنظم في اوائل شهر «محرم» من كل عام •

لم يكن مستوى الامن في بغداد مرتفعـا ، خلال السنوات الاولى لحكم فيصل ، على الرغم من الشدة والقسـوة التى كان العثمـانيون يطبقونها • ذلك ان عددا كبيرا من حوادث القتل كانت تقع في بغداد ، وبمعدل يزيد عن مائة حادثة في الاسبوع الواحد ، طبقا لما ذكره أحد الضباط البريطانيين في دائرة التحقيقـات الجنـائية • ومن بين حوادث القتل هذه اقدام الاخوة على قتل اخواتهم ، نتيجة وقوع علاقة مزعومة مع الرجال ، الامر الذى كان يحط من منزلة العائلة برمتهـا • وكان جسم القتيلة يمزق عادة بالسكين • وكانت نفس هذه القتول تعتبر في ذات الموضوع من الجرائم الشخصية في اوربا اللاتينية ، واذا ماأحيلت الى الشرطة ، وأحد المحققين ، فانها تعالج بفرض أحكام مخففة •

ونتيجة لهذه النظرة كان الشبان هم الذين يرقصون في الملاهـى العربية بدلا من النساء ، ويقومون بأدوار الفتيات في التمثيليات ، حتى الى مابعد مجيء البريطانيين الى العراق •

واذا كان نظـام الحكـم التركى قد تميز بالشدة ، فان الحكـم البريطانى كان في البداية على مثل تلك الشدة ايضا • فقد عوقب احـد ضباط القوات المرتزقة ، وهـو كردى ، بعـد مجيء فيصل الى العـراق مباشرة ، بالجلد ، لاساءة عسكرية اقترفها ، الى ان مات •

وما ان وصل النبأ الى مسامع المس بل ، حتى تولت معالجة الامر ، وبفضلها تقرر بعد ذلك ان تنظـر المحكمـة العسكرية في مثـل تلك الامـــور •

ومن ناحية اخرى كان الجلد مايزال معمولا به ، بمثابة عقـاب

مصادق عليـه ، وذلـك لدى القوات التى تخضع لوزارة المستعمرات • وقد ظهر ان رجال القوات المرتزقة في العراق ، كانوا يفضلون هـــذه العقوبة على فقدانهم مرتباتهم ، نظرا لتأثير ذلك على عوائلهم ، او يفضلونها على الحبس الذى يعتبرونه مخجلا وشديد الوطأة عليهـم في الغـالب • وكانت الترتيبات المتبعة للطرد من الخدمـة ، سارية على مثل ماكانت عليه ، دون شـك ، في الوحدات الخاضعـة لاشراف وزارة المستعمرات فحيثما توفرت عملية الطرد فلا بد من تطبيقها •

وكان رؤساء العرفاء العرب في القوات المرتزقة العراقية ، الذين يستعرضون تلك القوات ، وكذلك التابعون للمعسـكر ، يطلبون الاذن بذلك من الضابط البريطانى ، اثناء فرض عقوبة الجلد • فحين تفرض تلك العقوبة على الرجل ، ينحني الى امام ويقبل يد ضابطه دلالة على طاعته ، وزوال روحية الانتقام لديه • وقد يحاول ان يفعل ذات الشيء مع رئيس العرفاء ، الذى جعله تواضعه في رتبـة ادنى ، فيسحب هـذا يده ويلوح بها امام الضابط اشارة له ببدء العقوبة !

لقد امضى أحد العقداء العرب في قوات المرتزقة التى كانت موجودة في بغداد ، والتى كانت تبعث بوحداتها الى مختلف أنحاء القطر ، خدمة طويلة لدى وزارة المستعمرات البريطانية • كان ذلك الرجل طويـل القامة ، ضخم الجثة ، يبلغ طوله ستة اقدام واربع بوصات ، وله شاربان اسودان متدليان ، اشبه بشاربى الملك «ادورد» وكان يأكل بنهم شديد ، وربما كان ذلك لازما لتقوية جسمه الضخم • ويضع على رأسه قبعـة ذات حواف مذهبة ، حتى وان كان يرتدى ملابس الخـاكى • وينتعل حذاءين صقيلين في دهانهما الى درجة انهما يعكسان الاشياء مثل المرآة •

وكانت لمقرات ضباط قوات المرتزقة في المعسكر ، غرف أشبه بالاكواخ ، مبنية من الطين والقش ، ومزودة بنوافذ لها قضبان مشبكة من سعف النخيل والعاقول ، ولا تسمح الا بنور اخضر ضئيل . وفي كل ساعة او مايقاربها حين تشتد الحرارة التى تنطلق في منتصف النهار، يجرى ترطيب تلك الشبكات بالماء ، لتأمين البرودة داخل الغرف ،وتوفير الاستنشاق المنعش .

ولا يعمد العقيد الى التحدث كثيرا خلال وجبات الطعام وانما يعطي الاوامر الى الفراشين من العرب وهم يحيطون به حفاة الاقدام . وقد يضطر في بعض الاحيان ان يوجه التعزير الى الصبيان الذين يحركون اوتار «المروحة» من خارج جدران الغرفة ، والذين يغلبهم النعاس بين الفينة والفينة نتيجة حرارة الجو ، ولذلك فلا بد من توجيه اللطمات اليهم بتجديد انتباههم ، وتهديدهم بالغضب البادي من العقيد . وبكل مالدى اولئك الشبان العرب من ثقة ذاتية ، نراهم يردون على تذكيره اياهم عن طريق الفتحة التى يمر حبل المروحة خلالها ، قائلين «ليبردك الله ياصاحب !» ، او بعض العبارات الساخرة الاخرى .

وفي الغرفة الكبيرة يظهر العقيد بمظهر الشخصية الآمرة بصفة خاصة . فتراه على الدوام شامخ الرأس منتصبا ، يندر ان يتكلم الا عندما يعلن العقوبة أو يذيع طرد الشخص المسيء .

وتشمل نصائح العقيد بوجوب توفير ادوات الطبخ والنساء بشكل وثيق في مؤخرة القوات المحلية العاملة . فكثيرا مانراه يكرر القول بأن « هؤلاء لا يحاربون الا لكى يحافظوا على أدوات الطبخ لديهم ، وعلى نسائهم ! » .

ومن اقواله الاخرى ان العرب يسعون دوما الى مخالفة البريطاني في الرأى ، وان على المرء أن يعتمد على حراسة شخص آخر ضد ذلك الامر • فهم يبدأون برفق ، وبدسائس حذرة ، لا يتجاوزونها في البداية• فاذا ماسمح المرء بذلك ، يصبحون اكثر عزما ، ويلجأون الى انتحال البراهين المدهشة ، املا منهم في ادخال المسرة • ويقول العقيد ان تلك خاصية قديمة العهد ، وانها كانت في الواقع واحدة من الخصائص الظاهرة مؤخرا ، والقابلة للتطبيق على أساس اوسع • فقد يهمس الساسة العرب لنا بشيء ما عن الفرنسيين في سوريا ، كما يهمسون بشيء ما عنا للفرنسيين انفسهم •

وما يزال الامريكيون في النهاية ينصتون الى حكايات عن البريطانيين ، مما اخشى أنا تصديقه •

عندما تم تحويل العرب في قوات المرتزقة الى الجيش العراقي ، وعين لهذه القوات عقيد بريطاني جديد ، هو الفريق «السر جون افتز»، تم تعيين آمر عربي لهم ايضا من الجيش العراقي هو «شاكر الوادي» ، الذى أصبح احد المرافقين للملك فيصل • ولقد رد علي ذات مرة بجواب جعل من طريقة حياته ومن مسلكه امرا غير متوقع بشكل ملموس • كان شاكر الوادى يتباهى بأنه من الذين التحقوا بكلية الاركان في «كمبرلي» ، وله عدد من الاصدقاء في الخدمة البريطانية • ولقد أصبح وزير العراق المفوض في لندن ، ووزيرا للدفاع في بغداد ، وحين توفى في المستشفى بلندن سنة ١٩٥٧ كان يشغل آنذاك منصب سفير العراق في تركيا •

كان شاكر الوادى ، صاحب ضيافة جيدة ، ويفخر بمعرفته للاماكن

التى كان يتناول فيها عشاءه في لندن ، وكيف يختار المشروبات الفاخرة . وبعبارة موجزة كان يحيا حياة غريبة ، ولم أسمع عنه بأنه كان يؤدي الصلاة ، ويؤم المساجد بانتظام(٥) . ومع ذلك فقد رد بشدة على القنصل البريطانى في «الاحواز» ، والذى اتهمه رئيس الوزارة الايرانية ،حسبما ذكرت احدى الصحف ، بأنه كان يحرض السكان على التمرد .

فحين سئل شاكر الوادى « هل تعلم بأن القنصل رجل هادىء وان هوايته المفضلة هى علم النبات والحشرات ، وانه ليس هناك من شائنة اكثر من التهمة التى وجهت اليه ؟ » كان جواب شاكر الوادى « اننى أمقت ذلك الرجل ، وان كلماته بذاتها تعبر عن حدته . فلقد نطق بتلك الكلمات للملك فيصل الاول وجها لوجه . لقد قال ان هناك كتابا جديدا ومهما ، يعرض قائمة تحتوي على مائتى كلمة اجنبية في القران ! » .

والحقيقة ان فيصل ومرافقه شاكر الوادى قد غضب سوية لتلك الاشارة التى بدرت من القنصل البريطانى .

× × ×

كانت الوسيلة التى طبقت بها الدمقراطية في العراق ايام حكم فيصل

---

(٥) ذكر المؤلف في الحاشية يقول « كان فيصل ، على خلاف سلطان تركيا ومراكش ، ورغم انه متحدر من نسل الرسول في العالم الاسلامى ، لا يذهب في موكب احتفالى الى المسجد لاداء الصلاة فيه يوم الجمعة . وكذلك لم يتظاهر لا ولده ولا حفيده بتدينهما . ولو انه لايوجد سبب للتساؤل عن الدين الذى يؤمنان به » . كان آخر منصب شغله شاكر الوادى هو وزارة الشؤون الاجتماعية في وزارة السعيد الثانية ، ثم مرض مرض الموت بعد ذلك .

الأول ، تمثل النظر بعين واحدة الى الذين يتوقعون ـ بانين حكمهم في ذلك على الصيغة المكتوبة ـ ان يتم تطبيق النظام البرلماني في العراق حسبما هو مطبق في انكلترا • والواقع ان الامر لم يكن على مثل هذه الشاكلة• فلم يكن هنالك من الرجال الاكفاء المجربين لتطبيق هـذا النظام الذي كانوا يودون تطبيقه أو تفهمـه • ففي الوقت الذي كانت تجري فيـه الانتخابات ، تتوقف الاعمال الحكومية الاخرى ، لان الموظفين الاداريين يكونون منشغلين في ادارة الانتخابات ، ولان احكام المحاكم فاسـدة في الغالب ، ولان الحكام لا يتنـاولون مرتبات عالية بشـكل واف ، وكان يصعب وجود اكثر من ستة اعضاء حقيقيين في الوزارة في القطر كله(٦) • والواقع ان النظام لم يكن دمقراطيـا ، وانما كان نظاما اوليغارشيا وعلى رأسه الملك(٧) •

اصبح الشيء المعروف ، هو ان فيصل قد غدا متعبا ، وانه شـرع يقوم بزيارات الى انكلترا عبر بلاد سويسرا وجنوبي شـرقي فرنسـا • فلقد زار انكلترا في شهر ايلول سنة ١٩٢٥ ، ثم زارها مرة ثانيـة في منتصف صيف سنة ١٩٢٦ ، ومن ثم في خريف سنة ١٩٢٧ ، وفي هذه المرة لم يكن متعبا حسب ، بل كان يشعر بأنه مريض منذ شهور عديدة،

---

(٦) حاشية المؤلف من كتاب «ارنست مين : العراق من الانتداب الى الاستقلال» ص١٦٦ وما بعدها
ERNEST MAIN: IRAQ FROM MANDATE TO INDIPENDECE p.p. 166

(٧) يقصد بالاوليغارشية ، الحكومة التي تسيطر عليها فئـة صغيرة تركز كل اهتمامها في استغلال الحكم لمصلحتها وتحقيق منافعهـا الذاتيـــة •

وقد صمم على أن يقوم برحلة اخرى الى انكلترا ، صحبه فيهـا الدكتور «هاري سندرسن»[8] • كان نحيفـا جدا ، واخذ وزنـه يهبط بسرعة ، ولذلك ظن المندوب السامى بأنه ميت دون شك بمرض لايمكن علاجه•

لقد اخفقت كل أنواع الفحوص الاعتيادية في الكشف عن طبيعة مرضه • وبعد اجراء فحوص تمهيدية لدى وصوله الى لندن ، لـم يتم تشخيص أى عيب فيه • وحين جرى فحصه مرة اخرى على يد الدكتور «كلفورد دوبل» وجد بأنـه مصاب بالزحار الاميبى الحاد • وفي هـذه النقطة وحدها ، وحين تلقى سندرسن ايضاحات الدكتور « دويل » ، قال له فيصل « اخبرنى هل انا في طريقى الى الموت ؟ • هناك الشيء الكثير الذى اود ان أعمله لبلدي ! » • وقد استطاع سندرسن ان يرد عليه بقوله « انك الآن سائر الى التحسن من هذه اللحظة وما بعدها • ولسوف ازرقك بزرقة تكون بداية لعلاجك » • لقد ابدى فيصل تلك الملاحظة تحت تأثير ، ان يبرهن الخوف من الموت على مدى وطنيته اذا ما احتيج الى مثل ذلك البرهان •

كان فيصل يرتدى الملابس الاوربية على الدوام ، لكنه مايزال مع ذلك يلبس «السدارة» لباس الرأس العراقى الوطنى ، الى ان وجدها وقد أصبحت ظاهرة غريبة في لندن ، ولذلك شرع يستعمل بدلا منهـا قبعة مفرطحة ، ماعدا في المناسبات الرسمية • وحين كان يجتـاز منطقة ملعب كرة القدم في «جلسي» التفت الى سندرسن ، في وقت انطلق فيه حشد واسع عاصف ، وقال متسائـلا «اهم من البولشفيك ؟» • وقـد

---

(٨) مذكرات سندرسن ط٢ ص٩٩ وما بعدها •

اوضح له سندرسن جلية الامر ، وانبأه بأنه سوف يرتب له زيارة اخرى في المسيرة القادمة • وذهب فيصل الى هناك فعلا وفي الوقت المحدد حيث استمتع بما شاهده ، وبما عومل به •

اما في الزيارة التى قام بها لاداء الصلاة في «ومبلي» ، وهو يرتدي قبعته المفرطحة ، فقد بدا عليه الاضطراب ، عندما صورته الصحافة في قبعة لا حافة لها ، والتى لا تستطيع بهـا جبهته ان تمس الارض عنـد الركوع حسب الاسلوب المطبق في الصلاة لدى المسلمين •

ولقد لحق سندرسن بذلك المصور ، وعرض عليه صورة يرتدي فيها فيصل السدارة ، على شرط ان تعاد لوحات الصور الاخرى ، وعلى هذا الاساس تم الاتفاق بين فيصل وذلك المصور • ولكن في تلك الليلة صدرت احدى صحف المساء وهى تحمـل عنوان مقالـة « الملك فيصل يسيء الى القبعة ! » •

وفي الوقت الذى كان فيه فيصل موجودا في لندن ، تمت المصادقة على معاهدة ثانية وقعت في بغداد في اليوم الثالث من شهر كانون الثانى سنة ١٩٢٦ • وهناك معاهدة ثالثة سبقت استقلال العـراق ، تم التوقيع عليها في الثلاثين من شهر حزيران سنة ١٩٣٠ ، وقد بدا «للوايتهول» ، أى الحكومة البريطانية ، ان المظهر الرئيس للعلاقات مع العراق يعتبر شرطا دائما لقيام التفاوض بشأن المعاهدات ، مع كل مايصحب ذلك من متاعب في بغداد •

لم يكن من المستغرب ان اخذ فيصل يشعر بالتعب ، ليس لوجود سياسات عراقية حسب ، بل ولوجود سياسات عربية دولية ايضا ، ينبغى له ان ينهض بها •

فهناك زوار متواصلون للقصر ولبغداد من رجال العشائر ، ومن ابناء المدن ، ولرجال من خارج حدود بلاده ، من الجزيرة العربية ، يتمنون ان يكسبوا عطف فيصل عليهم بما يروون لـه من قصص عن تدمرهم من حكم ابن السعود •

وكان فيصل قد ائتمن على جدول مرتباته واحدا من امراء «حائل» عاصمة قبيلة «شمر» من المنافسين لابن السعود ، والذى نشر في احدى المرات رايته الخضراء ، واندفع في طريقـه الى داخل حدود الجزيرة العربية • حتى اذا لم يظفر بأية مساندة ، عاد الى مسكنه في بغداد ، والى وظيفته في جدول المرتبات • وحين سألت ذلـك الامير ، بعد مضـي وقت متأخر ، عن مصير تلك الراية ، اجابنى بأنه قد حولها منذ ذلـك الوقت الى ملابس لنسائه !•

ومن سوريا ايضا كانت تروى حكايات ضد الفرنسيين ، وعـن تشوق السوريين الى قيام مملكة موحدة لكل من سـوريا والعراق تحت تاج فيصل • ولقد غدت هذه الفكرة في وقت من الاوقات مسألة حيوية تماما ، على الرغم من الحقيقة الواقعـة والتى تبين بأن السوريين كانوا اكثر تقدما من العراقيين ، في الوقت الذى كان فيه العراق أكثر غنى من سوريا ، وهى الخاصية الوحيدة التى كانت تثير المصاعب بين السوريين والعراقيين بالنسبة الى قضية الوحدة •

× × ×

ادت السياسات العراقيـة الى انتحار احد رؤساء الوزارات ، هـو السر عبدالمحسن السعدون الذى قتل نفسه في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٩ ، عندما اتعبتـه المحـاولات لارضاء الملـك ، والبريطانيين ، والاحزاب السياسية العراقيـة ، ونتيجة للضغط القومى

الصارم ، والاحساس بأن العراقيين لم يكونوا ممتنين من جهود المخلصين نيابة عنهم •

وقبل أشهر قلائل من انتحار السعدون ، توفى ثالث مندوب سام بريطانى هو السر جلبرت كلايتون ، على حين غرة في الحادى عشر من شهر ايلول من تلك السنة ، وكان كل من السعدون وكلايتون يسعيان الى التفـاهم مع القوميين بالعقـل كأمر تمهيدى للاستقلال ، ولغرض امرار المعاهدة •

لقد تضايق القوميون في البرلمان ، وراحوا يتعجبون من وقت لآخر، مما اذا كانت السياسة البريطانية تنطوي على الحكمـة • وكان الضباط البريطانيون القدامى يناقشون تلك السياسة في بعض الاحيـان على موائد الطعام • ومع ان البعض من هؤلاء الضباط كانت لهم مساكنهم مع المدنيين الآخرين في الاحياء الجـديدة خارج المدينـة ، الا ان معظمهـم كانوا يسكنون في قلب بغداد ، وعلى مقربة من مراكز عملهم في القلعة •

وفي الليالي التى يكون فيها ضوء القمر ساطعا ، يغدو الوصول الى مساكنهم من دون مشقة كبيرة • اما في الاوقات الاخرى فقد كان من المعتاد ارسال شخص يحمل مصباحا في الازقة الضيقة ، لانها تكون مظلمة، وان من المستحسن حمل السلاح ، ولو اننى لم اسمع بأن احدا منهم قد استعمل سلاحه ، وربما كان سبب ذلك هو معرفة الغير بأن البريطانيين كانوا يحملون السلاح دائما •

كان العقيد «ايدي» من البعثة العسكرية البريطانية ، هو الذى يقوم بدعوتنا • وكان يصطحب معه عادة ، القنصل الامريكى العام ، وهو اول امريكى جرى تعيينه في العراق • وكان ذلك القنصل من لاعبي «البوكر»

الحاذقين ، وقد تولى مناصب سابقة في امريكا الوسطى والجنوبية • وفي بعض الاحيان كان نورى السعيد ، ومسدساه ظاهران من تحت ملابسه ، يحضر امثال هذه الدعوات ، يحرسه بعض الجند الاشداء •

كان طباخ العقيد «ايدي» يعتبر من اجود الطهاة لاكلة البهارات في القطر • وكانت هذه الاكلات حادة الى درجة تقدم فيها للمدعوين المناشف والفوط الصغيرة لاستعمالها اثناء الاكل • وكان أثاث البيت ، وهو النوع الوحيد الذى تم الحصول عليه بصفة هيّنة من الهند ، قد زين بحفرات متقنة جدا في نوع من الخشب الاسود •

ونظرا لثقله ، وتأثير الجو عليـه ، فقد اصيب بالتشقق ، وتراكم الغبار في زوايا النقوش المحفورة فيه •

كان العقيد «ايدي» يتحدث بحوالى ثلاث عشرة لغة ، من بينها اللغة «الامهرية» واللغة الارمنية • وكان هو وآخرون معه من ضباط البعثـة العسكرية البريطانية يعملون منذ طلوع الفجر في كل يوم لتشكيل الجيش العراقى ، الذى اصبح «ايدي» اول مستشار رئيس فيـه • ولم تكن قد تحققت لذلك الجيش آنذاك ، حتى مفردات اللغة التى يستعملها • وكان جعفر العسكرى اول مـن بدأ باستعمال دفتر كبير ، اشبه بالكتاب ، في وزارة الدفاع ، دونت فيه الكلمات العربية التى ثبت بأنها كانت مطابقـة للتعابير العسكرية الانكليزية •

واذ ظهر بأنه من غير المستحب طبـع ذلـك الدفتر لعـدة سنوات مضت ، فقد قمت انا بطبع قائمة مختصرة للاستعمال اليومي في « مطبعـة الهلال » • ولقد بدت حتى كلمات القيادة وكأنها مخترعة ، وغريبة ، وغير قابلة للاستعمال في اول الامر !•

كان بعض الرجال من امثال العقيد «ايدي» يتذكرون الخوف الدائم المستولى على حكومة الهند من تقدم القوات الروسية القيصرية ، ولو ان روسيا كانت في الواقع كلما احتلت القسم الشمالى من ايران ، تنسحب عنه فيما بعد • وكانت الدوائر الخارجية والسياسية لحكومة الهند ما تفتأ تزود الممثلين البريطانيين في ايران بالدعم،وقد تم تجنيد البعض من هؤلاء الممثلين من بين أفراد الجيش • وحتى في تركيا ، وفي المناطق المجاورة لها ، كان القناصل البريطانيون الموجودون هناك قبل الحرب العالمية الاولى ، من رجال الجيش ايضا ، وقد اضيفوا الى القناصل المدنيين في قسم خدمة الشرق ، في وزارة الخارجية البريطانية • وهكذا قد توفرت لعدد من اولئك القناصل ، وضباط الجيش ، معرفة جيدة ونادرة بلغات بلدان الشرق الادنى كما كان يطلق عليه ذلك فيما بعد •

ولكن اولئك القناصل والضباط ، كانوا في مناقشاتهم ، وحتى اذا مافضل البعض منهم تطبيق النظام الجمهورى في العراق ، وفضل آخرون غيرهم النظام الملكي واقامة مجلس للوزراء ، ومن دون صيغ دمقراطية حديثة للنظام البرلمانى ، حتى في هذا النطاق ، كان الجميع يتفقون تقريبا على انه لايمكن عمل شيء آخر افضل مما قد تم عمله •

× × ×

ما ان دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى ، الى جانب الالمان حتى أصبح مؤكدا ، بأن الولايات العربية سوف تنفصل عنها ، وان الحلفاء ـ وعلى الاخص بريطانيا وحكومة الهند ـ ستكونان ملزمتين باظهار مساندتهما لتلك الولايات • كان الشيء الذي اثار دهشة الانكليز هو وجود استعداد حديث لدى الشعوب الشرقية ، لايمكن بقدر من المهارة في معالجته ، ان يتم التغلب عليه •

لقد كانوا في الغالب يعزون ذلك الاستعداد الى الضعف الذى نشأ بين الحلفاء بعد الحرب ، بالاضافة الى اعلان الرئيس السابق «ولسون» القائل بتطبيق حق تقرير المصير المباشر • ولكن اذا ماعدنا بالنظر الى تلك الايام ، نجد في الحقيقة ان ذلك كان نتيجة التأثير الذى احدثه الغرب في العالم العربي ، بعد تلك الحقبة الطويلة من الزمن ، والتى لم يقع خلالها اى تغيير ، ذلك التأثير الذى جاء بشكل مفاجىء جدا ، فأبعد الشعوب الناطقة باللغة العربية عن اتزانها •

كان العرب يعتقدون بأن الامبراطوريات تنهض وتسقط ، وان لديهم كل سبب يدعو الى الاعتقاد بأن البريطانيين والغرب قد شرعوا بالجلاء• غير ان العرب قد اخفقوا في ان يروا أيامالافراد والامبراطوريات وقد انتهت ، وان شكلا جديدا من الضغط الاقتصادى والاجتماعى والايديولوجى ، وفوق كل شيء ، الضغط العالمى قد اخذ يحل محل ذلك ، وانه لا مجال للتهرب منه ابدا •

فاذا كان التيار البريطانى شديدا حقا ، فان التيار الغربى المضاد له أشد وأقوى • واذ بقي العرب بعيدين عن الجزيرة المتصورة لاستقلالهم المنشود ، وظلت قلوبهم تخفق بشدة نحو ذلك الاستقلال حسب قدرتهم، فقد ظلوا يدورون حول تلك الجزيرة بسرعة • غير ان اعصارا آخر قد تلقفهم ، هو الاعصار الروسى ، ولكن الحالة لم يتم بلوغها بعد ، وهكذا لم يكن عملنا الشاق ، وتطبيقنا المتعب ، والجو المضني الذى يحيط بنا ، نحن الانكليز ، يدعنا نميل الى الخوض في المناقشات الليلية الطويلة •

× × ×

كان «عبدالله المشير» احد اتباع فيصل من الحجاز (والذى توفى في

سنة ١٩٦٠ ، بعد ان بلغ حوالى مائة سنة وسنة ، ولم يكـن قد سمع بثورة ١٩٥٨) قد عين رئيسا اضافي للتشريفات[٩] ، وذلك لمعالجة سيل الزوار من البدو الذين يفدون بلا انقطاع على بلاط فيصل • كان عبدالله هـذا يتحدث الي عن الجزيرة العربية وعن مكـة ، ويثير لدي الغرام بالمعرفة الخفية ، وذلك بما كان يرويـه لي من حكايات عن القبائل ، والانحـاء النائيـة مـن الجزيرة العربيـة ، التى يحظر على الاوربيين الدنو منها •

ولقد سألني في احد الايام ، وانا اوشك ان اغادر بغداد الى الاردن ومصر ، عما اذا كان من المستحسن ان اصطحب معي الى الطائرة هدية طفيفة الى شقيق فيصل ، الامير عبدالله في عمان • ولقد قبلت بذلك على افتراض بأن تلك الهدية لن تكون اكثر من قنينة او قنينتين من ماء الورد، أو ربما بعض العطور من شجر الصندل • غير ان تلك الهدية كانت في الواقع مؤلفة من اربع رزم كبيرة لفت بالقماش ، وخيطت بعناية • وكما اوضحت الرسالة التى بعث بها عبدالله المشير ، فقد كانت تلك الهديـة عبارة عن عباءات مصنوعة من الوبر ، وقد صنعت في العراق ، ولا يمكن الحصول عليها في الاردن •

وافق ملاح طائرة القوة الجوية البريطانية فيما بعد ، على ان وزن تلك الرزم ليس كثيرا بالنسبة الى ماتحمله طائرته ، التى امضت النهـار كله عبر الصحراء ، ومن ثم هبطت اخيرا ، وهى من طراز «فكرز فكتوريا» القاصفة ، على قطعة ارض صغيرة غير مستوية في عمان • كان الملاح يعتزم ان يغادر الى مصر في الساعة العاشرة تماما من صباح اليوم التالى •

---

(٩) يقصد به « عبدالله المضايفي » •

ذهبت الى القصر مبكرا جدا في صباح اليوم التالى ، احمل معى تلك الرزم . ومع ان القصر كان مفتح الابواب في مثل تلك الساعة ، الا انه كان خاليا من الناس تقريبا . مر احد الغلمان عن بعد ولم يعد، لكنه دلني على باب غرفة الاستقبال ، التى سرعان ماظهر فيها أحد السعاة اليافعين اللطيفين . انحنى ذلك الساعي الى امام باحترام وهو يقول ان «سموه لن يتأخر عن المجيء طويلا . كيف هى الاوضاع في العراق؟». لقد اظهرت اسئلته تلك مدى المامه بالشؤون السياسية . وليس من شك في انه قد الم بذلك ، نظرا للدور الذى يقوم به في القصر .

ومع انني كنت شديد الحذر ، الا انه استطاع ان يلتقط من اجوبتي مواد لطرح المزيد من الاسئلة . ذلك ان العرب دبلوماسيون طبيعيون . واذا ما اعطي لهم مركز في القصر فانهم يستطيعون ان يقتنصوا من الزائر ، وبصورة مؤدبة ، مالديه من اخبار عن بعد ، غير ان الزمن كان يمر . لقد املت ، من دون ان يلحظ ذلك مني ، ان اختلس النظر الى ساعتى . لقد استحوذ ادبه الجم علي ، فلم ارغب ان اسيء الى ذلك الشاب بايماءة فجة كأن انظر الى ساعتى في الوقت الذى كنت اتحدث فيه اليه .

ولربما احس بذلك ، لانه عاد فأكد لي بأن « سموه لن يتأخر كثيرا عن الآن في الواقع » .ومن ثم واصل الحديث عن بعض الموضوعات الحادة التى كانت تعرض تعليقات اوردها عبدالله عن القضايا السياسية العالية . ولكن الوقت اصبح الآن هو الوقت الذى يجب ان اغادر القصر فيه ، ولذلك قلت له بعزم « يجب ان اذهب » ، وعندئذ نظر الي مضطربا ، وراح يردد « ان سموه قادم في هذه الدقيقة تماما؛ انه شديد الانتظام في عاداته . فقبل نصف ساعة مضت قمت بتقريم لحيته

وتسويتها بعض الشيء كما تعلم . ومنذ اللحظة التى اكملت فيها ذلك، سيمضى سموه نصف ساعة على وجه الدقة ، قبل الظهور ! ولذلك فانني اؤكد لك هذا » .

في هذه اللحظة فتح باب الغرفة من قبل حارسين شركسيين تقدما امامنا واعلنا قائلين «سموه !» واذ ذاك نهضت انا وحلاق الامير ، فانحنينا. وحين كان الامير يتحدث الي ، اعجبت كثيرا بتكوينه الجسمانى ، وبطراوته المتوردة ، وتقريم لحيته ولونها . ومع هذا فقد كان علي ان اقصر مكوثي ، حيث تجرأت ووصلت الى المطار في الوقت المحدد تماما. كانت مراوح الطائرة تدور ، وكان الملاح متهيئا للاقلاع . ولذلك قال لي متضايقا « لقد تحسبت المزيد من قضاياك السياسية العالية ! » .

كان عبدالله يقوم بين الحين والحين بزيارات الى العراق . وقد استطعت ان اراه أكثر من زيارتى الاولى تلك له في عمان . كان لديه احساس صبيانى بالمرح . وكان دافئا في معاملته مع الاجانب ، وسرعان مايحظى باعجابهم به ، نظرا للطفه وحيويته . وعلى خلاف فيصل ، كان عبدالله مايزال يحافظ على عاداته الشرقية الاصيلة ، وملبسه العربى ، الا في مناسبات نادرة جدا ، وكان مسلكه اكثر بساطة وتحديدا من مسلك فيصل .

× × ×

في شهر نيسان سنة ١٩٣٤ وجدت نفسي اترجم للامير عبدالله حديثه مع رئيس اركان القوة الجوية في انكلترا ، والذى تطرق اثناء تناول الشاى الى سباق الخيل . ومما قاله في هذه المناسبة ، ان الآلة الحاسبة في ميدان « اسكوت » تعادل في حجمها ضعف مساحة واجهة هذا القصر والتى كنا نجلس امامها .

وكنت قد سألت الملك غازي عن هذه الآلة الحاسبة ، فقال عنها بأنها « ماكنة للرهان ، وهي غير معقدة ، واستطيع ان اديرها بنفسي ! » . تركت عند الترجمة ذلك الجزء الذي يخص القصر في كلام رئيس اركان القوة الجوية ، وقلت عن الآلة بأنها كبيرة . غير ان عبدالله كان قد فهم سبب ارتباكي . وفي النهاية عندما رحنا ندور حول القصر ، امسك بذراعي وقال « بعض الناس من امثالك يترجمون افضل من الاصل ! » .

في سنة ١٩٤١ قدم عبدالله الى العراق لزيارة عبدالاله ، الذي كان قد مر بالاردن في طريق عودته الى بغداد بمساندة الجيش البريطاني . وقد انتحى بي عبدالله في تلك الزيارة جانبا ، وادلى الي بحديث قصير مفخم ، قال فيه بأنه يعتمد علينا في اعادة الحكم بأسرع وقت ، وفي اقصى نطاق . وحين كنت في وقت متأخر اقوم بوضع كتاب عن «حكام مكة» قمت بزيارة عبدالله الذي اصبح فيما بعد ملكا ، وتحدثت اليه ، وبحثت معه امر ذلك الكتاب ، والمادة المطلوبة لكتابته .

هناك عدد من الموضوعات العزبية في تأريخ مكة . وليس من شك في ان العائلة كانت تحكم هناك قبل عصر الرسول «محمد» (ص) ومنذ حوالى سنة ٤٨٠ ميلادية(١٠) . وفي الوقت الذي كنا نتحدث فيه ، قبل تناول طعام الغداء ، عن تأريخ مكة ، تحدث عبدالله عن عصا غريبة ، او صولجان جلب اليه من المدينة المنورة . كان ذلك الصولجان مدفونا في جدار المسجد الكبير ، وقد تم العثور عليه أثناء اعمال الترميم في المسجد .

(١٠) لا بد وان المؤلف يشير بذلك الى قبيلة قريش التى ينحدر الرسول محمد (ص) منها ، وتنتسب اليها اسرة الاشراف في مكة ايضا . وقد اصدر دى غورى كتابه هذا في سنة ١٩٥١ .

وكان احد اصدقاء الهاشميين قد ظفر به ، وجلبه الى عبدالله مع وثيقة قصيرة عثر عليها معه وهى تذكر اسم الامير الذى يعود اليه ذلك الصولجان والوقت الذى اختفى فيه • ولذلك قال لي عبدالله بأنه سوف يريني الصولجان والوثيقة معا بعد ان ننتهى من تناول الطعام •

كان عبدالله يرتدى اللباس العربى ، ويعتمر بعمامة صغيرة مطرزة بالذهب من الوسط ، مما اعتاد اشراف مكة ارتداءها • وكان يتعطر بعطر قوي الرائحة • ونظرا لاحتفاظه بهذه العادات هو واخوه «علي» ، فقد كان فيصل ينتقدهما صراحة على ذلك، ويعتبرهما من ذوي النظرة الرجعية •

لم يجلس معنا على مائدة الطعام سوى افراد حاشيته وواحد من وزرائه • والعرب لايتكلمون فيما بينهم كثيرا اثناء تناول الطعام ، بل قد لايتكلمون قط ، الا بعد ان بوشر باختيار العادات الغربية • فهم يعتمدون على المؤالفة اعتمادا كبيرا بالنسبة الى الاسئلة التى يتم طرحها ، وتتويج مثل تلك الاسئلة بأمثلة من الشعر ، ومحاكاة الاجانب في المعرفة ، وصبرهم طالما كانت اللغة معروفة جيدا لديهم • وهكذا كانت احاديثنا تجري على مثل هذا الطراز القديم •

دعاني عبدالله بعد الغداء ، ان اصعد معه الى جناحه الخاص الذى تمت زخرفته حديثا ، واقيم على جانب مرتفع فوق القصر • وقال ان في مستطاعه ان يأتي الى هذا الجناح للراحة ، وللاستمتاع بتناول القهوة كان ذلك الجناح بهيجا يتألف من مبنى صغير مصبوغ بالدهان الابيض حسب الطراز الشرقى ، ولو ان الزخارف الداخلية فيه قد تخللتها لمسات مبهرجة ، من امثال الارائك والمقاعد ذات اللون الزمردي ، والتى ثبتت فيها اوراد اصطناعية قرمزية اللون ، الامر الذى يدع المرء يخشى ان يتكىء عليها فيحطمها •

وقفنا أنا ورئيس التشريفـات نتحدث باسترخاء ، الى ان قطعت علينا الحديث اصوات اطلاقات نارية سريعة ، واذ ذاك قال رئيس التشريفات « ان جلالته جالس لوحده كما اظن ! » • ترى اكان عبدالله يريد الانتحار بهدوء ؟

وسرعان ماحضر احد الجنود ، ودخل علينا بخطوات متئدة وهو يقول « ان جلالته يجرب احد المسدسات الجديدة التي زود بها رجال حرسه ، ضد العصافير ! انه يحسن اطلاق النار على الدوام بصورة جيدة جدا ، وقد قتل عددا من تلك العصافير ! » •

اقبل علينا عبدالله الذي ربما كان يفـاخر بدقتـه في التصويب ، باسما ومبتهجا ، وشرع في الحال يتحدث عن الكتاب ، والمادة التي يجب توفيرها له ، وما لبث بعد برهة ان تذكر وعده باطلاعي على ماتم العثور عليه في المدينة المنورة ، ولذلك دعا احد حراسه واخبره بأن يجلب اليه امين سره الذي يقرأ القرآن له • مرت بعد ذلك جولـة طويلـة بعث خلالها جنديا آخر في اعقاب الجندي الاول ، وفي النهاية وصل شاب بدوي ملتح جميل وكان مزاجه سيئا جدا ، وأتجرأ على ان اقول بأنه قد اوقظ من قيلولته التي يستمتع بها بعد الظهر الساخن ، أو من بعض الاشغال الخاصة • وقف الشاب عند رواق الباب ، حيث اعطاه عبدالله الاوامر بالبحث عن الصولجان والوثيقة وجلبهما ، ومن ثم استدار ذلك الشاب خارجا بهدوء ومن دون ان ينطق بكلمات الطاعة المألوفة •

واصلنا حديثنا ، والى ان غدت الحرارة بعد الظهر رهيبة طلبت السماح لي النطق بكلمـة الوداع • تم ارسـال رسـول آخـر لجلب الصولجان • ونظرا لانه لـم يعد ، ولـم يبق امام انظارنا المزيد مـن

الرسل ، اعلن عبدالله عن اعتقاده بأننا لن نتسلم الصولجان ، وقد ذكر ذلك بمسحة من الحزن ، ثم انبأني ــ وقد اصبح اكثر رواء ــ بأن اقدم غدا الى القصر صباحا وهو يقول « انني سأحتفظ به آنذاك واستطيع ان اعثر بنفسي عليه » •

ذهبت في صباح اليوم التالي الى القصر ، وقد اخذت معي الى هناك عالم الآثار البريطانى «جرالد كنغ» الذى كان يحمل معه جهاز تصويره• كان الصولجان مصنوعا من خشب كالح اللون تزينه حوافي صغيرة على امتداده ، وحفر فيه اخدود اشبه بأوراق النبات ، وقد ظهرت في الاخدود بعض الثقوب الصغيرة ، ربما كانت فيها بعض الاغطية المعدنية لمجوهرات أو حلقات • اما الوثيقة فان كل مظهر فيها يدلل على اصالة تأريخها القديم جدا • غير ان البيانات الواردة فيها والالقاب المستعملة ، لا تتناسب مع الحقائق المعروفة من السجلات الباقية لتاريخ مكة • فلسنا نستطيع ان نعرف حقيقة ذلك الصولجان الا اذا اعتقدنا بأنه هو صولجان الرسول «محمد» (ص) الذى فقد منذ زمن بعيد •

كانت قوة الملاحظة لدى عبدالله دقيقة بشكل ملموس جدا وقد اظهر واحدا من الامثلة الكثيرة على ذلك اثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما قام بزيارة الكتيبة الثالثة (الآلية) في الجيش العربى • فحين طلب اليه الضباط البريطانيون ان يدلل على دقة تهديفه ، وافق على ان توضع بعض الصفائح خارج الاهداف ، وطلب الى اثنين من عبيده ان يقفا الى جانب تلك الصفائح لغرض التأشير • وقف العبدان على بعد حوالى عشر ياردات عن الهدف واذ ذاك لوّح لهما عبدالله بأن يقتربا • كانت الطلقات الاولى خارج الهدف ، مما جعل العبدين يشيران اليها في الوقت المحدد • ومن ثم عاود الاطلاق وهو واقف هذه المرة وقد امسك

بالبندقية من مخزن عتادها ، وجعل كتفه ازاء عمود الخيمة ، حتى اذا ما لوح العبدان بالاشارة وقعت رصاصات عبدالله في الهدف لحسن الحظ .

وكان عبدالله في الوقت ذاته يحسن التقليد ، ومن القصاصين المجيدين . وفي بعض الاحيان تكون قصصه اكثر مرحا مما يعرفه هو نفسه . فمن جملة احاديثه ما ذكره عن زيارة قام بها لدار الاوبرا في «فينا» مع «سانت جون فلبي» اثناء جولة في اوربا . لقد فضلت الحاشية المرافقة له ان تذهب الى احد المراقص الليلية ، في حين جلس هو وفلبي لوحدهما في مقصورة خالية . وما لبث عبدالله ان قال «ان هذا لامر معيب» ومن ثم نهض من مكانه ، وراح يتبختر حول المقصورة ، ويحرك ذراعيه افقيا ، ويقلد الفتيات ، ويقول بصوت غنائي «كيف حا . حا.. حالك ؟ سخيف ؟ شكرا للسموات لانه لم يكن لديك مثل هذا العبث الطفولى في لندن ! » .

كان يستخدم طريقة سريعة بالنسبة الى اللحوحين من اصحاب الطلبات . فحين سأله احد شيوخ البدو ذات مرة ان ينقض قرار القاضي بحبس احد رجاله ، رد عليه بالمثل القائل « النساء والاطفال يعتقدون بأن الرجال قادرون على كل شيء ! » .

وفي مرة اخرى ، وحين تضايق من رجل طلب اليه اعطاءه رسالة توصية الى رئيس الشرطة ، الذى اشتهر بأخذ الرشاوى ، لكى يستخدمه في دوائر الشرطة . واذ ذاك قال له عبدالله « في مثل هذه الحالة اذا كنت تريد المساعدة فانني لن اعطيك رسالة لان تلك لن تكون مفيدة ، وانما سأعطيك بدلا عنها قطعة ورق نافعة ! » ، ثم اخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة خمسة دنانير وسلمها الى ذلك الرجل !.

ولقد اعتاد القول بأن والده «الحسين» ، عندما كان يطالب فيصل منه بعض النقود ، كان يرد عليه بعبارة مقتبسة من القرآن هي « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » .

× × ×

كان الفشل الكبير الذى احاق بعبدالله ، ولو انه لم يكن ليعترف به ، هو اندهاشه من القوات التى القى بها «ابن السعود» في معركة «تربة» التى وصفها عبدالله في كتابه كما اتى «فلبي» على ذكرها هو الآخر ايضا[11] . فقد اعتاد ابن السعود ان يقول « وبعد ذلك لم اعد اخشى احدا من الاشراف مرة اخرى ، ماعدا الشريف شاكر صاحب الوجه المجدور » . وسرعان ما اخضع ابن السعود بعد ذلك ، اعتقاده هذا للاختبار .

---

(١١) معركة تربة خاضتها قوات ابن سعود البالغ عددها زهاء ثلاثة آلاف مقاتل ضد الملك حسين واولاده وكان يقود القوات السعودية خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد وبدأت الحملة بتحرك السعوديين في أواخر شهر آب ١٩٢٤ نحو الطائف وقد وصلت قوات الملك حسين بقيادة ولده الاكبر « علي » والمؤلفة من سرية من الخيالة وأخرى من الهجانة الى الطائف في الخامس من شهر أيلول ولكنها انسحبت الى مكان يعرف باسم «الهدا» قرب الطائف . واقتحم السعوديون الطائف وراح رصاصهم يلعلع في المدينة التى اعملوا السيف في رقاب من فيها وغصبوا كل ماقدروا على نهبه من المؤن . واذ ذاك خسر الامير علي المعركة وانسحب مع من بقي من رجاله الى «عرفات» ومن ثم تجدد القتال في «الهدا» فكانت الغلبة فيه للسعوديين . ورغم طلب النجدة من الانكليز فانهم لم ينجدوا الملك حسين الذى اضطر الى التنازل عن الحكم لولده الامير علي الذى لم يمارسه الا فترة قصيرة حيث هجر الحجاز الى العراق بعد تغلب عبدالعزيز بن سعود على نجد والحجاز كلها .

لقد ارغم الملك حسين في سنة ١٩٢٤ على التنازل عن العرش عندما وغلت قوات ابن السعود في الحجاز • وبعد مقاومة استمرت ستة اشهر في «جدة» ، اضطر «علي» ، ولده الاكبر وخليفته على العرش ، على ان يستسلم ، وبذلك انتهى حكم الاشراف في مكــة • ذهب الحسين بعــد تنازله الى ميناء «العقبة» ، ومن هناك الى جزيرة «قبرص» ، وقد توفى في «عمان» في شهر حزيران سنة ١٩٣١ ، في اعقاب نوبة قلبية وهو في الخامسة والسبعين من عمره • كان شيخا منغصا ، لكنه غير متذبذب • كانت اسرته تود ان يعود الى عمان ، كيما يموت على مقربة منها على ارض عربية •

كانت آخر امسية عندما وصل اليه وفد من اقاربه واحد الاطباء • لم تكن في الغرفة التى يرقد فيها اية اضاءة • وكان الحسين قد اضاع رشده جزئيا ، وراح يتحدث عن واحد منهم وكأنه مبعوث من عدوه ابن السعود ، ولذلك رفض ان يغادر قبرص في اول الامر[١٢] • وفي عمان تجمع اولاده وافراد العائلة ليشهدوا نهاية رب الاسرة الشيخ الذى نفي من مكة ، وان كانت نهايته قد حصلت في أرض عربية •

---

(١٢) كان الدكتور سندرسن الطبيب الخاص للعائلة المالكة في العراق هو الذى توسـط لدى الحكومـة البريطانية ، عـن طريق السر رونالد ستورس حاكم قبرص ، في اطلاق سراح الملك حسين مـن منفاه في قبرص ، وعودته الى عمان • وكان الوفد الذى ذهب الى الحسين في الجزيرة مؤلفا من فيصل وعبدالله وسندرسن • وكان سندرسن هو الشخص الذى ظن الملك حسين بأنه هو « فلبي » مبعوث عدوه ابن السعود وقد هدأ روعه عندما أخبره ابنه فيصل بأن هذا الانكليزى هو سندرسن ، وان فلبي قد مات [انظـر مذكرات سندرسن] •

ويتحدث «جورج انطونيوس» في كتابه «يقظة العرب»[١٣] عـن الملك حسين فيقول عنه «وعلى الرغم مـن تحديداته ومعايبه ، فقد كان يمتلك روحية قوية ، واستقامة في المسلك الـذى يلجأ الى العظمة» واذا كان المعيار هو ان قيمة خلق المرء يجب تمييزها اكثر من مدى فشله ، فان الحسين كان يستحق الاعجاب • ولقد غادر ولده «علي» الحجـاز على ظهر باخرة بريطانية في شهر كانون الاول سنة ١٩٢٥ ، أقلتـه الى البصرة ، ومن هناك الى منفاه وهو بلاط اخيه الاصغر فيصل • ولقـد اعتدت ان ازوره في قصره المتداعي الذى يقوم على الضفة اليمنى من نهر دجلة في بغداد ، وهو ذات البيت الذى اجره لي ولده «عبدالاله» •

كان علي ضئيل الجسم ، متأنقا ، ونظيفا بشكل مدهش ، ويرتدي أثوابا مخططة او موردة ، ويعتمر بعمامة مكية صغيرة • وكانت اشاراته وعاداته مكبوحة وانيقة ، وعربيته واضحة • كان ولده عبدالاله ، وهو صبي خجول نحيف الجسم ، ذا عينين واسعتين في وجه بضوي • كان مخلوقا اشبه بالغزال ، يمرق في بعض الاحيان عند نهاية الغرفـة ، واذ ذاك يستدعى فيعود ويسأل «كيف حالك ؟» • أما بناته الاربع ، عاليـة التى غدت فيما بعد ملكـة على العراق ، وبديعة ، وعبدية ، وجليلة ، وكذلك امهن «نفيسة» فقد كن في تصرفهن مثل بقية النساء المسلمات ، يعشن في عزلة عن الناس ، ولم يعرفن الا في وقت متأخر جدا •

---

(١٣) وضع جورج انطونيوس كتابه هذا باللغة الانكليزية بعنوان يقظة العرب ، الذى صدرت طبعته الاولى في سنة ١٩٣٩ •وقد صدرت له الذى صدرت طبعته الاولى في سـنة ١٩٣٩ • وقد صـدرت لـه ترجمتان عربيتان قام بالاولى «علي حيدر الركابي » والثانية كل من الدكتورين ناصرالدين الاسد واحسان عباس ونشرته دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٦٢ •

حين كان علي يأتي الى المقيمية لتناول طعام العشاء ، كان يطلب الي ان اتعشى معه ، وان اترجم له في بعض الاحيان .

ولقد قمت بهذه المهمة في احد الايام عندما جلس يلعب الشطرنج مع «السر هيوبرت يونغ» ، وهو من لاعبى الشطرنج المجيدين . كان علي يتحرك بحركات سريعة فائقة ، في حين كان «يونغ» يتأنى في ذلك، في الوقت الذى يكون فيه «علي» يتحدث الى جانبى بهدوء ، وسرعان ماتغدو النتيجة لصالح «علي» .

لقد راحا يواصلان اللعب مرة اخرى فكان الفوز لعلي ايضا ، واذ ذاك قال لي «يونغ» ، «الا تسأل جلالته كيف يحدث ذلك ، الى درجة انه اعتاد ان يستعمل حركة الافتتاح التى استعملها مؤخرا ، ولاول مرة، بطل الشطرنج العالمي ؟» وكان جواب «علي» قوله «لقد تعلمت تلك الطريقة وانا طفل في مكة ، فتعودت استعمالها ، وان اسرتى مشهورة بقدرتها على استخدام الحركات الصائبة» .

ومن ثم اضاف الى ذلك قوله « وحين يتمسك حلفاؤنا بالاصول نكون نحن الفائزون ! » .

كتب لورنس في كتابه «اعمدة الحكمة السبعة» عن «علي» يقول « أما بالنسبة الى علي نفسه فانني مندهش منه جدا . فلقد كان ميالا الى الكتب ، عالما بالشريعة والدين ، شديد الورع الى درجة الخيال . كان يدرك جيدا تراثه السامي الذى يدفع به الى الطموح . وكانت طبيعته نقية جدا في ان يرى أو يشك في الدوافع المهمة لدى اولئك الذين كانوا يحيطون به . وفي النتيجة فقد كان على الدوام غنيمة لاي رفيق دائم له . كان شديد الحساسية لان يسدي النصيحة بشأن زعيم عظيم،

ولو ان نقاء سريرته ومسلكه قد اكسباه محبــة اولئك الذين كانوا على اتصال مباشر به •

كان علي هو الذى ارسل لورنس سرا من ساحل البحر الاحمر ، واعطاه بدلته ليتنكر بها ، كيما يصل الى اخويــه عبدالله وفيصل اللذين كانا يحاربان الاتراك آنذاك داخل الحجاز •

× × ×

جلب «علي» معه على ظهر السفينة البريطانية التى اقلته من الحجاز، عقب هزيمته امام ابن السعود ، جهاز مذياع المانى قديـم ، كان يبدو اشبه شيء بتابوت طفل ، وهو مصنوع بشكل اعتيادى من مادة معدنيــة صلبة • كانت اجهزة المذياع في تلك الايام نادرة ، ولذلــك كان «علي» يعتبر هذا الجهاز كنزا من الكنوز ، ولو انه كثيرا ماكان يصيبه العطل • وكنت في بعض الفترات اجلب معي احد نواب الضباط من القوة الجوية البريطانية لاصلاح ذلك المذياع • وقد يحدث ان يهز هؤلاء رؤوسهم دلالة على اليأس في أول الامر ، لكنهم لا يلبثون ان ينجحوا في الحصول على تجاوب من لدن المذياع لبعض الوقت •

واخيرا اخبرني أحد هؤلاء ، وهو نائب العريف «بود» بأنه لـم يعد هناك أي أمل لاصلاح الجهــاز ، الا باهتمام متواصل ، وباستبدال بعض الادوات فيه ، وانه لابد من انفاق جملة ايام لاصلاحه ، اذا ماار يد تحقق ذلك في الواقع •

ما لبث «علي» الذى ظهر عليه العبوس اول الامر ، ان تألق وجهه في الحال فقال « واذن فيجب ان يمكث نائب العريف عدة ايام ضيفا لدي،

الى ان يصلح الجهاز» • لقد كان يحب لذلك العريف ان يستمتع في هذا العطف البادي بكرم الضيافة ، بطريقة ساذجة ومستقيمة ، مثلما يفعل ذلك حين يضغط على بعض البدو الزائرين له بأن يمكثوا لديه ، وان يجلسوا معه ، ويفرح بصحبتهم ، وبقصصهم عن الأماكن النائية •

كان نائب العريف راغبا في البقاء ، لو انه استطاع ان يحصل على ادواته وسريره ، وان كان لا يوجد اى امل لموافقة مقر القوة الجوية على ذلك • وهكذا رحت افكر في الاعتذار ، وقطعت وعدا بتصليح المذياع في وقت متأخر من السنة ، عندما يكون الخبراء في اجهزة اللاسلكي أقل انشغالا •

كان «علي» خارج نطاق المكان والزمان ، اشبه – كما يقال – بعميد من الريف ، كثير المجاملة ، يفد على مدينة كبيرة ذات هرج ومرج ، تثير اعجاب المرء ، والغرائز الوقائية لديه •

ومن ناحية اخرى كان علي ايضا يحب التفرج على الملاكمة التى يتبارى فيها أفراد القوة الجوية والجيش • فحين تصبح امثال هذه اللعبة معروفة ، كان يدعى اليها بانتظام ، ويطلب اليه بأن يقوم هو نفسه بتوزيع الجوائز على الفائزين •

ولقد حدث ذات مرة ، انه لم يطلب اليه ان يقوم بذلك الاجراء ، وربما كان مرد ذلك الى التغيير الذى حدث في الهيئة المشرفة ، فما كان منه الا ان طلبنى اليه ، وراح يتذكر ، باسلوب دبلوماسى ، التطبيق الذي كان سائدا في المناسبات السابقة • ولقد استطعت فيما بعد ، ان ارتب له أمر الذهاب الى المباراة ، فسر بذلك مجددا ، حيث وصل

الى ميدان الحلبة في وقت جيد وهو على أتم استعداد لان يتعقب كل لكمة تبدر من الملاكمين ٠

وحين جئت لتوديعه عند مغادرتي العراق الى انكلترا ، وكان يتوقع ان يعود ولده عبدالاله الى استئناف دراسته بعد وقت قصير ، نهض واقفا على قدميه ، وقبلني من وجنتي وهو يقول «ارجو ان تبدي عناية خاصة بعبدالاله» ٠

وكان ذلك آخر وقت استطعت ان اراه فيه ٠ وكانت تلك آخر كلمات قالها لي ٠ ومهما يكن الامر فانني لم اكن في ذلك الوقت قادرا على مساعدة ولده ٠ ولذلك فان هذا الفتى الذى لم يكن ليشعر بالسعادة في المكان الذى اودع فيه ، وهو بيت احد المعلمين في انكلترا ، سرعان ما هرب وعاد الى الشرق ٠ ولقد تذكرت بعد سنوات مضت ، كان فيها «علي» قد توفى ، واصبح ولده بصفة غير متوقعة وصيا على عرش العراق ، كلمات علي تلك فوجدت بأنها كانت صارمة ٠

لقد اصبحت وزيرا مفوضا لدى عبدالاله عندما كان في المنفى أثناء الثورة في العراق سنة ١٩٤١ ، وبذلت عناية فائقة بصفة خاصة لمساعدته ٠ وقد اعتاد عبدالاله ان يبعث الي بملاحظات شخصية عن هذا وعن ذاك ، بقي البعض منها مع اوراق اخرى محفوظا لدي ٠ وتمثل هذه الملاحظات مزيجا من السذاجة والاهتمام بالمعالجة ، والتصور الهادىء لموقفه ٠

× × ×

منح فيصل اخاه «عليا» مقاطعة زراعية تدعى «النعمانية»[(١٤)] جنوبي

---

(١٤) الصواب منطقة النعمانية التى تحيط بمدينة النعمانية ذاتها وكانت المزرعة في الصويرة ٠

بغداد • كانت تلك المقاطعة صحراوية في غالبيتها • ولكن باستعمال مضخات الري ، وجرارات الحراثة وآلات الحصاد التى استخدمت حديثا ، غدت تلك المقاطعة ذات قيمة • ولذلك كان هو وزوجته وولده وبناته يمكثون هناك أياما بقصد البحث في تحسينها • كانت زيارة المقاطعات الريفية ، مثل مزرعة «علي» ، تؤدي الى الالتقاء بالمزارعين المجاورين ، والاثرياء من الرجال الذين لم يكونوا ، شأنهم في ذلك شأن كبار التجار في المدينة ، يساهمون بنشاط فعال في الامور السياسية ، ويودون ان يلقوا بالسياسيين في اعماق البحر •

وهناك الكثير من الاسخياء والمتمدنين الذين كان اهتمامهم بفيصل وبالساسة ، محدودا بحدود رغبتهم في الاطلاع على ماكان يجري هناك • كان «حميد خان» ابن عم «اغا خان» ووكيله يعيش في النجف وفي بغداد معا ، ويقرأ ويتحدث جيدا بعدة لغات ، ويتعقب بعناية خاصة صحيفة «التايمس» اللندنية • وحين عدت ذات يوم من الصيد في «بلدروز» في مزرعة «ستيفن فلاستو» ، وهو يونانى يقيم في باريس ، وجدت عددا من الرسائل كان قد بعث بها حميد خان ، وهو يطلب فيها مني ان أقابل «علي خان» • كانت لعلي خان هذا مصالح في العراق ،وثروات ،واتباع، ومقبرة للعائلة في النجف • ولذلك أشار «علي خان» في احدى جولاته المبكرة في الشرق ، الى انه سوف يتوقف في العراق •

كان معي في مزرعة ستيفن والتى وهبها سلطان تركيا لوالده ، وقيل عنها بأنها كانت تعود الى «روكسانا» زوجة «الاسكندر الكبير» ، ممثل آخر لعائلة ملكية اخرى في العراق ، والذى كنت اخرج معه للصيد كل يوم جمعة تقريبا ، هو «غازي الداغستاني» •• كان غازي قد

عاد تواً من كلية « وولوتش » وهـو ابن المشير محمـد فاضـل باشا الداغستاني ، المتحدر من سلالة حكام ولاية داغستان في شرقي القفقاس.

كان احد اولئك الحكام هو بطل قصة «تولستوي» المعنونة «الحاج مراد» ، والذى ظل يقاوم الروس في القفقاس ، الى ان وجهوا ــ بعـد انتهاء حرب «القرم» ــ المدافع الجبلية ضده . وحين استولى الروس على بلاد الداغستان قاموا بتوزيع اطفـال الاسـرة الحاكمة فيها ، ولاسباب دبلوماسية مابين «سان بطرسبرغ» ، و «اسطنبول» . وهكذا تـم الاتيان بمحمد باشا الى تركيا ، فأصبح آمرا في حـرس السلطان المكون مـن القفقاسيين ، ومن ثم تولى منصب رئاسـة الاركان في العراق ، ومنصب محافظ بغداد .

ولقد وصفت المس بل زيارة قامت بها لمحمد باشا الداغستاني بعد ظهر يوم قائظ من الايام التى سبقت قيام الحرب العالمية الاولى ،وكيف انها رأت اسداً جاثما جيء به من جنوبى العراق ، وهو غارق في النوم على سطح القلعة(١٥) ولا بد ان ذلك الاسد كان واحدا من الاسود التى

---

(١٥) لا بد ان المس بل قد ذكرت زيارتها تلك لمحمد باشا الداغستانى في كتابها المعنون «من مراد الى مراد» وهو عبارة عن رحلة قامت بها عبر العراق الى تركيـا في سنة ١٩١١ ، والتقت خلالهـا بعدد كبير من رؤساء العشائر العراقية في الجنوب والشمال ، فضلا عن بعض رجال الدين ، وخبرت مدى استعدادهم للتعاون مع بريطانيا ضد الاتراك .

ومما يجدر ذكره في هذه المناسبة ان العقيد «لچمن» قام هـو الآخر في سنة ١٩١١ بالالتقاء مع محمد باشا الداغستانى ،ووصف كيف خمط احد الاسود لديه من داخل القفص ، أحد الاطفال فما كان من محمد باشا الا ان ضرب ذلك الاسد ضربه قوية على رأسه =

شوهدت مؤخرا في العراق ، ولو ان اعدادا منها كانت موجودة هناك خلال القرن السابق .

وحين كان محمد باشا يوشك ان يتقاعد قبل قيام الحرب العالمية الاولى ، حذره اصدقاؤه بأن السلطان ، نتيجة للتأثير السيء الذى كان يمارسه عليه وزيره الاكبر ، ومنجم بلاطه «ابو الهدى الصيادي» ، قد أخذ يشك فيه ، ولذلك فقد طلب محمد باشا الى السلطان ان يأذن له شراء مقاطعة زراعية جنوبى العراق ، وان يعيش فيها . وعندما اعلنت الحرب العالمية الاولى بعث محمد باشا ببرقية الى السلطان يسأله فيها «من هو انفع لجلالته ، مشير متقاعد ام نقيب احتياط ؟» . ولقد ادرك السلطان فحوى تلك البرقية فرد عليه « انك ستكون قائدا للمجاهدين العرب وان يعفى ولدك «داود» من خدمته العسكرية » .

قتل محمد باشا الداغستانى نتيجة اصابته بقنبلة تنوير بريطانية أثناء حصار الكوت . ولكن محمد باشا كان قبل مصرعه بوقت قليل قد تزوج وهو في السبعين من عمره ورزق بولده «غازي» هذا . وعلى ذلك فان الفرق بين غازي من الزوجة الاخيرة التى تزوجها محمد فاضل ، وولده الاكبر «داود» يبلغ زهاء اربعين سنة . كان داود قد كرس حياته للزراعة . وكان محافظا في عاداته ، يلبس «القلباق» الابيض ، او القبعة الطويلة المصنوعة من الفرو . ونادرا مايأتى الى العاصمة بغداد ، الا لكى يشاهد اشتراك احد خيوله في السباق ، وكانت كلاب الصيد التى يمتلكها داود قد دربت تدريبا كاملا ، مع ماكان يحتفظ به من صقور

= فأفلت ذلك الطفل منه انظر كتابنا «مغامرات لجمن في الجزيرة العربية والعراق» المعد للطبع .

لمطاردة الغزلان • وكان يبتهج كثيرا حين يصحبه ضيوفه ، مشاهد القنص عند سفوح الجبال الفارسية •

مضى غازي قدما في مسلكه العسكري على الرغم من البرود الذي حصل في أحد الاوقات بينه وبين عبدالاله • كان يتولى منصب الملحق العسكري في لندن اثناء تتويج الملكة اليزابث • ومن ثم اصبح معاونا لرئيس اركان الجيش ، فقائدا لاحدى الفرق وهو في الاربعين من عمره • وقد اعتقل هو وعدد من كبار ضباط الجيش ، وحكم عليه بالاعدام بعد ثورة سنة ١٩٥٨ ، غير ان حكم الاعدام لم ينفذ فيه ، وانما بقي في السجن لمدة سنتين حيث اطلق سراحه في سنة ١٩٦٠ • وكان من حسن حظ شقيقته التى تزوجها «نجيب الراوي» ، سفير العراق في تركيا ، انها كانت خارج العراق عندما قامت الثورة[١٦] •

× × ×

هناك قلة من المكتبات الجيدة في العراق • وتعود احدى هذه المكتبات الى السيد رؤوف الجادرجى ، الذى كان يعيش عندما تعرفت عليه لاول مرة ، في بيت واسع يختفي الآن وراء صفين من الجدران في حي الاسواق بغداد •

فما ان تدخل الى هذه الدار عبر ممر ضيق طويل ، حتى تجد شخصية تركية المظهر مكتنزة الجسم ، قوية التركيب ، ذات رأس اصلع •

وفي جلسة رومانسية معه ، وجدت لديه مجموعة من اشياء قديمة ،

---

(١٦) افادني الزميل الاستاذ عبدالقادر البراك بأن شقيقة غازى الداغستانى الكبرى هى زوجة حكمت سليمان •

مقرنصات خشبية من بيوت متهدمة ، وادوات نحاسية وفضية ،وسجاجيد، ومصابيح ، وكتب بلغات عديدة • كانت الارض قد آلت اليه من احـد اجداده الذى جاء الى بغداد مع السلطان «مراد» ، فكوفيء بهـــا نظرا للخدمات التى اداها في الحروب • كان رؤوف الجادرجى لوذعيا ، رقيقا، سخيا ونبيها • كان وهو ضابط شاب اثناء الحرب العالمية الاولى ، يعمل في هيئة الاستخبارات التى يديرهـا المشير الالمانى « الفون در غولتز »

وحين كان يعمل معه اصيب بالتيفوس وهو نفس المرض الذى قتل المشير «در غولتز» نفسه •

عين رؤوف الجادرجى بعد سنوات ، مستشارا قانونيا لشركة النفط العراقية ، ثم اصبح خلال الحرب العالمية الثانية وزيرا مفوضا للعراق في لندن ، والتى لم يغادرها اثنـاء القصف الالمانى الجـوى • وقد اشتهر بامتلاكه جزءا من اراضى بابل في شكل بساتين للنخيل تقع على ضفـة النهر ، وكان له فيها بيت صغير نافع ، كان يعيره لاصدقائه لكى يقضوا عطلة الاسبوع فيه •

ومن المكتبات الاخرى ، مكتبة الوكيل القانونى لشيخ المحمرة ، والذى كان يسكن في بيت على ضفـة شـــط العـرب في البصرة[١٧] وكان يستمتع في حدائقه ليلا خلال ايام الصيف ، تلك الحدائق التى كانت تعج بمختلف اشجار الفاكهـــة ، وكانت حتى الموائد والكراسى مصنوعة من اخشاب تلك الاشجار •

---

(١٧) هو المحامي محمد احمد بهادور ، كان قد اشتغل سنوات عديدة مع برسي كوكس في الخليج العـربي ، وكانت له مكتبـة عامرة بالكتب في مختلف اللغات ، وقد باع مكتبته الى جامعـة البصرة قبل وفاته في اوائل السبعينات •

كانت تدور اكواب العصير و «العرق» المصنوع من التمور ، وتنطلق اصوات الموسيقى من موسيقيين مختفين فيما وراء الاشجار ، يرتدون الملابس الفارسية القديمة ، والقبعات العالية الضيقة المصنوعة من اللباد الاسود • وقد ينطلق الوكيل في الحديث عن تأريخ المنطقة ، وعن شاهات الفرس ، والفاتحين من العثمانيين ، ويروي آخر الحكايات عن سيده الاخير الذى اشتهر بتذوقه الطراز القديم ، والذى توفي سجينا في طهران[١٨] وكان هذا الوكيل بارعا في التأريخ الاوربي ولو انه كان ينظر اليه من ناحية الشرق «بمنظار معتم» ، وينتقد الذوق الشرقي في بعض الاحيان انتقادا غريبا • فأمثال هؤلاء الناس كانوا متمدنين ،ومواطنين عالميين ، متحرري الاذهان •

كان الشعراء من بين رجال الاحزاب الكبرى البارزين في بغداد ، ولو ان بعض الاحزاب الصغيرة كانت خلوا من اولئك الشعراء • وكان الشاعر المبرز بينهم هو الرجل الاعرج الكسيح « جميل صدقي الزهاوي » ، الذى كان يوضع على أحد الكراسى ، او على المسرح لكى يضايقنا بقصائده المطولة والمملة ، ويحظى بالهتاف والتصفيق فيما بعد • ولكن افضل الشعراء ، من وجهة نظر الاجانب ، هو الشاعر معروف الرصافي ، الذى يعتبره العرب افضل شاعر ، وهو صاحب مزاج مرح ،

---

(١٨) يقصد المؤلف بذلك الشيخ خزعل الكعبى امير المحمرة الذى ظل يتمتع بالحكم المستقل في امارة الاحواز ، الاقليم العراقى العربى السليب ، والذى وضع كل ثقته في بريطانيا فما فتئت ان ضحت به في سبيل مصالحها الاستعمارية ، فحرضت « رضا بهلوى » ضده ، فاحتل هذا اقليم الاحواز ، وامعن في اضطهاد شعبه ، ثم ألقى القبض على الشيخ خزعل وأودع سجن طهران وقتل فيه بأمر من رضا بهلوى •

ولا يتردد في ان «يضع النقاط على الحروف» ، ويحلق احيانا بأجنحة الخيال ، وذلك عندما تفسر لنا قصائده التي كان ينظمها .

× × ×

بدأ فيصل يظهر دلائل ملموسة على ضجره ، واخذ يتطلع بشوق واضح الى التخلص من الاعباء المستديمة ، والازمات السياسية غير المنقطعة التي تطرحها سفراته الى اوربا عليه . كتب «السر جورج رندال» أحد المراقبين في وزارة الخارجية البريطانية ، يصف زيارة قام بها لفيصل في سنة ١٩٣٢ فقال «ان الصورة التي رسمها الرسام «ارك كننغتون» لكل من فيصل ، ونوري السعيد ، وجعفر العسكري ، قد اضفت عليهم حيوية فنية» . غير ان فيصل كان يقوم باسفار منذ ايام الثورة في الصحراء ، ولذلك اخذت تغلب عليه الصفة الاوربية في المظهر وفي المسلك والملبس، وان كانت اكثر براعة في الواقع .

لقد اصبح من الماهرين في لعبة البردج . وكان يفضل ان يقضي الامسيات في لعب الورق بدلا من الحديث ، ولذلك غدا فيما بعد اكثر كهولة ، ونحافة ، ورجلا ذا نظرة سوداوية ، بلحيته الغبراء النظيفة المقرمة . وكان يبدي اصالة سارة بالمسلك ، وبالمرح الملحوظ . وحين كنت اتحدث اليه احسست بأنه يحتفظ بعقل نافذ ، لكنه ربما كان مراوغا ومعقدا . وكان انطباعي عنه هو انه كان ، مثل «بوريس» ملك بلجيكا ، وعلى خلاف «ابن السعود» ملك الجزيرة العربية ، يميل الى الاعتماد كثيرا جدا على المناورات .

ولكن مما لا شك فيه ، انه كان في وسائل اخرى صاحب شخصية

شهيرة ، ويمتلك بعض عناصر العظمة[١٩] .

كان فيصل على الدوام يبدي اهتماما بالبراعة الغربية . ففي شتاء سنة ١٩٣٢ – ١٩٣٣ اشترى طائرة من طراز «بوس موث» لاستعماله الخاص ، وقد بعث بآمر الجناح «واربورتون» من القوة الجوية البريطانية ، واحد معلمي القوة الجوية العراقية المؤسسة حديثا ، لكي يجلبا تلك الطائرة من مصر . كنت آنذاك اقوم بجولة في الصحراء عندما اخذت انباء فشل واربورتون في الوصول الى العراق ، تثير القلق .

وبمرور الوقت ارتفع عدد الطائرات وصنوف الضباط الذين عهد اليهم بالبحث عنه .

ولقد شاركت سيارات مصفحة خرجت من البصرة للغرض ذاته ، وانضم سرب من الطائرات الفرنسية للمشاركة في عملية البحث ، كما انذر شيوخ البدو بالحادث ، وارسلت طليعة استكشاف على ظهور الابل السريعة ، كذلك شارك عمال شركة النفط في الحملة باستخدام ماكان لديهم من سيارات . كانت المنطقة التي يمكن ان يهبط واربورتون عليها قد تم حصرها على الخرائط ، واعطيت كل وحدة جوية اصنافا للاختبار . ولقد قال احد افراد هيئة العمليات «ان تلك وسائل مؤكدة لتحديد المكان ، واننا سوف نعثر عليه الآن» ، غير انهم لم يعثروا عليه .

وبعد مضي اربعة ايام دون العثور على آمر الجناح ، تقرر الاستمرار في عملية البحث ليوم واحد حسب ، ومن ثم التوقف . لقد عرف عن

---

(١٩) السر جورج رندال في كتابه «السيف وغصن الزيتون» ١٩٥٧
SIR GOERGE RENDAL: THE SWORD AND THE OLIVE 1957.

واربورتون انه لم يكن يحمل معه سوى القليل من الماء وبرتقالة واحدة.
تجمع كل الملاحين خارج قلعة «الرطبة» في منتصف الطريق عبر الصحراء السورية ، لغرض القيام بعملية بحث كاملة ونهائية في اليوم التالى . ولقد ذهبت بقصد الاصغاء الى الاوامر التى أعطيت . لفت نظري وجود صبي من البدو كان يمشي الى جانب الجماعة ، وقد بدا عليه الاهتمام .

وحين تحدثت الى ذلك الصبي تحسس داخل قميصه الممزق ، واخرج منه قطعة صغيرة من ورقة هى صفحة من مفكرة يومية . لقد كتب واربورتون على تلك الورقة يصف وضعه على قدر مااستطاع ذلك ، واعطى اسم الخندق الذى هبط فيه ، من معلومات استقاها من ذلك الصبي الذى يدعى «فولايان» . كان واربورتون يعرف القليل من الكلمات العربية لكنه صمم على ان يجعلها مفهومة لغرضه بشكل كاف .

اردت ان اقاطع نقيب الجماعة الذى كان يوجز للملاحين اوامره، لكنه اوضح لي باشارة محذّرة ، بأن الوقت الراهن ليس ملائما لذلك ، وحين فهم الامر حصل رد فعل مباشر . غير ان الوقت كان ليلا ، ولذلك تخلينا بعد احدى المحاولات عن كل أمل في النجاح اثناء تلك الليلة . وفي صباح اليوم التالي اركبنا الصبي «فولايان» على صندوق في مقصورة الطيار ، وكانت تلك هى المرة الاولى التى يركب فيها اداة آلية ، سيارة كانت أم طائرة .

حلق الطيار على اوطأ مستوى يستطيع به ان يميز الظواهر الارضية، واخيرا عثرنا على الـ «بوس موث» بجانب خيمتين سوداوين تعودان الى «حيزان بن حبلان» من قبيلة «عنزة» . كان واربورتون قد ظل طريقه.

ولحسن الحظ فقد استطاع رؤية تينك الخيمتين عندما نفد الوقود لديه. قدمنا مكافأة لذلك الصبي البدوي الذي دخل في علاقات صداقة مع وازبورتون ، لكنه طلب منا عملة ذهبية لا ورقية • وحين اجلسناه في طائرة الملك ، علق على ذلك قائلا « ياالله ! ماأعظم الراحة الملوكية في المقعد الخلفي ! » •

بعد مرور بضعة اشهر جاء ذلك الصبي البدوي لزيارتي في بغداد، وحظي بمقابلة الملك الذي شكره واهداه قطعة نقد ذهبية حسبما طلب ذلك قبلا • ولقد اشرت الى هذا الحادث في مقالة نشرتها في مجلة «سبكتاتور – المتفرج» في عددها الذي صدر في اليوم الثاني من شهر آذار سنة ١٩٣٤ وبتوقيع «نيمو» •

× × ×

كان الحماس الغالب لدى فيصل يتركز حول استقلال العراق ، ولذلك كان نجاحه منتظرا في هذا المضمار ، بعد ان عقدت المعاهدة الثالثة مع بريطانيا في سنة ١٩٣٠ ، وايدت بريطانيا انتهاء الانتداب ، ورفعت توصية بذلك الى عصبة الامم • ونتيجة لعقد المعاهدة فقد بقي سر خفي ، بشكل خاص ، لدى الاوساط الرسمية البريطانية ، لم أستطع الاطلاع عليه في حينه الا بصفة استنتاجية •

كان الشيء الجاري في الغالب تماما ، وفي عدد من فترات الصباح أحيانا ، هو ان يبعث الي نائب قائد القوة الجوية بأن اصحبه في مثل تلك التحليقات السرية • وكانت هذه التحليقات سرية ، لانه – وبسبب كثرة اشغاله باعتباره قائدا – كان يهبط الى اماكن تكون خارج الطرق، ثم يخرج منظاره ويروح يراقب به بعين يقظة ، ومن ثم يطلب الي ان

اسأل الاعراب المتجولين هناك عن المناخ ، وعن البق الموجود في المنطقة •

كانت هذه التحليقات مدعاة للمتعة ، لانها كانت تجرى في باكر الصباح ، وعلى متن طائرة صغيرة مكشوفة ، تحلق في اعالي الجو البارد النقي من الغبار الذى يبدأ بالتكاثف عند انتصاف النهار • فما ان تحلق الطائرة حتى يبدأ منظر العاصمة يتقلص في شكل منشار ذى لون خاكي وسط الصحراء ، وقد قسمت الارض من تحتنا الى قسمين بفعل سيف لامع جارف ، هو نهر دجلة ، وراحت تحاددها بساتين النخيل المعتمة التى تلتمع قباب الكاظمية المذهبة الزاهية عند سقوط اولى اشعة الصباح عليها•

كانت مشاغبات الافراد ، وخصوماتهم السياسية ، تتناقص اهميتها تبعا لتضرس الارض ، وللهـواء الحـار الجاف الذى يعتقد بأنـه كان يصل الينا ، ونحن في الجو ، اكثر نقـاءا من الهـواء المشبع بالحـرارة من تحتنا •

× × ×

تم الوصول الى مصالحة بين العراقيين الراغبين في الاستقلال التام ، وذلك بانتقال القوات البريطانية من الاراضى العراقية ، وبالموقف الرسمي البريطانى ، الذى اضطر فيصل على ان يعترف بأنه موقف جيد ، ازاء الاتفاق على تشكيل قوات الامن • وعلى اساس هذه التسوية تقرر ان تكون منشئات القوة الجوية البريطانية خارج انظار اهل المدن ، اى في غربى نهر الفرات ، وان تستعمل قوات المرتزقة لحراسـة معسكرات القوة الجوية البريطانية ليس الا •

كان القصد من تلك التحليقات الصباحية التى كان يقوم بها نائب قائد القوة الجوية البريطانية ، هو البحث عن مكان لاقامة معسكر جديد فيه ، حيث تم في النهاية اختيار موقع « سن الذبان » في اسفل بحيرة

الحبانية التى تقع على حافة الصحراء السورية • ولقد كان هذا المعسكر الذى استغرق بناؤه وقتا طويلا ، تحت رحمة النيران العراقية في سنة ١٩٤١ ، ثم تم الجلاء عنه بعد عشرين سنة عقب اشغاله والمكوث فيه •

كان التحول الذى تم في عهد حكم فيصل الاول ، ظاهرا في عدد من الوسائل • فلما كان البلد سوف يصبح مستقلا ، فلا بد من اقامة علاقات طيبة مع ثلاثة اقطار مجاورة مستقلة ، كل واحد منها اوسع من العراق من الناحية الجغرافية • وقد سبق لاثنين من تلك الاقطار الثلاثة ان غزيا العراق ، واولهما تركيا التى عادت فغزت العراق مجددا سنة ١٩٢٢ فأخرجها الانكليز منه ، والثانى المملكة السعودية العربية التى غزت العراق في الفترة مابين سنتى ١٩٢٦ و١٩٢٩ والتى اوقفها البريطانيون ايضا •

لقد تم اجتياح العراق من السعودية العربية على يد الوهابيين المتطرفين ، ومعظمهم من قبيلة « المطير » تحت زعامة شيخهم « فيصل الدويش » • واذ استمرت هذه الغارات خلال سنة ١٩٢٧ ، وعلى نطاق واسع وخطير ، راح المهاجمون ينهبون ويقتلون الاغنام والابل ، وينكلون بأصحابها العراقيين • ولذلك نقلت القوة الجوية البريطانية بعض وحداتها الى جنوبى العراق ، حيث استطاع الجيش العراقى ان يضاعف من قوته ، واستطاعت قوات الشرطة ان تبنى مخافر لهـا عند اقرب المرتفعات الصحراوية ، ومع ذلك فقد تواصلت غارات الوهابيين •

وحين تم تدمير احد مراكز الشرطة العراقية ، وقتل افراد حاميته في شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٧ ، غدا واضحا بأن التمسك بالموقف الدفاعى امر لا فائدة منه اطلاقا • ولذلك استمرت الهجمات المتعمدة

خلال سنة ١٩٢٨ • وهكذا تطلب الامر بذل جهود واسعة لحل الخلافات، وصيانة الامن ، واعادة تخطيط الحدود •

تحركت وحدات القوة الجوية البريطانية نحو مراكز متقدمة لكي تأخذ المبادأة بيدها • كما رست بعد ذلك بواخر بريطانية عند ساحل الكويت ، وتم انزال رجال البحرية والملاحين البريطانيين لحماية ابراج الكويت وسورها • وفي الوقت ذاته تم ابلاغ ابن السعود بأنه اما ان يسيطر على قبائله ، او ان تكون هناك مواجهة مع الحكومة البريطانية • ولما لم يكن مستعدا للمجابهة ، فقد اضطر الى الاعتراف بأن «فيصل الدويش» كان من المتمردين عليه ، وينبغي في النهاية مهاجمته من قبل البريطانيين، وهكذا توغلت المصفحات الانكليزية داخل الصحراء ، ووصلت الى الآبار التي كان فيصل الدويش يشن غاراته منها على العراق •

مرّ افراد القوة الجوية البريطانية وهم في طريقهم ، ذات يوم ، بجثث متفسخة من الاعراب ومواشيهم • كان بعضهم من الكهول والشيوخ ، وكانت حتى ابدان النساء ، واكوام من الملابس الملطخة بالدماء ، والعظام ، ملقاة لوحدها وسط صحراء مكشوفة ونظيفة • كان الى جانب احد القتلى حديثا صبي من الرعاة غارقا في دمائه • انني لاتذكر المزمار المزدوج تلك الآلة البسيطة الساذجة التي يزمر بها الرعاة أثناء ساعات المراقبة •

وبالتقدم حركة اثر حركة ، تم حصر الدويش ، والحيلولة بينه وبين الاماكن التي يتوفر الماء فيها اثناء تراجعه ، الى ان استطاع ان يخلص رجاله واثقالهم ، ويتراجع الى داخل الاراضي الكويتية • والى ان تم منعه من مهاجمة الكويت على يد الحامية البحرية الانكليزية،

والى ان وصل رجاله الى حوالى ميل او ميلين عن اسوار الكويت ، كان الدويش وقومه يقتلون القبائل وهم في طريق انسحابهم ، باسم الدين . ذلك لان كل مخالف لطائفتهم الوهابية ، كان نصيبه الموت والنهب .

حجز القسم الاعظم من الاغنام داخل اسوار الكويت ، او على مقربة منها ، او في القرى التى تقع على الساحل . ومع ذلك فقد كانت هناك قلة من اصحاب الاغنام الذين اضطروا الى البحث عن العشب خارج الاسوار لرعي اغنامهم مخافة ان تموت جوعا .

كانت القصص التى رووها بالغة في شدتها ، وكان عرفانهم بالجميل عميقا للحماية التى منحت لهم . واخيرا وفي نهاية سنة **١٩٢٩** تم القاء القبض على فيصل الدويش على مقربة من منطقة «الجهرة» في الكويت ، حيث سلم سيفه الى ضابط كبير في القوة الجوية البريطانية . وحين تم تسليمه الى ابن السعود القي به في السجن ، فمات بعد ذلك حالا .

في اعقاب اندحار الوهابيين ، تم ترتيب اجتماع ، على يد السر فرنسيس همفريز المندوب السامى البريطانى في العراق ، بين ابن السعود وفيصل الاول على ظهر الباخرة البريطانية « لوبين » في الخليج العربى سنة **١٩٣٠**[٢٠] . كان هنالك خوف ملحوظ من الجمع بين العدوين سوية . كان على فيصل الذى طردت اسرته من مكة على يد ابن السعود، بعد ان ظلت تحكم فيها هناك مئات السنين ، والذى اخذ رجال ابن السعود يهاجمون مملكته الجديدة باستمرار ، كان على فيصل هذا ، ان يطمس احاسيسه العنيفة ، في سبيل مستقبل العلاقات بين البلدين . ولقد

---

(٢٠) راجع تفاصيل ذلك اللقاء في مذكرات سندرسن .

نتج عن المحادثات الحادة بينهما تقدم ملموس ، وبمرور الوقت تمت اقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين .

سافر فيصل الى تركيا في السنة التالية ، كما قام بزيارة رسمية الى ايران في سنة ١٩٣٢ ، حيث اعقب التوقيع ، بعد تلك الزيارة ، على ميثاق «سعد اباد» بعد وفاة فيصل نفسه(٢١) . وعلى هذه الشاكلة بدا العراق ، بالجهود الناجحة التي بذلها فيصل الاول ، علاقاته بالبلدان الاجنبية ، ووضع اسس الخدمة الخارجية المستقلة لديه ، من دون اي عون من لدن احد من المستشارين البريطانيين ، ولو ان التنظيم الاولي والاداري لذلك ، قد تم بمساعدة احد الاخصائيين الانكليز .

---

(٢١) كانت بريطانيا ، بعد عقد معاهدة ١٩٣٠ مع العراق ، تلح الحاحا شديدا على العراق وتركيا وايران في التوصل الى تحالف فيما بينهم بحجة عدم الاعتداء ولكن الهدف الرئيس من وراء ذلك هو الوقوف بوجه الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية في الشرق الاوسط ولم تلبث معاهدة عدم الاعتداء بين العراق وتركيا وايران والافغان التي عقدت في سنة ١٩٣٥ أن تحولت الى حلف أو ميثاق عرف باسم «سعد اباد» تم التوقيع عليه في قصر سعد اباد بطهران في اليوم الثامن من شهر تموز ١٩٣٧ في عهد الوزارة السليمانية لان وزير الخارجية العراقي الدكتور ناجي الاصيل هو الذي مثل العراق في التوقيع عليه وقد أريد في أول الامر اشراك المملكة السعودية في الميثاق ، ولكن تركيا رفضت ذلك خوفا من الاساءة الى روسيا كما ان السعودية ، رغم رضا بريطانيا بذلك ، اقترحت ان تؤجل انضمامها الى الميثاق الى وقت يكون اكثر ملاءمة لذلك ، والمعروف ان هذا الميثاق كان الركيزة الاولى لقيام حلف بغداد العدواني الذي أوجده الانكليز وسانده الامريكيون في سنة ١٩٥٤ والذي قضت عليه ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بعد ان انسحب العراق منه وهو البلد العربي الوحيد فيه .

كان تأكيد فيصل على توطيد علاقات العراق الخارجية ، يمثل اخلاصه الواضح لرغبته في أن تصبح تلك العلاقات حسنة • فقد كانت مبادؤه الاساسية تقوم اولا : على الصداقة العربية الانكليزية ، من دون التضحية بالحقوق العربية ، ولغرض ان يظفر بالدعم البريطاني في عملية تحرير البلدان العربية الاخرى • وثانيا اقامة علاقات حسنة مع بلدان الشرق الاوسط • وثالثا الالتزام تجاه عرب سوريا وفلسطين • فاذا لم يستطع ان يعمل المزيد في سبيلهم ، فانه كان يسعى الى خلق العطف عليهم ، والدفاع بحماسة نيابة عنهم • واخيرا فانه كان يأمل في اقامة وحدة بين العراق وسوريا ، متى ماظفرت البلدان بالاستقلال •

لم تستمر هجمات قبيلة المطير والوهابيين بصفة عامة ، على الحدود العراقية • ولقد وقعت حوادث مماثلة على الحدود مع شرقي الاردن ، ولكن القوة الجوية البريطانية وضعت نهاية لتلك الحوادث ايضا • ففي البداية كانت هذه الغارات صغيرة ، كما وقع ذلك في العراق • لكنها مالبثت ان ازدادت ضراوة ، واتسع نطاقها • ولما كانت الشرطة المحلية لاتستطيع معالجة تلك الغارات بشكل تام ، فقد اضطرت القوة الجوية البريطانية بالتدريج ، ان تشارك في دور دفاعي اوسع •

كان من حسن الحظ ان شاهد احد العرفاء الجويين ، الذين كانوا يقومون بجولة استطلاعية ، اعظم فريق من القوات المعتدية وقد احتلت الميدان • وفي الوقت المناسب قبل ان تصل الى هدفها ، حيث شجعتها على ذلك المصادمات التى وقعت على الحدود • وبفضل التحذير الذى اعطاه ذلك الطيار ، قامت احدى الوحدات المصفحة التابعة للقوة الجوية ، بتدمير تلك القوات الغازية تدميرا تاما في معركة واحدة • وهكذا وضع مقتل جملة مئات من الوهابيين ، نهاية للغارات المفاجئة التى كان يقوم بها

المتعصبون في الجزيرة العربية ، وادى ذلك الى ايقاف مثل تلك الغارات. واذ عرف حملة البنادق من رجال القبائل ، منذ ذلك الوقت وما بعده ، ان عليهم ان لا يسيروا لمحاربة هذه القوات العصرية .

لقد كانت لهجمات الوهابيين اهمية تجاوزت رغبتهم الواضحة في الثراء عن طريق النهب ، وعلى حدة من الغيرة الدينية . ففى خلال قرن سابق من الزمن ، او مايزيد عليه قليلا ، كان الوهابيون يقومون من الجزيرة العربية بغارات على العراق ، وعلى الحجاز . وفي كل حالة من هذه الحالات كان حاكم نجد ، رئيس الاسرة السعودية ، هو الذى يشجعهم على ذلك في اول الامر ، غير انه مالبث ان وجدهم خارج نطاق سيطرته .

ففى القرن التاسع عشر ، وفي سنى العشرينات من القرن العشرين، ظل الهاشميون حكام مكة يعانون من هجمات الوهابيين . غير ان ذلك كان يحدث حسب ملاءمة الظروف والاحوال .

ففى اولى الهجمات كان الامير السعودى يزعم ، مثلما ظل عبدالعزيز يفعل ذلك حتى وفاته ، بأنه «مطوق ومضايق» بتلك الغارات . فقد كان رجاله يهاجمون سكان المدن ، ورعاة الاغنام المجاورين لهم ، لانهم كانوا يمثلون شيئا لا يقدرون على تحمله ، ويثير حنقهم اثارة عميقة ، وكانوا يعتبرون انفسهم مصيبين من وجهة نظرهم . لقد كان عملهم ذاك يمثل آخر استجابة من العالم البدوى القديم ازاء المدنية العصرية .

لقد قيل ان تأثير الغرب على الشرق قد ادى بكثير من الناس الى ان يفقدوا كل شيء ، ماخلا المعنى الغامض المجرد لبعض العادات . غير ان هذا التأثير الغربى على حدود الجزيرة العربية ، كان حتى سنى

الثلاثينات ، من الامور البسيطة بالنظر الى وجود اقطار تحيط بالجزيرة العربية ، كانت تقف بمثابة حواجز امام الغرب • ولذلك كان عبدالله وفيصل ، وشعباهما ، يعتبران من البلدان المتفرنجة بالنسبة الى أواسط الجزيرة العربية •

× × ×

انتهى الانتداب البريطاني على العراق ، والذى اثار فرح فيصل وزهوه ، في شهر تشرين الاول سنة **١٩٣٢** • وعلى ذلك كانت الزيارة الرسمية التى سيقوم بها فيصل لملك بريطانيا «جورج الخامس» ، تمثل دلالة للوضع الجديد ، وتعبيرا عن كل جهوده • ولقد بدا وكأن الضجر الذى كان يظهر على وجه فيصل ، وسلوكه في السنوات الاخيرة ، قد غادره الآن • كان لديه ميل دائم منذ زيارته الاولى ، الى ان يقضي اوقات استراحته في اوربا • وقد استعمل في احدى تلك الزيارات لقب «الامير اسامة» لدى طائفة من اصدقائه الشرقيين والفرنسيين ، وبينهم بعض النساء ، وذاك وضع لم يستطع ، بل لم يكن من السهل عليه ان يستمتع به بانطلاق في الشرق •

كان فيصل على الدوام صاحب خلق عاصف ، لا يمزح الا قليلا بالنسبة الى الحوادث التى تقع اثناء السفر • ويقول طبيبه سندرسن باشا ، انه حدث ذات مرة في احدى السفن ان ظهر احد المسافرين ، وهو اوربي اعتنق الاسلام ، وهو يدخن سيجارا ، فما كان من فيصل الا ان قال لسندرسن ساخرا «اسرع واجلب آلة تصويرك ، وصور هذا المسلم المتزمت ! » • وكان فيصل يسخر من الطريقة التى كان يرتدى بها القبعات المفرطحة وبدلات الملابس البيضاء الكاملة التى ارتداها لاول مرة عند وصوله الى انكلترا •

كانت زيارته الرسمية للمدن ، تمثل نجاحا منقطع النظير ، وقد سارت ـ مثلما تكون عليه امثال هذه الزيارات ـ بدقة الساعة ،واستمتع فيصل كثيرا بمكوثه في اسكتلندا ، بعد تلك الزيارة • غير ان الامور في العراق كانت ابعد من ان تكون جيدة • فحين اصبح الاستقلال التام قضية فعالة ، وتم عرضه امام عصبة الامم ، طرحت بعض الهيئات اسئلة مناسبة عن سلامة الاقليات في العراق ، ولا سيما الاقلية المسيحية ،والاقلية الآثورية ، وراحت تبدي توقعات كالحة حول المستقبل(٢٢) • وفي غضون اشهر قلائل من انتهاء الانتداب ، والذى ظل فيصل يتطلع اليه مشوقا طيلة عشر سنوات ، برهنت تلك المخاوف على صوابها ، وكانت ضمانات البريطانيين ابعد ماتكون عن التفاؤل •

كان السبب المباشر لهذا الاضطراب الاول الخطير في العراق المستقل هو الضابط «بكر صدقي» • كانت المرة الاولى التى رأيته فيها ، لا تزيد عن بضع دقائق • كنت انتظر في احدى الامسيات في «فندق مود

(٢٢) كانت قضايا الاقليات وما تزال حتى الآن من الوسائل التى يلجأ اليها المستعمرون ويثيرونها ولا سيما بوجه البلدان الضعيفة النازعة الى الاستقلال والتحرر • وما عدا تشبث الانكليز والفرنسيين ، وحتى الروس والالمان من قبلهم ، باعلان حمايتهم للاقليات المسيحية في العراق وغيره من البلدان العربية الاخرى ، فقد كانت الطائفة الاثورية التى جاءت العراق مهاجرة من تركيا في أوائل القرن الحالى ، من بين الطوائف الاخرىالتى ركز المستعمرون الغربيون انظارهم عليها واستغلالها لغرض التدخل في الشؤون الداخلية العراقية • ولذلك كانت الهيئات الغربيــة التى أثارت موضوع سلامة الاقليات في العراق بعد اعلان استقلاله وانضمامه الى عصبة الامم ، تقصد من وراء ذلك اثارة الشغب والتمرد ، بحيث لم يتأخر وقوع مثل هذا التمرد بعد استقلال العراق الا أياما معدودة •

الجديد» الصغير الذى يقع عند الجسر في بغداد ، احد ضباط شعبة الاستخبارات التابعة للقوة الجوية البريطانية • واذ استدرت من الشرفة المطلة على النهر ، وكانت الشمس ماتزال ساطعة ، الى غرفة صغيرة باردة تحت الارض ، رأيت رجلا عراقيا متوسط العمر ، وذا شكل غير جذاب، يجلس هناك لوحده ، وهو يحتسي «الويسكي» • كان قفا رأسه مسطحا، ورقبته غليظة ، وشفتاه تدللان على شدة الحساسية ، ووجهه ومحياه صارمين بشكل فظيع • لقد كان وجه انسان ولد لكى يصبح مجرما • كان انطباعى عنه شديدا جدا ، الى درجة اننى افضيت بذلك الى صديقى عندما اتى ، ورحت اهمس مستفسرا عنه • لم يكن صديقى ليعرف عنه شيئا ما ، سوى انه أحد الضباط الكبار في الجيش العراقى ، وان اسمه «بكر صدقي» ، وقد قيل عنه ان الامير غازي يحبه ، ويلتقي به في اغلب الاحيان •

كان موقف الجيش العراقى من الآثوريين يعود بصفة جزئية ، الى دخولهم حديثا الى العراق في اعقاب مغامرة مخيفة • فقبل الحرب العالمية الاولى ، كان الآثوريون ، وهم من سكنة الجبال ، يقطنون في منطقة «حكاري» داخل الاراضى التركية ، وهى منطقة لاتوجد طرق فيها ، وتقع في زاوية محصورة بين العراق وتركيا وايران ، وترتفع قمم الجبال فيها الى حوالى اربعة عشر الف قدم • وكان البعض من الآثوريين يسكنون السهول ، ويعيشون الى الغرب من بحيرة «وان» ، في حين سكن قسم ثالث منهم بين الاكراد ، في المناطق التى تقع جنوبى «حكاري» والتى تدخل الآن ضمن الاراضى العراقية •

كان يزعم ان هؤلاء الآثوريين قد هاجروا من العراق بعد سقوط

مملكة «اور» في حدود سنة الفين قبل الميلاد[٢٣] وهم يتحدثون باللغة السريانية المشتقة من اللغة الارامية ، وهي اللغة التي كان المسيح يتحدث بها ، وما تزال مستعملة الى الآن في صلواتهم الكنائسية • ويدعى بطريركهم المشهور «مار شمعون» أو الاسقف شمعون ، وهو لقب ينتقل من الخال الى ابن الاخت • وكان مارشمعون يعتبر بطريرك الشرق ورئيس الكنيسة النسطورية •

لم يكن يعرفسوى الشيء الضئيل عن الآثوريين الا في سنة ١٨٨٦، حين ارسلت اليهم بعثة اوفدها اسقف كنتربري في بريطانيا ، للتغلغل بينهم بقصد «تعزيز الكنيسة القديمة وتنويرها •••• وانها لن تسحب ايا من رعايا كنيستك» كما ورد ذلك في الرسالة التي وجهها اسقف كنتربري الى المار شمعون آنذاك •

وعندما وقعت الحرب العالمية الاولى وجد الاثوريون ان الفريقين المتحاربين كانا يتوددان اليهم • وفي الاخير اعلن الاثوريون الحرب ضد

---

(٢٣) هذا الزعم باطل ولا أساس له من الصحة • ذلك لان سكان العراق القدماء ، سواء كانوا من السومريين أو البابليين أو الاشوريين ، قد امتزجوا مع الاقوام الاخرى التي سكنت العراق امتزاجا قويا بحيث غدا من الصعب تحديد اصولهم واعرافهم • غير ان عملاء الاستعمار ، وعلى الاخص الانكليز والفرنسيين ، ما فتأوا منذ القرن التاسع عشر يحاولون ايهام هؤلاء الاثوريين بأنهم هم نفس الاشوريين الذين كانوا يسكنون شمالي العراق ، ويحرضونهم على الثورة والعصيان ، ويعدونهم بالاستقلال مثلما حدث ذلك في سنة ١٩٣٢ـ١٩٣٣ علما بأن هؤلاء الاثوريين لم يكونوا من سكانالعراق وانما نزحوا اليه من منطقة حكاري في تركيا قبل الحرب العالمية الاولى •

تركيا ، ولكن القوات القوقازية التى ارسلها الروس لمساعدتهم ، لم تصل اليهم بسبب تربص الاكراد بهـا ومهاجمتها • واذ تحقق الاثوريون ان المساعدة الروسية الموعودة لن تصل اليهـم ، قرروا ان يشقوا طريقهـم منحدرين ، للانضمام الى القوات الروسية ، على مقربة من بحيرة اورميا هم وعوائلهم ، وقد بلغ عددهم زهاء اربعين الف مقاتل •

ادت الثورة الروسية في سنة ١٩١٧ الى انهيار الجبهة الروسية ، وتشجيع الايرانيون بالانباء المغرية الخادعة التى وصلت اليهم من الجبهات الحليفة ، فطلبوا الى الاثوريين الاستسلام لهـم والقـاء سلاحهم • ولقد نجح احد ضباط القوة الجويـة البريطانيـة في الوصـول الى الاثوريين المعسكرين عند بحيرة «اورميا» بعد طيران جريء ، وهناك وضع لهـم خطة ، وان كانت ناجحة اول الامر ، الا انها انتهت بتراجعهم ،وانضمامهم الى القوات البريطانية في ايران •

واثناء مرورهم عبر الاراضى التى يسكنها اعداؤهم الاكراد ، فقدوا اكثر من ثلث عددهم • كانوا يريدون الاشتراك في الحرب الى جـانب الحلفاء ، غير ان هذا الامر جاء عندما اوشكت الحرب ان تنتهي ، ولذلك لم يبق امامهم من شيء سوى العيش في معسكرات لاجئين واسعة اقيمت لهم في مدينة «بعقوبة» في العراق • ولقد دعيت البلدان القائمـة خارج العراق ، ومنها مجموعة بلدان الكومنولث البريطاني لقبول اولئك الاثوريين فيهـا ، غير ان اكثرية تلك البلدان لم ترحب بهـذه الفكرة ، كمـا ان اكثرية الاثوريين انفسـهم لـم يرغبوا في الذهاب الى بلاد غير معروفـة لديهـم •

وعلى هذا فلم يبق امام المندوب السامي البريطاني في العراق ، الا ان يبذل اقصى جهوده لاسكانهم في الحدود الشمالية لولاية الموصل ، حيث تتوفر هناك اراض غير مأهولة ، وحيث استخدم البعض منهم من قبل الانكليز لصيانة الامن في المناطق الكردية ، اذ جندوا في صفة قوات مرتزقة تتناول مرتباتها من البريطانيين مباشرة •

ومثل غيرهم من اللاجئين فقد كان من العسير مساعدة هؤلاء الاثوريين • وقد ظهر ان هناك اكثر من ثلثمائة عائلة اثورية غير موطنة عندما اعلن انتهاء الانتداب البريطاني على العراق • وعندما شرع بتسريح قوات المرتزقة تدريجيا ، اتجه الاثوريون الى العمل في الزراعة ،ومرافق السكك الحديدية ، وتعاطي اعمال البيع والشراء • كما ان البعض منهم قد التحق بالجيش العراقي ، وبقوات الشرطة ، وبهذه الوسيلة تمت عملية اسكانهم وتوطينهم بنجاح ، ولو ان ايا من الفريقين ، الاثوريين والحكومة العراقية ، لم يكن قد تبسط في افكاره او زالت شكوكه ضد بعضه البعض الآخر •

وفي سنة ١٩٣١ ، وحين خشيت لجنة الانتداب الدائمة على سلامة الاقليات في العراق ، في اعقاب انتهاء الانتداب ، حضر المندوب السامي السر فرنسيس همفرز اجتماعات تلك اللجنة بنفسه ، وبدأ حديثه اليها متسائلا « هل يكفي لاحد البلدان ان يمثل بصفة خارجية مظهر دولة منظمة ليستخلص من ذلك بأن تلك الدولة قد ظفرت بالنضج السياسي ؟ »• وجوابا على تساؤله هذا فقد اوضح المندوب السامي ، بأنه نظرا للمعاناة، وتحقيق المسؤوليات الثقيلة الملقاة على عاتقه ، فانه يستطيع ان يؤكد بأنه

خلال ثلاثين سنة من التجربة في البلدان الاسلامية لم يلاق مثل هذه المعاناة ، من قبل العروق والديانات ، مثلما لاقاه في العراق •

ولقد كان يعزي هذا الامر بصفة جزئية الى حقيقة ان المسلمين واليهود والمسيحيين ، اعتادوا ان يعيشوا في تواد سوية ، وفي نفس القرى، طيلة قرون عديدة • ومن ثم اعلن المندوب السامي ان حكومة جلالته قد تأكدت بصفة تامة من مسؤولياتها للايصاء بضرورة قبول العراق في عصبة الامم ، لان ذلك - في نظره - هو السبيل القانوني الوحيد لانهاء الانتداب ، فإذا مابرهن العراق على عدم استحقاقه لهذه الثقة التي وضعت فيه ، فان المسؤولية الاخلاقية يجب ان تظل في يد حكومة جلالته ، وانها لن تحاول ان تحيل تلك المسؤولية الى لجنة الانتداب مرة اخرى[٢٤] •

كان هذا هو اساس ماحدث في سنة ١٩٣٣ ، وفي اثناء غياب فيصل الاول عن العراق في اوربا ، عندما قام الفريق بكر صدقي بانزال ضربة قاضية بالاثوريين المتمردين ، ولا سيما في قرية «سميل» في محافظة الموصل • اما تحديد من هو الذي بدأ باطلاق النار عند الحدود السورية في اليوم الاول من شهر آب من تلك السنة ، فان ذلك لم يكن يبرر المذابح التي وقعت بين الطرفين ، الجيش العراقي والمتمردين الاثوريين•

---

(٢٤) وعلى هذا الاساس وقتت العناصر الاستعمارية توقيتا دقيقا ، قيام التمرد الاثوري في شمالي محافظة الموصل في الوقت الذي قررت فيه عصبة الامم ان العراق قد برهن على قدرته واستعداده لنيل الاستقلال ، والظفر بحق الانتماء الى العصبة ذاتها ، حيث تولت جهات انكليزية وفرنسية ، وبعض المنظمات المسيحية داخل محافظة الموصل ذاتها ، تحريض الاثوريين على الثورة ، عن طريق التلويح لهم بالاستقلال وما شابه ذلك من وعود كاذبة عرفت عن المستعمرين في كل وقت ومكان •

في اليوم الاول من شهر آب وصل حكمت سليمان وزير الداخلية الى مدينة الموصل محمولا على متن احدى طائرات القوة الجوية البريطانية • كان حكمت سليمان تركيا اكثر منه عربيا • طويل القامة ، نحيف الجسم • وقد بقي في صفوف المعارضة ، واشترك مؤخرا مع بكر صدقي في الانقلاب • كان حكمت هو اخ القائد الشهير محمود شوكت احد زعماء « جمعية الاتحاد والترقي » في اسطنبول • وكان نفسه رجلا طموحا •

كان المندوب السامي السر فرنسيس همفريز في ذلك الوقت يتصيد في المياه الاسكندنافية ، فلم يمكن الاتصال به مباشرة • وكان فيصل قد جاء الى سويسرا في اعقاب زيارته الرسمية الناجحة لانكلترا • واثناء مكوثه هناك ، اقلقته البرقيات الواردة من العراق • ورغم حاجته الماسة الى الراحة ، فقد سارع في العودة الى بغداد في اسوأ وقت من اوقات اشتداد الحر في منتصف فصل الصيف •

كان الاعتقاد السائد لدى الساسة والعوام في بغداد بأن البريطانيين سوف يقفون الى جانب عملائهم الاثوريين ، ولذلك انطلقت موجة من المشاعر القوية ضد البريطانيين ، وضد فيصل نفسه ، والذى قيل عنه بأنه كان اداة بيد البريطانيين • كان فيصل رجلا شديد الاضطراب في تلك الايام ، ولم يعد يعرف للنوم طعما قط ، ولهذا راح يخفف عن نفسه بالادمان على تناول القهوة ، وتدخين السكاير • ولقد ذكر عنه بأنه كان قد ابدى حتى رغبته في التنازل عن العرش ، ولم يتم اقناعه بالمكوث في البلاد ، الا بمشقة ، الى ان عاد السر همفريز آنذاك الى بغداد •

كانت الصحافة العربية مشتطة في احاسيسها ضد الاثوريين • وقد وجد حكمت سليمان نفسه يرتقي الى مرتبة البطل القومي العظيم الذي حطم نفوذ البريطانيين • وحين عاد السر فرنسيس همفريز في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب ، اوضح بأن البريطانيين ما يزالون يؤيدون العراقيين في صيانتهم لاستقلالهم ، وبذلك بدأ التوتر يخف نوعا ما • اما زعيم الاثوريين «مار شمعون» فقد تم نقله الى «قبرص» للحفاظ على حياته ، وخصص راتب تقاعدي لعائلته • وفي الوقت ذاته اعتبرت العامة في العراق «بكر صدقي» من الابطال الفاتحين • واسوأ من هذا كله ان الحكومة العراقية رفعت درجته العسكرية ومنحته الاوسمة •

راح حكمت سليمان يبذل قصارى جهده لطمس كل ماحدث • ومع ذلك فقد اعترف المندوب العراقي في عصبة الامم بجنيف ، بوقوع بعض التجاوزات من لدن الجيش العراقي على الاثوريين • كان فيصل مريضا جدا وبشكل جلي • وقد ساءت حالته لدى احساسه بتناقص شعبيته ، ذلك لانه قدر عدم حدوث احتفاء حافل به لدى عودته الى بغداد•

هناك واحد من آخر الموظفين البريطانيين الذين شاهدوا فيصلا قبل عودته الى اوربا • وكان ذلك الرجل هو قائد القوة الجوية البريطانية ، الذي شكره فيصل مجددا على ماقامت به القوة الجوية البريطانية ، لحماية مملكته • وهكذا غادر فيصل البلاد الى اوربا ، دون ان يلاحظه احد ، في اليوم الثاني من شهر ايلول ، عاد الى سويسرا ، حيث توفي هناك بعد خمسة ايام نتيجة اصابته بجلطة دموية •

ونظرا لان الاذاعة ذات الموجات الطويلة ، هي الاذاعة البريطانية

وحدها في ذلك الوقت ، فقد كنت انا اول شخص في بغداد يسمع بنبأ وفاة فيصل .

كان الضابط الذى يقوم بواجبه الليلى في مقر القوة الجوية البريطانية بمعسكر «الهنيدى» ، على بعد سبعة اميال من بغداد ، قد اتصل بي هاتفيا ، وطلب الي ان ابلغ السفارة البريطانية بأن فيصل قد توفى نتيجة توقف قلبه عن الخفقان في مدينة «برن» بسويسرا .

حملت جثة فيصل على ظهر سفينة بريطانية الى بيروت ، ومن هناك نقلت على متن طائرة من طائرات القوة الجوية البريطانية . وقبل وصولها بمدة ساعة ، كانت شوارع بغداد قد اكتظت بالناس ، وكانت الاكثرية منهم تعول باكية ، ومن دون ان تستطيع حبس دموعها ، كما تجمعت النساء المتحجبات والملتفات بالعباءات في الشرفات وعلى سطوح المنازل ، وانطلقن في البكاء والعويل .

وحين وصلت الطائرة الى المطار ، وتحرك نحوها الموظفون والجنود الذين كانوا في الانتظار ، بدأت الحشود الواقفة خلفهم تتجمع وتتكأكأ ، واخذ صدى صراخهم وعويلهم يتردد في انحاء المدينة[٢٥] في نشيج عاطفي متواصل .

رفعت جبهة الطائرة من قبل رجال الجو ، واخرج منها التابوت ، ثم حمل بيسر على اكتاف ثمانية من كبار الضباط العراقيين ، ووضع على

---

(٢٥) كنت من بين الذين شهدوا نقل جثمان فيصل من المطار عبر شارع الصالحية فالجسر ، الى شارع الرشيد حتى البلاط الملكى فالمقبرة الملكية . وقد صحبت الموكب حتى ساحة البلاط .

عربة مدفع نقلتـه عبر المدينـة الى المقبرة الملكيـة التى تبعد زهاء سبعة اميال • وفي الوقت الذى اخذ فيه الموكب يشق طريقه ببطء عبر المدينة، مصحوبا بأصوات الجماهير المنتحبة ، انضمت الحشود المتراكمـة في الشوارع الى الموكب ، وراحت تضغط عليه ، وسرعان ما اضطرب نظام سيره ، واضاع كثير من كبـار الموظفين العراقيين ، والانكليز ، وممثلى الاجانب مواضعهم فيه ، وضيق الخناق عليهم ، فاضطروا الى الخروج من نطاق الموكب ، واصيب عدد منهم برضوض فنقلوا الى مضاجعهم، وامضوا عدة ايام قبل ان يتم شفاؤهم •

تعتبر المشاركـة في ايصال الميت الى مثواه الاخير ، مـن الامـور المشرفة في بلاد الشرق • ففى الحالات التى يكون فيها التشييع ضيقا ، تحمل الجنازة عبر ازقة المدينة ، وربما عبر الاسواق ايضا ، وهي في طريقها الى المقبرة ، ولذلك ينضم الى موكب الجنازة اولئـك الاشخاص الذين يعرفون هوية الميت ، او المنضمين الى الحرفة التى كان يحترفها ، او الذين يودون ان يقوموا بمثل هذه الالتزامات الدينيـة ، فيعرضون اكتافهم لحمل الجنازة لفترة ما من الطريق ، ويروحون ينطقون بعبارات مقبولة عادة من السامعين •

وكثيرا ما يغادر هؤلاء المشيعون الجنازة وهى في طريقها ، ولا يبقى منهم سوى المتظاهرين بالتقوى الذين يحملون على اكتافهم ذلك الحمل الثقيل • وحين يصلون الى مفترق الطرق يسأل احدهـم الآخـر عـن الطريق الذى ينبغى سلوكه• لقد قيل عن العرب بأنهم ماديون غيرعاطفيين• ولكن الآراء متباينة حول معنى كلمة «العاطفة» هذه • فالتفاسير الاعتيادية لهذه الكلمة هى «الميل الى التأثر بالاحساس ، بدلا من العقل ، وتربيـة العواطف» •

ولذلك فان تصرف العـرب عنـد حدوث الوفاة ، او ما بعدهـا ، وأحيانا حين اقترابها ، يغدو شاذا بالنسبة الى الآخرين .

ومع ذلك فان رجال الطبقات العليا ونساءهم ، في الجزيرة العربية، يتلاءمون مع العادات الاوربية حين يكونون في بيوت اوربية ، وان من العسير التصديق بأنهـم من نفس ذلك الشعب الذى يتأثر بالعواطف ، وتغلب عليه الفوضى وعدم الانتظام . فحين كان كل افراد المدينة والريف معولين باكين ، كما حدث عند وفاة فيصل الاول ، ومن ثم عند وفاة غازي فيما بعد ، يصبح هذا المشـهد بالنسبة الى الاوربيين ، شاذا وخارجـا عن المألوف حقا .

× × ×

الفصـــل الثـــالث

الشباب ... يمضي سراعـا

الاحداث التى اعقبت وفاة فيصل الاول

انقلاب بكـر صدقي ونهايته ومصرع غـازي

« لقد غدا واضحا تمامـا ، بأنه حتى وان لم تشترك »
« اليد المخولة الوحيدة في مثل هذه المؤامرات الشاقة »
« لتنحيتـه ، أي غـازي ، فـلا بد مـن ان تتوفـر »
« الفرصة، بل وحتى اقدام قوة اخرى على التدخل في »
« هـذا القـرار ، وذلـك دور ، والحالـة هـذه . »
« لا بد وان يقوم به الجيش .... »

لونغرغ في كتابه « العراق ١٩٠٠ـ١٩٥٠ »
S.H. LONGRIGG: IRAQ 1900-1950

قبل ان يتولى العرش بأيام قلائل ، كانت شهرة «غازي» ، الملك الجديد ، قد طبقت الآفاق ، وذلك نتيجة العواطف التى اثارتها المذبحة التى اوقعها «بكر صدقى» بالاثوريين .

ففى السابع والعشرين من شهر آب ١٩٣٣ ، ذهب «غازى» الى الموصل في جولة تفتيشية يرافقه فيها كل من رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني ، ووزير الداخلية حكمت سليمان .

كانت عواطف الاهالى ماتزال في درجة الغليان في حاضرة الشمال ، وان ادنى حادث يقع قد يؤدي الي حدوث مذبحة للمسيحيين ، ذلك ان التوتر الذى خفت حدته ، بعد عودة السر فرنسيس همفريز ، المندوب السامى ، الى بغداد ، لم يتوفر له الوقت لكى يخف في الموصل .

ما ان دخل ولي العهد غازى مدينة الموصل حتى استقبل بالترحاب المتواصل ، والهتافات الحقيقية ، التى كانت تنادى « ليسقط البريطانيون ، ليسقط المستعمرون » .

وما ان شاهدت الجماهير قوات الجيش ، حتى تعاظمت حماستها لها وللامير . ولكن اسم والده لم يذكر حتى ولا مرة واحدة !.

قام ولي العهد بكل رزانة ووقار ، بتوزيع الاوسمة على بكر صدقى، وقادة الجيش المنتصرين .

وكان من بين الشخصيات البارزة بين الحاضرين ، «عجيل الياور»

شيخ قبيلة «شمر» التى قدم افرادها ، قبل ايام قلائل ، لمواصلة نهب القرى الآثورية التى بدأها الجيش[1] •

ومع ان زيارة غازى للموصل لم تكن متعمدة ، الا انها في الواقع ادت الى توجيه التيار بشكل خطر • ففى خلال اسبوع بعد تلك الزيارة اصبح غازى ملكا على العراق ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وغير متزوج •

كان غازي جريئا وظريفا معا • كما كان ايضا رئيسا صالحا للشموخ السياسى والجسمانى • ولقد تأكدت من هذه الصفة فيه ، عندما تسلقت معه الطريق الضيق المتهدم الذى يؤدى الى قمة منارة سامراء • فما ان بلغنا اضيق نقطة فيها قريبة من القمة ، حتى اخذت الح عليه بأن يتوقف عن الصعود ، لكنه رفض ان يتوقف ، واستدار حول آخر دورة من المنارة ، وتسلق قمتها العالية جدا •

لقد كان من الخطر جدا بالنسبة الى آى انسان ، ذى عقلية جيدة بشكل استثنائى ، بأن يقدم النصح حقا الى امير مايزال فتى وغير متزوج، فلو سقط الامير فان مصير الرجل الانكليزى الذى كان يرافقه : لابد ان يكون قصيرا ، ومن دون ان يحسد عليه !•

كان المنظر من فوق قمة المنارة شاعريا • فقد كان نهر دجلة يتلوى عبر الصحراء ، وهو في لون الفضة بين الضفاف الغارقة في السهل الذى يمر بالمدينة الصغيرة المسورة بقبابها ومنائرها •

---

(١) هذا دس مفضوح من المؤلف • فلم يثبت اقدام الجيش العراقى على نهب القرى الاثورية بعد هروب العصاة المتمردين منها • كما ان مضارب قبيلة شمر بعيدة جدا عن القرى الاثورية ، لان ابعد المضارب الشمرية في اقصى الشمال لاتتعدى مدينة سنجار •

كان الامير الفتى منفعل الاحاسيس • وكان وجودي فوق برج سامراء العظيم ، مع امير متهور ، قد ذكرني بمشاهد من المغامرات التي كانت تحفل بها القصص الخيالية في بريطانيا خلال القرن الثامن عشر •

لقد كنت اتوقع نشر بدايات هذه المغامرة من اخ الملكة[٢] ، الذي كان يكافح هو الآخر لتسلق البرج وراءنا •

وفي النهاية لم يكن اهل سامراء ، او ضيوف «الخليفة» ، هم الذين اغاضوا غازي ذلك الامير العنيد ، وانما كان الذين اغاضوه هم ملاحو القوة الجوية الملكية ، الذين كانوا يتناولون غداءهم خلال نزهة في باحة المسجد المتهدم • وقد كان السحر الوحيد الذي افتتن به الامير ، هو طيرانه معهم عائدا الى بغداد •

× × ×

حدثت خلال السنوات العشر التي انقضت على قيام الملكية في العراق، تغييرات كبيرة في العاصمة وفي اوضاع سكانها • فلقد اصبح الشبان مقتنعين الآن بأنهم قد غدوا متمدنين ومتعلمين • ويبدو ان التعليم كان مهما بالنسبة لهم •

عندما وصل والد غازي الى بغداد كانت معرفة الكتابة ماتزال تمثل سرا بالنظر الى معظم افراد شعبه • وكان الكتبة الذين كانوا يكتبون للجمهور ، يجلسون القرفصاء في صفوف خارج الدوائر الحكومية •

---

(٢) اي عبدالاله الذي حاول هو الآخر تسلق المنارة التي تخص المسجد الكبير الذي شيده المعتصم في سامراء ، والتي تعرف لدى العامة باسم « الملوية » •

اما في هذه الايام فقد اصبحت كلمة «مدرسة» تدور على كل لسان .
لقد كانت كلمة «المدرسة» تعني بنايات حديثة يدرس فيها الشبان ، وقلة من الفتيات ، الموضوعات الاعتيادية .

لقد كان الجميع يعتنون بذلك عناية جدية ، ويتطلعون الى المستقبل .
وكان يحدث في بعض الاحيان ان يقتل التلاميذ اساتذتهم ، اذا ما اخفقوا في الامتحان[٣] .

وقد حدث ذات الشيء في الجيش . فقد قتل واحد من ألطف ضباط الاركان واحسنهم ، هو العقيد «محمد السبتي» ذو العينين الزرقاوين ، على يد ضابط شاب[٤] كان قد اخفق في امتحانات كليـة الاركان . وقد استعمل القاتل قنبلة يدوية مزقته هو والقتيل اربا اربا .

لقد كان لهذه التغييرات الكثيرة التى حدثت خلال عشرة اعوام تأثير مسر على الشباب . وكل ماهو جديد وفتي كان حسنا . وكان غازي هو الملك الجديد والفتي . وعلى ذلك يجب ان يكون حسنا . ولهذا كان يقابل بالترحاب ، حيثما ذهب .

---

(٣) يقصد المؤلف بذلك حادثة كلية الحقوق حيث اطلق الطالب داود البياتي ، الذى رسب في الامتحان ، النار من مسدسه على استاذه المصرى الدكتور حسن سيف فارداه قتيلا في الحال ، وحين حاول الدكتور المصرى محمود عزمى التدخل عاجلهالطالب باطلاقة لم تصب منه مقتلا ثم وجه الطالب فوهة مسدسه الى رأسه فمات منتحرا . وقد وقعت هذه الحادثة في يوم ٢٠ حزيران سنة ١٩٣٨ .

(٤) كان محمد السبتي آمرا لكلية الاركان العراقية ببغداد وقد قتلَ بيد النقيب «جلال ونه» الذى رسب في الامتحان النهائى واعتبر «السبتي» مسؤولا عنرسوبه ولذلك حملَ «جلال ونه» قذيفة مهداد ربطها على صدره ثم دخلَ على الآمر محمد السبتي فأمسـك بـه بقوة الى ان انفجرت القنبلة فقتلتْ الاثنين معا .

يقول «لونغريغ»[٥] عن غازي بأنه كان « جم النشاط ووطنيا متحمسا ولطيفا • ولقد كان محبوبا من لدن الجمهور ، ولدى الشبان من الضباط العراقيين• لقد تعلم ـ بعد فترة غير موفقة ـ في كلية «هارو»• لكن افتقاره الى الاعداد الذهني ، والاهتمام بالشؤون العامة ،وانغماسه في الملاذ والرياضة ، قد ابعد عنه الامل للتدليل على استعداده لادارة المهام الملكية في العراق » •

وفي خلال ستة إسابيع من ارتقائه العرش ، اقدم الملك الشاب ، وبنصيحة من «علي جودت» رئيس الديوان الملكي على التصدي لاعضاء حكومته ، مما ادى الى استقالتها برمتها •

وفي الشتاء الذى اعقب توليه العرش ، تزوج غازي من « عالية » ابنة عمه الاولى « بنت علي » الملك السابق للحجاز ، وهي فتاة ذات حساسية ملحوظة •

وعندما سقطت الوزارة ، انتقلت رئاسة الوزارة الجديدة الى علي جودت الايوبي رئيس الديوان الملكي ، والذى كان يسعى اليها دون ريب • كما تم دعم مجلس النواب الجديد بمن رشحهم علي جودت نفسه من النواب •

كان «علي جودت» ـ وهو رجل ضئيل الجسم ، ذو شعر متقلص،

---

(٥) ستيفن همسلي لونغريغ صاحب كتاب « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » له كتاب آخر عنوانه « العراق ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠ » لم يترجم حتى الآن ولقد اكملنا ترجمته واعدادم للنشر •

وعينين سوداوين مدورتين - ذا تربية عثمانية ومن مدينة الموصل ، حيث كان يعمل ابوه في سلك الشرطة • ولقد تخرج في الصف السياسي المهني مع رجال من امثال نوري السعيد وجعفر العسكري ، اولئك الذين لا يشبهون اعضاء عائلات «السعدون» و «الكيلاني» وغيرهم من العوائل ، والذين يخسرون الكثير ولا يحصلون الا على القليل ، من وراء الانغماس في الامور السياسية •

بدأ الاضطراب الذي سببه سوء الادارة يتفاقم في الجنوب ، في منطقة الفرات الاوسط • وادى الحديث عن وجود تآمر مسبق الى زيادة النقمة في تلك المناطق وفي المدن سوية •

ولقد حاول «علي جودت» ، ومن دون نتيجة ، ان يحافظ على النظام ، وذلك عن طريق فرض الرقابة ، ومنع الاجتماعات والصحافة ، ولكن الغليان في الجنوب لم يخف بيسر •

ولما كانت مساندة الملك غازي لعلي جودت قد جلبت له الانتقاد ، فقد اضطر الى تغيير الحكومة مرة اخرى ، فأسند رئاسة الوزارة اول الامر ، الى «جميل المدفعي» ومن ثم الى «ياسين الهاشمي» وكلاهما من القوميين ذوي التربية العثمانية ، ومن اتباع الملك فيصل • وكان جميل المدفعي قد شارك في قتل ضابطين بريطانيين في «تلعفر» بشمالي العراق في سنة ١٩٢٠ ، وظل التدخل البريطاني يحول ، لمدة طويلة ، دون تقدمه[٦] •

---

(٦) يشير المؤلف بذلك الى ثورة تلعفر خلال شهري ايار وحزيران سنة ١٩٢٠ ووصول الحملة التي سيرها المرحوم مولود مخلص من دير الزور الى تلعفر بقيادة المرحوم جميل المدفعي •

في مثل هذا الوقت من التغييرات ، وعدم الاستقرار ، سمح الملك لنسر كنهان كورنوواليس مستشار والده بأن ينهي خدمته الطويلة في الحكومة العراقية .

وفي حزيران سنة ١٩٣٦ تم استئصال واحد من الاضطرابات العشائرية المتعددة في منطقة الفرات ، بقسوة على يد « بكر صدقي » آمر الجيش في تلك المنطقة .

ومع ذلك فقد بقيت المنطقة ابعد ماتكون عن الهدوء ، حيث تم تطبيق التجنيد الاجبارى في العراق ، وزيدت القوة الجوية الملكية العراقية الى ثلاثة اسراب ، واستخدم الجيش والقوة الجوية للمحافظة على النظام .

لقد كان التجنيد الاجبارى على رأس المنهاج القومى . ذلك لان انشاء جيش كبير ، هو الرد المقنع على التساؤل عن مدى استعداد البلاد للاستقلال . فقد قيل ان ذلك سوف يضمن الدفاع والامن القومى معا .

ففى تلك الحالة ، وان كان قد تم تحقيق الاستقلال من دون اعلان التجنيد الاجبارى ، طرحت قضية التجنيد بسرعة للنقاش في البرلمان ، وذلك نتيجة الخوف الذى كان يحس به من اعمال التمرد العشائرية ، والتى كانت تشجع آنذاك من قبل حكمت سليمان ومن قبل المعارضة ايضا .

وما عدا الاسباب التى ذكرت بصفة رسمية ، وفي مجلس النواب ، كانت المظاهر الاخرى لقضية التجنيد الاجبارى قد اصبحت مدار الحديث في بغداد . فلقد سألت احد الوزراء ، في احدى الحفلات ، وفي وقت

متأخر ، عن مسألة التجنيد الاجبارى فأجابنى ، بانه امر فاخر ، وان اليهود هم في مقدمة الذين سيدعون الى الخدمة العسكرية، وانهم سيدفعون بدلا عنها ، وان هذا البدل ـ كما قال ذلك الوزير ـ سوف يبلغ خمسمائة الف دينار ، وهكذا يكون التجنيد الاجبارى قد هيأ المال اللازم لنفقاته ، بل ووفر الاموال للبلاد !.

وقال احد ضباط الجيش ان التجنيد الاجبارى امر حسن ، لكنه لم يوضح الاسباب . وحين سألته عما اذا كان يتوقع الترفيع اجاب « اجل ! درجتان على الاقل ! » .

وسألت رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق ، فعرض علي بأن يقدم اضبارته الخاصة حول الموضوع ، والتى كانت تحتوى على رسالة تقع في سبع وثلاثين صفحة طويلة ، مع الاشارة الى اوراق كلية الاركان ، واعمال التطبيق في كل من ايطاليا والمانيا وفي اى مكان آخر ، بالاضافة الى مدونات مؤتمر نزع السلاح ، وتجربته الشخصية هو ، والفرصة المتوفرة للنتائج المرغوب فيها في النهاية .

وسألت شيخ احدى العشائر فقال ان افراد عشيرته يكرهون التجنيد الاجبارى ، ومع ذلك لاحظت بأنه كان يتحدث لصالح قانون التجنيد ، وقد صوت الى جانبه في مجلس النواب في اليوم التالى .

وكان حلاقي ـ وهو في حدود الثامنة والعشرين من عمره ـ من مؤيدى التجنيد الاجبارى . ومما قاله ان بعضا من منافسيه الشبان ـ وان لم يكونوا من الخبراء في الحلاقة ـ سوف يجندون في الجيش[٧] .

---

(٧) يبدو من التعليقات التى نشرها المؤلف عن تطبيق التجنيد الاجبارى
=

تم اقرار قانون الدفاع الوطني في سنة ١٩٣٤ في عهد رئاسة جميل المدفعي ، واصبح نافذ المفعول في السنة التالية • وقد استمرت شعبية الملك غازي تتعاظم لدى الجيل الناشيء الى ان بلغت درجة العبادة • فقد كان الضباط الشباب يحملون صوره ، وظلوا يحتفظون بواحدة منها في مفكراتهم بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ •

ومن ناحية اخرى اخذ الملك يفقد منزلته بين شيوخ العشائر ، وبعض الافراد المتزمتين في المدن ، وذلك بسبب قصر نظره ، وهرب شقيقته «عزة» مع خادم فندق الى جزيرة «رودس» واعتناقها الدين المسيحي(٨) •

اما الحكومة ذاتها ، والتي كان يرأسها ياسين الهاشمي ، فقد كان يبدو عليها بأنها كانت ثابتة ، وان آخر شيء يمكن توقعه هو حدوث انقلاب عسكري ضدها •

في شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٦ كان رئيس اركان الجيش قد ذهب في زيارة لتركيا ، وخلف «بكر صدقي» نيابة عنه •

=

مدى الحنق الشديد الذى شعر به الانكليز تجاه هذه الحركة الوطنية التى استهدفت خلق جيش وطنى كبير • فقد ظل الانكليز منذ الايام الاولى يمانعون في تطبيق التجنيد الاجبارى بقصد الحيلولة دون انشاء جيش وطنى مدرب • وكان اصدار قانون الدفاع الوطنى على يد حكومة المرحوم ياسين الهاشمى في صيف ١٩٣٥ من الاسباب التى اغاضت الانكليز وشددت من نقمتهم على تلك الوزارة ، بالاضافة الى نقمتهم من موقفها الصريح المؤيد للثورة الفلسطينية •

(٨) لم يثبت اعتناق عزة للدين المسيحى انظر قصة عزة في مذكرات سندرسن التى ترجمناها الطبعة الثانية ١٩٨٢ •

ولقد هيأت مناورات الخريف في منطقة ديالى ، الفرصة لتركيز كل القوات المسلحة خارج العاصمة • وكانت المؤامرة التي اعدها بكر صدقي ، وزعيم المعارضة حكمت سليمان ، لا يعرف بها سوى نفر قليل من الضباط ، كان من بينهم الآمر الذي كان يقود احدى الفرق في قرهغان على مقربة من الحدود الايرانية[٩] •

بعث القائدان برسالة الى الملك غازي يطلبان فيها تشكيل وزارة جديدة برئاسة حكمت سليمان ، والذى تسلم تلك الرسالة لايصالها بنفسه الى الملك •

كانت القوة الجوية التي يرأسها محمدعلي جواد الصديق المؤتمن لبكر صدقي ، قد احتشدت هي الاخرى في قرهغان ، وقد زودت بمنشورات لالقائها على بغداد في اللحظة المحددة •

وفي الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول بدأ الجيش يتحرك نحو بغداد •

كان مقر القوة الجوية الملكية البريطانية في الهنيدى[١٠] ، فدخله الشك في ان شيئا ما كان يحدث ، وذلك عندما اقلعت طائرات

---

(٩) هو اللواء الركن عبداللطيف نورى والذى كافأه بكر صدقي لاتفاقه معه على القيام بالانقلاب ، فعهد اليه – عن طريق التفاهم مع حكمت سليمان – بمنصب وزير الدفاع •

(١٠) هو المعروف الآن باسم معسكر الرشيد وكانت القوات الانكليزية التي افتتحت بغداد في الحادى عشر من اذار ١٩١٧ قد ظلت تعسكر هناك الى ان انسحبت من المعسكر وسلمته الى الجيش العراقي في سنة ١٩٣٦ •

القوة الجوية العراقية دون ان تعلن عن الجهة التى تقصدها • وعلى اثر ذلك اصدر قائد القوة الجويـة البريطانيـة ، مارشال الجو «ميتشل» ، اوامره باعلان حالة الانذار ، وبعث بأحد ضباط الاركان الى وزارة الدفاع في بغداد لمعرفة الاوضاع •

غير ان رئيس البعثة العسكرية البريطانية قد اخبر ذلـك الضابط بأن لا داعي للقلق ، مادام جعفر العسكرى وزير الدفاع قد ذهب بنفسه لمواجهة بكر صدقى ، وارجاعـه الى عقلـه ! • وقد رد ذلـك الطيـار يقول « ياله من احمق ! اننا نود ان نرى المسكين «جعفر» على قيد الحياة مرة اخرى ! » • ولما كان رئيس البعثة العسكرية البريطانية من مؤيدى الحركة التى اقدم عليهـا جعفر العسكرى ، فقد حدثت آنذاك لحظـة صمت ، انتهت بانطلاق صوت طائرة محلقة فوق الرؤوس ، اعقبه وقوع اربعة انفجارات على مقربـة من وزارة الدفاع ، واذ ذاك قال الضـابط الطيار « عشرون رطلا ومن ثم سوف تغدو اكثر أمنا على الارض ! » •

كان تأثير هذه القنابل الاربع الصغيرة مشهودا • فقد تدافع الناس للخروج من وزارة الدفاع التى كانت هى الهدف[١١] • ولقد وجـد بعض الضباط ملجأ لهم تحت اقواس بناية قديمة معقودة قبالـة وزارة الدفاع ، لكنهم سرعان ما انتقلوا منهـا عندما وجدوا انهـا كانت مخزنا للمبيعـــات •

وهكذا انتهت على حين غرة كـل الخطط التى اعدت لمواجهـــة التهديد ، لان الذين وضعوا تلك الخطط سرعان ماذابوا •

---

(١١) لم توجه القنابل الى وزارة الدفاع وانما كان هدفها مجلس الوزراء في الدرجة الاولى ، لان احدى القنابل سقطت في الساحة الواقعة امام مجلس الوزراء (مديرية الشرطة العامة في الوقت الحاضر) •

ولما كانت التلفونات قد قطعت ، فقد بدأ ذلك الضابط البريطاني الطيار رحلة العودة الى معسكر الهنيدى لكى يعلم مارشال الجو بحقيقة الامر ، غير ان هذا العمل قد استغرق منه وقتا طويلا ، لانه استدار لكى يتجنب خروج الناس من المدينة •

التقى جعفر العسكرى بالجيش في منتصف الطريق بين بعقوبة وبغداد ، فتم قتله في الحال ، واذ ذاك دخل بكر صدقى مدينة بغداد من دون مقاومة ، واعتُبر بالتأييد الحماسى الذى لقيه من الملك غازى ، بطلا قوميا •

وجد نورى السعيد وزير الخارجية، مأوى له فيالسفارة البريطانية، كما اختفى آخرون كثيرون • ولقد واجهت السفارة البريطانية مشكلة نقل نورى السعيد منها ، عبر المدينة ، الى معسكر الهنيدى ، كيما يستطيع مغادرة البلاد على متن احدى طائرات القوة الجوية البريطانية •

وفضلا عن ذلك فقد اصر نورى السعيد على ان يصحب معه ولده «صباح» الذى هدد بالقتل ، واستطاع الالتجاء الى السفارة المصرية ، التى كانت مثل السفارة البريطانية ، تخضع لرقابة صارمة •

ولا بد ان يكون الرقباء الذين بثهم بكر صدقى ، قد اطالوا التفكير - ظهر ذلك اليوم - في سيارة السفارة البريطانية وهى لا تحمل سوى راكب واحد من موظفى السفارة ذاتها ، ومعه صناديق الرسائل والوثائق، وقد اتجهت الى معسكر الهنيدى لغرض عقد مؤتمر في مقر القوة الجوية البريطانية • فاذا لم يفتح اولئك الرقباء باب السيارة فانهم لن يستطيعوا رؤية نورى السعيد مستلقيا على ارضية السيارة في الخلف وقد غطي بسجادة !•

كانت السفارة المصريــة تقع في ضواحي بغــداد ، عند الطــريق الذاهب الى معسكر الهنيدى من المدينــة • وقد تم ارســال مخبرين الى «صباح» اخبروه بأن ينفذ التعليمات التى اعطيت لــه حتى آخــر ثانيــة من الوقت •

في الساعة الخامسة الا خمس دقائق كان «صباح» وزوجته «عصمت» يقفان خلف باب السفارة المصريــة ، وعلى استعداد للصعــود الى سيارة كانت تسير ببطء ، دون ان يأخذا معهمــا ايــة امتعــة • وقد تم توقيت الساعات عن طريق الهاتف • وقبل ان تمر ساعة واحدة وبضع دقائق ، انطلقت سيارة قديمة من طراز «فورد» كان يقودهــا شــخص مدنــي بريطاني ببطء الى مبنى السفارة المصرية ، وكأنها تريد ان تجلب احــد المدعوين بعد الظهر •

كان التوقيت قد جرى بشكل حسن • ذلك لان السيارة لم تتوقف، لكن «صباح» وزوجته الجريئة قفزا اليها اثناء ماكانت تسير • ومــا ان بلغت السيارة نقطة الحراسة خارج ابواب السفارة حتى شاهد الرجال الموجودون هناك ، وهــم مندهشون ، ان سائق السيارة كان يضــع على رأسه قبعة ضابط في القوة الجوية البريطانية ، كما تم تشخيص الراكبين في المقعد الخلفي • وعندئذ ، وكما هو متوقع ، حانت لحظة انعدم فيها اتخاذ أي قــرار من الجند الذين جوبهوا بضابط من القــوة الجويــة البريطانية ، الامر الذى جعلهم يسمحون للسيارة بأن تتحرك وتستدير عند الزاوية • وهكذا انطلقت سيارة «الفورد» بكل سرعتها ، وتوجهت ، لحسن الحظ ، نحو معسكر الهنيدى • ولقد تعقبتها سيارة خفارة تابعــة للجيش العراقي بمنتهى السرعة ، لكنهــا كانت ماتزال متخلفــة وراءها

بمقدار ثلثمائة ياردة ، وهكذا استطاعت سيارة الفورد ان تجتاز نقطة الحراسة في المعسكر ، حيث بدأت الحواجز بعد ذلك .

سرعان ما اصبح نورى السعيد الذى لازمته الكآبة ، منشرحا مرة اخرى ، واخذ يتحدث عن الخطط التى يقترحها لزحزحة بكر صدقى ، والعودة الى الحكم . لكنه في ذات الوقت غادر العراق في تلك الليلة الى مصر يصحبه ابنه صباح وزوجته «عصمت» ، في حين تم ابعاد كل من ياسين الهاشمى رئيس الوزراء ، ورشيد عالى الكيلانى ، الى سوريا .

لقد اخفق رئيس الوزراء الجديد حكمت سليمان في كل شيء سوى نقد نظام الحكم السابق . ذلك لان طائفة تلو الاخرى اخذت تتجمع في معارضته . فالغليان المنبعث عن الاثرة الحاقدة والفتنة ، كان يمثل الحياة الاعتيادية لاوساط شيوخ العشائر ، ورجال الدين في منطقة الفرات ، اولئك الذين رفضوا كل العروض التى عرضها حكمت سليمان لتهدئة ذلك الغليان .

كذلك كان مجلس النواب الجديد قلقا وبغيضا . وقد تم القضاء على «جمعية الاصلاح الشعبى» واوقف عدد من الشيوعيين البارزين ، ان حقا وان كذبا ، بينما هرب عدد منهم خارج البلاد . وهكذا فقد الجيش الذى كان يخضع للسيطرة بشكل واضح ، والذى كان الجهة الوحيدة التي تساند رئيس الوزراء ، وبكر صدقى ، وزمرته التى افسدها الحكم ، فقد هذا الجيش الاحترام لدى العناصر الطيبة ، وذلك نتيجة اندفاع بعض ضباطه في السكر والعجرفة ، وبسبب اقدام بكر صدقى على الزواج براقصة من «فينا» ، في الوقت الذى توفي فيه ياسين الهاشمى في

سوريا ، وانتحر فيه شقيق جعفر العسكري[١٢] وقتل احد الرجال المشهورين على يد شخص كردى كان بكر صدقى يحميه[١٣] .

وبعد تسعة اشهر كانت فيها حياة الوزارة قلقة ، جاءت نهايتها مفاجئة مثلما بدات . ففى اليوم الثامن من شهر آب سنة **١٩٣٧**[١٤] كان بكر صدقى ينتظر في مطار الموصل ، وهو في طريقه الى تركيا لحضور المناورات فيها ، حين تم اغتياله باطلاق النار عليه علانية من قبل جندى يعمل في مستودع احدى السرايا . ولم يعش زميله محمدعلي جواد قائد القوة الجوية العراقية ، بعده الا دقائق قليلة .

وانقضى شهر من التردد حين ظهر وكأن حربا اهلية توشك ان تقع ، الى ان انضم آمر الجيش في غربى بغداد «سعيد التكريتى» الى القائد العسكرى في الموصل «امين العمرى» وعناصر اخرى من الجيش كانت تقاوم فتنة بكر صدقى ، في اصدار بيان يتضمن الولاء للملك غازى ، والذى دعي فيه بأن لا يلجأ الى الانتقام ، كما وعد البيان بابعاد الجيش عن السياسة .

بقي حكمت سليمان من دون قوة ، فاضطر الى الاستقالة بفعل انقلاب عسكرى ثان . اما الجندى الذى اطلق النار على بكر صدقى نقد

---

(١٢) هو علي رضا العسكري الذى وجد ذبيحا في داره في صبيحة يوم ٢٢ اذار ١٩٣٧ . وقد ذكر في حينه انه لم يقتل بل انتحر .

(١٣) المقصود به المرحوم عبدالقادر السنوي رئيس لجنة انضباط موظفى الدولة .

(١٤) اخطأ المؤلف في ذكر تأريخ مقتل بكر صدقى اذ قال عنه بأنه وقع في اليوم الثامن من شهر آب ١٩٣٧ والصحيح هو اليوم الحادى عشر من ذلك الشهر .

عين بوظيفة ذات مرتب حسن ، اذ اصبح بستانيا في وزارة الدفاع التي لم يكن فيها اية حديقة سوى الواح قليلة زرعت بأزهار الزينيا !

واذ اشمأز الملك غازي من مغازلته غير الناجحة لقادة الجيش الطموحين ، حول اهتمامه الى هواية الطائرات الخفيفة ، والراديو والسيارات السريعة ، واخذ يختار له رفاقا من درجة واطئة جدا على المستويين العسكري والاجتماعي •

كان فيصل الاول قد صادق على بناء قصر له لكنه لم يسكن فيه ، لانه توفي قبل ان يكمل بناؤه • كان القصر على غرار «الفيلات» الفرنسية، اطلق عليه اسم «قصر الزهور» وتم تأثيثه من احد مخازن الاثاث الكبيرة في لندن • على ان اسوار هذا القصر لم تكن قوية بحيث تستطيع ان تصمد امام تقلبات الجو •

فبعد سنوات من بنائه ، مست احدى السيارات احد جوانب ذلك القصر مسا خفيفا ، مما ادى الى تهدمه ؛ الامر الذي اثار دهشة وفزع ذلك الزائر الاجنبي للقصر الذي كان يركب تلك السيارة •

وعندما جاء غازي للسكن في ذلك القصر اضاف اليه اضافات عديدة • ولقد قتل احد الرجال ، واصيب احد الطيارين بجروح خطيرة، لان الملك غازي اراد التخلص من احد العبيد •

كان احد عبيد القصر يخشى كثيرا ركوب الطائرة ، مما اوحى الى غازي تنفيذ فكرة ما • لقد امر ذلك العبد بأن يصعد الى الطائرة حالا • ورغم تشبثاته فقد ارغم على الدخول الى الطائرة • لكن ما ان حلقت الطائرة في الجو حتى امسك ذلك العبد بأسلاك السيطرة ، وترك الطيار من دون حول ، الامر الذي ادى الى سقوط الطائرة وتحطمها على

الارض .. ولقد قتل ذلـك العبد ، اما الطيار ـ وهو صباح بن نوري السعيد ـ فقد امضى عدة شهور في احد مستشفيات انكلترا ، اذ تحطمت جمجمته ، وكسرت ساقه ، وتعطلت يده وذراعه عن الحركة .

وهناك لعبة اخرى كان قد اقدم عليها الملك غازى . ذلك انه صبغ وجه احد خدمه بدهان سلخ جلده ، فأمضى اياما مؤلمـة مضمدا وتحت العناية الطبية .

ومن الالاعيب الاخرى لديه ، انـه كان يربط ادوات الاستعمال اليومية في القصر ، ببطاريات كهربيـة ، بحيث يصـاب الزوار والخدم برجات عندما يلمسـون تلـك الادوات . وحين يعلمون بذلـك يزداد حذرهم ، فيتعاظم سروره ، ويطلب اليهم ان يناولوه شيئا من تلك الادوات ، فيما يقطع التيار الكهربائى عنها .

اصبح الملك غازى شديد القلق بشأن قلبه الذى كان سليما تماما في الواقع . فبعد ليال من الانس كان يشـعر بأنـه متعب ، فيبعث وراء طبيب ، ويضع يده على قلبه ويقول «ان قلبي في هذا الموضع ضعيف !» .. لقد كان هذا الخوف ناجمـا عن تذكره وفاة والده ، وعما قاله الاطباء بشأنه حينذاك .

ولقد اعتاد غازى على الدوام ان يضع نظارات غامقة على عينيه ، وان يحمل في بعض الاحيان مسدسين ، ومع ذلـك كان ظرفـه عظيما ، ونضارته حيوية ، تقهر كل الناس الذين كانوا على اتصال معه .

كتب السر موريس باترسون في كتابه «على جانبى الستار»[١٥] عن

---

(١٥) كتاب باترسون «على جانبي الستار» ، والمقصود بالستار هـو

غازي يقول « انه ضعيف وغير مستقر كالماء ! ، وان عاداته المتطرفة كانت ترتبط باختياره الاصدقاء من بين اشرس ضباط الجيش الشبان ، بل وحتى خدمه في القصر . وهذا ما ادى الى استحالة سيطرته ، وجعل من الصعب عليه ان يكون له تأثيره ، فأصبح هذا الامر خطرا على الجميع ، وعليه هو نفسه بصفة خاصة .

لقد كان اهتمامه الذكي الصحيح الوحيد منصرفا الى الطيران . لقد كان يمتلك جملة من الطائرات الخاصة به في مطاره الخاص . وكان قادرا ومتشوقا دوما الى التحليق بها في الجو . وكان يتجنب الظهور جدا امام الجمهور ، ولا يفعل ذلك الا في اندر الحالات » .

اتخذ اهتمام الملك غازي بالاذاعة منحى متطرفا . لقد بنى له محطة اذاعة خاصة كان يذيع منها بنفسه ، ويضع المناهج التى كانت تسر الجمهور المحافظ ، وتزعج الاجانب . وقد اتخذت هذه الاذاعة في النهاية لها صفة سياسية ، فراحت تهاجم الكويت باستمرار .

كانت الكويت تعيش منذ زمن طويل على استخراج اللؤلؤ ، وممارسة اعمال التهريب . وتلك عملية ايسر ، واعظم رخاء ، بالنظر الى الرسوم العالية التى كان يفرضها ميناء البصرة ، والتى لا يوجد لها مثيل في الكويت . ولما كانت الكويت تحت الحماية البريطانية ، فان مهاجمتها تضيف حدة زائدة من التظاهر بالبطولة امام الانكليز الاقوياء .

وكان الشباب العراقي يستمع الى الاذاعة ، وينجذب الى الملك

= الاتحاد السوفياتى الذى كان الكتاب الامبرياليون ينعتونه «بالستار الحديدى» فى ذلك الوقت . وقد نشر باترسون كتابه هذا فى سنة ١٩٥٠ .

الذى كان يديرها • ولغرض مضاعفة التأثير فقد امرت القوات العراقيه بالتوجه الى «الزبير» قرب الحدود الكويتية ، كما شجعت الشرطةالعراقية على التسلل الى داخل الاراضى الكويتيـة ، حيث قامت باقتلاع علامات الحدود في الصحراء ، ونقلها بضعة اميال على مقربة من خليج الكويت ، والدخول الى الاراضى الكويتية ، واطلاق النار علانيـة ، وارغام بعض فرق الصيد على التوجه الى داخل الاراضى العراقية •

كانت الشعارات التى تنطلق من اذاعة الملك غازي تعلن بأن «حاكم الكويت رجل اقطـاعي ، ولا نفع فيه» ، «وان على الكـويت ان تنضـم الى العراق» •

ولقد تضاعفت هذه الشعارات والاعلانات بعـد العثور على النفط في الكويت •

كان السفير البريطاني في بغداد السر موريس باترسون هو الرجل المصيب الذى اوكل اليه امر معالجة هذا الشذوذ الغريب في مسلك الملك غازى • وقد نجح في تحقيق نتائج اكثر مما كان يتوقع !•

ومع ان اذاعة غازي لـم تنقطع ، الا ان الملك قد تحول الآن مـن مهاجمة الكويت الى مهاجمة عمه «عبدالله» امير شرقي الاردن •

كانت الملكة «عالية» التى انجبت للملك غازي ولدا في سنة ١٩٣٥، ذات تأثير كابح عليه ايضا • لقد جاء فيصل الثانى الى الدنيا ، بمساعدة من الدكتور سندرسن والممرضة البريطانية المس «بورلاند» ، التى كانت تعمل قبلا لدى العائلة المالكة في الافغان ، وقد بقيت لدى العائلة الملكية العراقية حتى مقتـل فيصل الثـانى في صبيحة اليوم الرابع عشر مـن تموز ١٩٥٨ •

كان عبدالاله قد بنى - بعد وفاة ابيه الملك غلي مباشرة - بيتا له على مقربة من قصر الزهور ، واطلق عليه اسم «قصر الرحاب» . وكان يضيف الى بيتـه هذا وبمباهاة من وقت الى آخـر ، المزيد من الغرف والرحبات والاصطبلات وغرف الحراس والخدم وغيرهـا من المرافق الاخرى . كما زود قصره ذاك بنافورة وبركة للمياه ، وانشأ له مداخل لولبية بين الابواب الحديدية والسلالم التى تؤدى الى شرفة امام الباب . والى اليمين من النافورة التى كانت تواجه القصر ، تقع ساحة واسـعة اعدت لسيارات المدعوين . وكانت الحديقة تضم من الاشجار والزهور والنباتات التى كانت تنمو بسرعة في جو مثل جو العراق .

وكانت غرفة الصور في القصر تضم طائفة من صور افراد العائلـة رسمها فنان بولوني يدعى «نوربلان» .

وقد ضمت هذه المجموعة صورة عبدالاله نفسـه ، وصورة الملك غازي - وهما من صنع نوربلان والرسام الايطالى «ديفاس» - بالاضافة الى وجود صور للملوك الانكليز كانت معلقـة فوق المدفأة . اما الاثاث فكان كله من طراز لويس الخامس عشر .

في هذا القصر كان عبدالاله يعيش مـع امـه «نفيسة» وشقيقاتـه «عبدية» و «بديعة» و «جليلة» .. كمـا كان الملك فيصل الثـاني يبيت الليل في هذا القصر ايضا .

حدث في صيف سنة ١٩٣٧ تطـور جـديد في عـلاقات العـراق الخارجية . فبعد الاتفاق مع ايران بشأن الحدود المتنازع عليها قبلا ، اقدم العراق مباشرة على توقيع ميثاق سعد آباد غير العدوانى ، مع كل من الافغان وتركيا وايران . ولم يعقد مجلس الميثاق اية اجتماعات عدا الاجتماع الاول . وهكذا اصبح الميثاق بعد سنتين ، ورقـة ميتة ، لكنـه

كان مع ذلك كان يمثل على الاقل محاولة للتضامن الاقليمي ، وهو الاول من نوعه منذ ان استقلت البلاد .

وقع الانقلاب العسكري الثالث في العراق في يوم عيد الميلاد سنة ١٩٣٨ ، وذلك في اعقاب حكومة مترجرجة كان يرأسها جميل المدفعي. ذلك لان سياسة «اسدال الستار» على الماضي ، قد سمحت لسبعة من كبار الضباط ذوي النزعات السياسية ، ان يؤلفوا لهم زمرة متسلطة ، وقد تعاظم تذمرهم عندما عاملهم رئيس اركان الجيش الجديد[١٦] وهو ضابط سابق في الجيش ، بقسوة ، وقرر ان يحطم قوتهم ، لكن افراد الزمرة صمموا على ان يتغدوا به قبل ان يتعشى بهم !

اجرى ثلاثة من افراد تلك الزمرة محادثات سرية مع نوري السعيد[١٧] وتوصلوا معه الى تفاهم اكيد حول استخدام القوة لازاحة جميل المدفعي عن الحكم . لقد كانوا يرومون بهذا ، التخلص من معاداة وزير الدفاع لهم ، وتوطيد قوتهم وذلك بانجاز انقلاب آخر . وعلى هذا الاساس وضع العقيد صلاح الدين الصباغ القوات التابعة له في حالة انذار ، ودعا مؤيديه سوية عشية عيد الميلاد . ولقد حاول احدهم ان يقابل الملك غازي لكن رئيس الديوان الملكي لم يعرف خطورة الازمة ، فرفض السماح له بالاقدام على ذلك الا باذن من الوزير .. وما ان تم تحذير رئيس الوزراء من قبل أحد المتآمرين ، حتى دعا وزارته الى الاجتماع ، وقدم استقالته في الحال .

استدعى الملك غازي رئيس اركان الجيش ، الذي انبأه بتذمر

(١٦) الذي استعمل الشدة ضد زمرة الضباط السبعة ليس هو رئيس الاركان ، بل وزير الدفاع «صبيح نجيب» .

(١٧) الضباط الثلاثة الذين تفاوضوا مع نوري السعيد هم صلاح الدين الصباغ ، وفهمي سعيد ، ومحمود سلمان .

الجيش ، ومطالبته بتأليف وزارة جديدة يرأسها نورى السعيد . وقد تم تقديم استقالة جميل المدفعى الى الملك في اليوم التالى ، وبحضور رئيس اركان الجيش ، وعدد من الضباط البارزين المهتمين بالانقلاب .

على هذه الشاكلة فاز الجيش مرة اخرى ، واستطاع اولئك الضباط اسقاط ثلاث وزارات في مدى سنتين .

وهكذا وصل نورى السعيد ، الذى كان يتشكى بمرارة من تدخل الجيش في السياسة ، الى الحكم نتيجة عمل قام به الجيش ذاته .

في اليوم الرابع من شهر كانون الثانى سنة ١٩٣٨ القى نورى السعيد خطابا اوضح فيه سياسته في الاصلاح ، واعترف بالاخطاء التى ارتكبت في الماضى « نتيجة نقص التجربة السياسية » .. ومما ذكره في خطابه ذاك ان لدى الغرب صنفين من الحكومات ، دكتاتورية ودمقراطية. وقد شدد التأكيد على ايمانه بالصنف الثانى ، أى الدمقراطية التىارتضاها الملك فيصل الاول ، وصاغها في الدستور .

لقد كان خطاب نورى السعيد لبقا ، اعلن فيه عن نيته في بعث الاحزاب السياسية ، ورفع مستوى الصحافة ، واعطائها المزيد من الحرية، وتعديل الدستور ، وقانون الانتخاب ، لكى يصبح البرلمان ممثلا للشعب بشكل اكثر اصالة . ولقد اظهر في الاخير نيته في ابعاد الجيش عن السياسة .

كان نورى السعيد يتحرك بحذر . وقد بدا عليه بأنه يريد التخلص من حكمت سليمان ، واقرانه من رجال المعارضة الخطرين الذين ساندوا بكر صدقى وعصبته العسكرية .

وهكذا اكتشفت في آذار سنة ١٩٣٩ مؤامرة ضد نظام الحكم القائم ، فاعتقل حكمت سليمان وآخرون معه ، وحكم عليهم بالموت أو

الاشغال الشاقة ، من قبل محكمة عرفية عسكرية .

وقد تلقى حكمت سليمان الحكم عليه بالاعدام ، وذكر بيان الحكومة ان المحكومين كانوا هم السبب في كل الاحداث المؤذية المسيئة التى وقعت في البلاد في السنوات الاخيرة .

وقد زعم ان المؤامرة التى كشفت عنها المحكمة العسكرية العرفية، كانت تنطوي على وضع خطة اغتيال شاملة تضم زهاء اربعين شخصية ، في وليمة تقام في قصر الامير عبدالاله ، والذى سوف يسلم اليه العرش فيما بعد .

واذ حصل الامير عبدالاله على كل المعلومات المتعلقة بالمؤامرة من اولئك الذين كانوا على اتصال معه ، اخبر الملك غازى والحكومة بتفاصيلها .

وقد اعترف اثنان من المتهمين بأن الامير عبدالاله كان يتصرف بشجاعة ، وقد استطاع ان يضم المتآمرين حواليه ، عندما اكتشف هؤلاء بأنهم كانوا تحت المراقبة .

كان اللوم يقع بكل وضوح على عاتق حكمت سليمان ، مهما كان دوره في المؤامرة ، وذلك لمساهمته في جملة مؤامرات سابقة ، ولانه كان هو المسؤول عن جملة من الاضطرابات التى وقعت في المستقبل . اما بالنظر الى الحكم عليه بالاعدام فان ذلك الحكم لم ينفذ . فقد راح السفير البريطانى يضغط بشدة للرأفة به ، وهكذا ابدل الحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات . واخيرا استبدلت كل الاحكام التى صدرت بالاعدام في اول الامر .

في ذلك الوقت قتل الملك غازى في ليلة اليوم الرابع من شهر نيسان سنة ١٩٣٩ .

الفصـــل الرابـــع

العراق والحرب العالمية الثـانية

ثورة ايار الوطنية سنة ١٩٤١

« حين تمـارس لعبـة التهـــاون والصرامـــة في ســـبيل »
« مملكة ما ، فان اسرع الرابحين فيهـا هــو الذى يشرف »
« على ادارة تلك اللعبة !» .

رواية « هنري الخامس » لشكسبير

عندما كنت ممتطيا حصاني مع عبدالاله في مبكر صباح يوم من ايام الصيف بعد الحرب العالمية الثانية ، لفت نظري الى البوابات الحديدية الهائلة لقصر «الزهور» وهو يقول « لقد اغلقت هذه البوابات منذ ان قتل الملك !» فنحن نعتقد ان ذلك القصر هو منزل المرضى من الرجال! »، ومن ثم واصل حديثه عن الكيفية التى توفي بها «غازي» .

كان غازى قد دعا بعض اصدقائه الى تناول العشاء والمشروبات . ثم مالبث ان اراد بعد ذلك ان يعرض لهم شريطا سينمائيا كان قد تركه في بيت ريفي صغير في « الحارثية » شيّد لوالده على مقربة من قناة خلفية لنهر دجلة .

ولما كان الملك قد اصطحب معه سائقه الاثير لديه « ابراهيم » بالاضافة الى المشرف على محطة اذاعته ، وانطلق بسيارته من طراز «بيوك» بأقصى مايمكن من السرعة لجلب الشريط[1] .

كان المنحدر الذى يخترق اصطبلات القصر الى الحارثية ضيقا تحده الاشجار والآجام ، اضافة الى اعمدة البرق المنصوبة عند الجانب

---

(١) كان المشرف على اذاعة قصر الزهور احد عمال اللاسلكى في الجيش ويدعى «اسماعيل حسن» منآهالى البصرة وعم السيد علي عبدالرزاق حسن الملحن المعروف باسم «علاء كامل» وقد هرب اسماعيل حسن الى المانيا الغربية بعد ثورة ايار ١٩٤١ وسكن فيها وقد عاد الى العراق وتوفى ببغداد خلال شهر شباط ١٩٨٣ .

البعيد على الطريق الممتد من القصر • وكانت تقوم وراء الاستدارة من الابواب الى المنحدر مباشرة ، قنطرة محدبة صغيرة فوق احدى القنوات•

كان ذلك في اول يوم امتلك فيــه غازي سيارة «البيوك» تلك • وحين صعد القنطرة فوق القناة بسرعــة ، كان لابد وان تتخلى العجلتان الاماميتان عن الارض • وحين اراد ان يستدير نحو اليسار فقد السيطرة، فاندفعت السيارة بسرعة ، وارتطمت بعمود البرق الذى انقلع من شدة الصدمة ، فهوى الى امام ، وحطّم رأس الملك •

استدعى الدكتور سندرسن طبيب العائلة في الحال • وقد علم من المكالمة الهاتفية المثيرة معــه ، ان حادثا خطيرا او طارئا لابد وان وقع ، ولذلك وضع بعض الادوات الطبيــة في حقيبته • ومع انه طبيب ، فقد اتصل هاتفيا بالسفارة البريطانية طالبا اليها ان يلحق به على عجل زميله الجراح الدكتور «براهام» • وجد سندرسن الملك فاقد الوعي ، وقــد تهشم رأسه ، وضاع رشده ، وراح يحتضر •

لم يكن هنالك مايمكن عمله لانقاذ حياته • ولكن الملكــة عاليــة توسلت الى الدكتور سندرسن بأن يزرقه بابرة ، ففعل ذلك ولكن من دون رد فعل • اتمد كانت تلح عليه قائلة « يجب ان يتكلم • فمن المحتم عليه طبقا للدستور ان يذكر اسم وصي عنه قبل ان يموت » • ولم يلبث الطبيب ان زرقه بابرة ثانية ، واذ ذاك اخفضت النساء رؤوسهن الــى رأس الملك ، وقلن بأنه قد تمتم بكلمة «عبدالاله» • ولم يلبث غازى ان مات في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الاربعين من ليلة الرابع من شهر نيسان سنة ١٩٣٩ • وقد ادلت الملكة عاليــة والاميرة راجحــة بشــهادة فيما بعد تفيد « **بأن غازى كان يريد على الدوام ان يكون عبدالاله وصيا اذا ماوقع له حادث ما قبل ان يبلغ ولده فيصل سن الرشد !** » •

اذاع الالمان ان غازى قد تم اغتياله على يد مصلحة الاستخبارات البريطانية • وفي غضون ساعات قلائل كانت الحشود الغاضبة تحيط بالقنصلية البريطانية في الموصل •

وحين خرج القنصل «مونك ماسون» لتهدئة الجمهور ، انبرى له احدهم فقتله بضربة واحدة من فأس كان يحملها •

وهكذا اصبح عبدالاله ذلك الامير الخجول الذى يقل عمره عن ثلاثين عاما ، والمغرم بالخيول وبالارياف ، وصيا للعراق على ابن اخته الطفل البالغ من العمر اربع سنوات ، وبقي في هذا المنصب اربع عشرة سنة الى ان بلغ فيصل الثانى سن الرشد • وهكذا يكون عبدالاله قد حكم مدة اطول من حكم فيصل الاول وغازى ، وفي اوقات اشد عسرا •

خرج شعب بغداد العاطفى يبكى غازى ويندبه بحرارة • فمنذ ذلك الصباح الباكر راحت مواكب الناس تبكى وتلطم صدورها ، وتجوب الشوارع الرئيسة ، في حين اضفى عويل النساء لونا مثيرا في مشهد لا مجال الى نسيانه • لقد توقفت الحياة ذلك اليوم في بغداد ،وقام «هوستون بوزول» الوزير البريطانى ، بتمثيل ملك بريطانيا في مجلس العزاء الملكي وفي حفلة الدفن •

وصفت احدى المقالات الافتتاحية لجريدة «التايمس» اللندنية «غازى» بأنه « كان فارسا لا يهاب الموت ، ووطنيا متحمسا • كان يقود طيارته وسيارته بنفسه ، كما كان سائق دراجة بخارية ماهرا وعنيفا في السرعة » •

لم يكن احد ليشك في شجاعته البدنية ، غير ان تلك المقالات كانت

تلمح الى ان شعبيته بدأت تنهار بين الكبار من الناس • ومع انه قد مات وهو في السابعة والعشرين من عمره ، الا انه بقي مع ذلك يمثل النموذج المحبب لدى الشباب العراقي •

غير ان صحيفة «التايمس» كانت مهتمة لما حدث • فقد كانت تخف بالوصاية الطويلة مخاطر عديدة • ذلك لان عملية امتزاج العناصر المتباينة للشعب لم تكمل بعد •

فقد تم تذكر المؤامرة العسكرية الاخيرة[٢] وتفاقمت طبائع الناس التي لايمكن كبحها • ومع ذلك فقد سارت جميع الامور سيرا حسنا في البداية •

كان نوري السعيد يتولى رئاسة الوزارة ، وعلى جودت الايوبي وزارة الخارجية • وفي الانتخابات التي جرت في شهر ايار من تلك السنة ، اعيد انتخاب عدد كبير من انصار نوري السعيد مجددا ، وبقي هو نفسه في الحكم ، في حين كان قد تم في شهر اذار من تلك السنة تعيين سفير بريطاني جديد لم تكن مشاكل الشرق الاوسط مألوفة لديه[٣] • ومع ان عبدالاله كان في نفس عمر الملك المتوفى ، ولكن الاعتقاد السائد بأنه سيكون اكثر جدية من غازي ، وذلك لان الدبلوماسيين وموظفي

---

(٢) يشير المؤلف بذلك الى الانقلاب الذي قام به بكر صدقي في اواخر سنة ١٩٣٦ •

(٣) كان السفير البريطاني الذي عين بعد مقتل الملك غازي هو «بازل نيوتن» ، وقد بقي في منصبه هذا الى ان وقعت الازمة بين حكومة الدفاع التي الفها رشيد عالي الكيلاني والحكومة البريطانية في سنة ١٩٤١ حيث تم استبداله بالسر كنهان كورنواليس •

الحكومة لم يعرفوا سوى الشيء الضئيل عن مسلكه •

كان عبدالاله اطول قامة من أي من افراد عائلته • وكان جميل البشرة جدا ، ولربما ورث ذلك من جدته القفقاسيه وجدانها • فقد قال في احدى المرات « انني لاستغرب كيف اكون انا عربيا : » وراح يعدد اسلافه الذين يحملون دماء غير عربية • لقد استطاع فيصل الاول ان يروض اخوته الكبار على التطور ببطء مع مرور الزمن ، غير ان الجيل الاصغر من العائلة لم يكن على استعداد لمثل ذلك • فلقد اقدم الامير زيد ، وغازى وعبدالاله جميعا ، على ارتداء الملابس الغربية ، وراحوا يتلاءمون مع وسائل الحياة الغربيــة • ولذلك فلم يكن بالامر الشاذ ان يغدو اصغرهم ، وهو عبدالاله ، شديد الاهتمام لان يبرع في مثل تلك الوسائل ، وان يصيب فيها النجاح التام •

لقد اضاع فرصة تعلمه في اوربا في الوقت الذى حصل فيه الآخرون على درجات في ذلك • غير انه استطاع ان يتعلم ماقدر على تعلمه ، عندما التحق بكلية «فكتوريا» في الاسكندرية ، وهى مدرسة عامة تدار حسب الاسس البريطانية ، ويرأسها المستر « ريد » • وكان هذا العميد رجلا يحبه جميع الفتيان ويحترمونه ، وظل يحتفظ بتأثيره عليهم حتى بعد ان غادروه وكبروا • لقد تركت الاحاديث الخاصة مع هـذا العميد انطباعا ثابتا في نفس عبدالاله ، هيأت له ـ اضافة الى خلفيتــه ذاتها ـ احساسا قويا بالمسؤولية ، والفخر بالدور الذى تمارسه عائلته في العالم العربى • فعندما كان عبدالاله شابا لم يظهر مثل هذا الاحساس لديه الا في التقبل الحزين لوضعه ، وللمسلك الخجول الذى كان يسلكه • ولذلك غدت هواياته الكبرى فيما بعد ، تربية الخيول ، والاهتمام بالسباق وبالزراعة ،

وهى امور ابعدتـه عن السياسة وعـن المؤامرات التـى كانـت تحـاك في العاصمة •

كان حياؤه الشديد جدا ، وتساؤلـه الذاتى ، همـا اللذان اد ّباه وعلماه اكثر من اى شىء آخـر • كان في بعض الايام يتحدث اليّ عن عهد فتوته ، ويتذكر ايامه الاولى في «مكة» •

فهو يتذكر كيف حمل على عجل ، ومن دون ان يفهم سبب ذلك، على ظهر احد العبيد من دار ابيه في مكة الى جزء اكثر ارتفاعا في المدينة، ليسير من هناك في طريق من دون مصابيح كان يعلم انها تحمل عادة بعد ان يحل الظلام •

لقد كان ذلك المكان الذى حمل اليه هو الملجأ الخفى لجميع نساء العائلة واطفالها الذين يجدون الامن فيه في تلك الليلة من سنة ١٩١٦ عندما اعلن جده «الحسين» الثورة ضد الاتراك •

كان يتذكر «المحمل» الذى يفد من مصـر ايام الحج ، والاثارة التى تصحب وصولـه حيث الابل المزركشـة التى تحملـه ، والحاشية المتلألئة التى ترافقه ، وستائر الكعبة الذهبية ، قدس الاقداس ،والحجاج المسلمون المتميزون الذين يرافقون المحمل • كذلك كان يتذكر احتفالات الحج السنوية ، والبسة الحرم ناصعة البياض التى يتشح بها الحجاج ، والطواف سبع مرات حول الكعبـة ، والاضاحي التى تنحـر على جبل «عرفات» ، ورجم الشيطان ، كما يتذكر الموكب البارز الذى كان يسير في مقدمته جده «الحسين» ، والمظلة الفخمة التى كانت تحمل من ورائه سواء سار راكبا ام راجلا ، يحيط به العبيد ، اضافة الى المركبة الفخمة

التى تثبت المظلة فيها ، والتى نادرا ماكان يستعملها •

في تلك الايام كان يفد على مكة في موسم الحج «النواب» من الهنود[٤] وامراء الافغان ، والحكام والامراء والشيوخ ورجال الدين من جميع انحاء العالم الاسلامى ، وهم يحملون معهم مبالغ طائلة من الاموال لانفاقها في مكة •

وحين كبر عبدالاله اخذ يدرك الدور الذى كان يمارسه جده واسلافه في العالم • كما عرف ان «ابن سعود» امير اواسط الجزيرة العربية ، والذى قفز الى السلطة على اكتاف الوهابيين المتطرفين ، واستولى على الحجاز ، ان ابن سعود هذا لابد ان يخلف «عليا» والد عبدالاله في حكم «مكة» • وعندما جاءت العائلة الى العراق كف ابوه «علي» عن الادعاء بملكية الحجاز ، وبأنه هو واسرته من مواطني شبه الجزيرة العربية • لقد كان العراق آنذاك في وضع اقوى في العالم ، وكان مناخه اكثر تقبلا من مناخ الحجاز ، فضلا عن وجود اعتبارات عملية اخرى ساعدت عبدالاله على تكوين تفكيره بأن يصبح مواطنا عراقيا •

وجدت «نفيسة» والدة عبدالاله ان من العسير عليها ، في اول الامر ، ان تتحمل وضعها الجديد في العراق ، كشخصية ضئيلة الاهمية نسبيا وليس لديها سوى القليل من المال ، وتأتي في المنزلة وراء نساء عائلة الشقيق الاصغر لزوجها •

---

(٤) «النواب» – بتشديد الواو لقب رسمي يعادل رتبة الوزير كانت تطلقه الحكومة الانكليزية في الهند على البعض من زعماء الشيعة الهنود ، ومنهم عائلة «النواب» الشهيرة التى سكنت بغداد بجانب الكرخ قبل الحرب العالمية الاولى وكانت موجودة هناك منذ ايام داود باشا • وما زال افراد هذه العائلة موجودين في مدن عدة من العراق اهمها الكاظمية وكربلاء •

وحين تزوج غازى ابنتها عالية داخلها السرور ، وتعاظم ذلك السرور بعد ان انجبت له ولدا هو حفيد «نفيسة» حقا •

غير انها اصبحت اكثر سعادة وبشكل صريح عندما تولى ابنها عبدالاله منصب الوصاية • ذلك لان المركز الذى كانت تحتله نساء عائلة فيصل الاول ، لم يعد يثير غيرتها • لانها ، هى وابنتها الملكة عالية، كانتا تمثلان المرأتين البارزتين في العراق •

كان عبدالاله عندما تقبل منصب الوصاية في السابعة والعشرين من عمره • وما ان بدا يمارس سلطاته ، حتى ادرك ان حربا عالمية ثانية توشك ان تقع ، وان المانيا هى التى سوف تثير الحرب • كان الدكتور غروبا وزير المانيا المفوض في بغداد رجلا قديرا لايعرف الكلل •وكانت براعته تستر قدرته بستار وتؤكد سخاءه • ومع انه كان نموذج الفرد الالمانى في تكوينه البدنى وفي مظهره ، ونظراته الثاقبة التى تدلل بأنه كان من رجال الاعمال الالمان الشماليين ، الا انه كان يفضي الى البريطانيين بعدم موافقته على نظام الحكم الذي اجبرته الظروف على ان يخدمه • ومهما كانت افكاره اعمق من ذلك ، الا انه استطاع ان يلعب هذه اللعبة الالمانية بنجاح ، وكانت زوجته تساعده في كل ذلك من دون ملل ، وبصفة خاصة في تكوين اصدقاء له لدى الجالية البريطانية في العراق •

وهنالك المانى آخر كان في بغداد يعمل منقبا عن الآثار فهذا الرجل الملم الماما كبيرا بالماضى ، والمتمرس في تأريخ الامبراطوريات القديمة ، ربما كان يود جيدا ان يتجنب السياسة الحزبية الحديثة وهكذا استطاع هذا الاثارى الالمانى ان ينجح في اقناع معارفه من البريطانيين بعدم اهتمامه بالامور السياسية • وعندما تم الكشف ـ اثناء الحرب العالمية

الثانية - عن وجود منظمة سرية المانية في العراق ، ظهر ان ذلك الاثاري كان في قلب تلك المنظمة السرية ·

لقد عمل افراد تلك المنظمة الالمانية على اثارة المخاوف من الحركة الصهيونية ، ونشر الدعاية الالمانية التي كانت تظهر للعراقيين بان المانيا دولة قوية بحيث تستطيع ان تكسب الحرب · كما استطاع افراد المنظمة ان يجندوا لهم الانصار ، والوكلاء ، والمخبرين من بين افراد الطبقات العليا والدنيا في العراق معا[٥] ·

× × ×

« نشبت الحرب العالمية الثانية في غضون خمسة شهور من تصييب

---

(٥) هذا الالماني هو الدكتور جوليوس جوردان (١٨٧٨ - ١٩٤٥) منقب الآثار المعروف الذي تتلمذ على يد الاثاري الالماني الشهير «كولودي» · وكان جوردان قد بدأ التنقيب في العراق قبل الحرب العالمية الاولى واتخذ من المدينة السومرية المشهورة اوروك - التي اخذ منها اسم العراق وتعرف الآن باسم الوركاء ابتداء من سنة ١٩١٢ · وعاد الى التنقيب فيها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى حتى سنة ١٩٣٠ ومن ثم عين مفتشا عاما للاثار في العراق حتى تم تسفيره من العراق بعد قطع العلاقات العراقية الالمانية ابان الحرب العالمية الثانية · وكانت البعثة الاثرية الالمانية تضم عددا من مشاهير الاثاريين الالمان من بينهم الدكتور «هنريخ لتزن» وعادت البعثة الى العمل في العراق في اوائل سني الخمسينات وكان مقرها في دار تقع في محلة «العيواضية» ببغداد ولديها مكتبة فاخرة غنية بمختلف الكتب التي تبحث عن اوضاع العراق ·

ولسنا نشارك المؤلف رأيه في نشاط هذه البعثة لبث الافكار النازية لان جوردان كان معروفا لدى العراقيين خلال فترة طويلة امتدت اكثر من ثلاثين سنة ، ولكننا نعتقد ان الحسد كان دافع ذلك الاتهام لما عرفت به البعثة الالمانية من نشاط اثاري كان يحسدها عليه الاثاريون البريطانيون ·

عبدالاله وصيا على عرش العراق • ولذلك لم يتردد العراق ، بل سارع الى قطع العلاقات مع المانيا ، حيث غادر «غروبا» البلاد •

وكان نورى السعيد يتطلع الى اقامة علاقات وثيقة مع بريطانيا ، والى القيام بعمل مشترك مع الحلفاء • ولذلك كان يضغط باستمرار ، وعلى الاخص ايام الحرب ، على تشكيل كتيبة عراقية تقاتل الى جانب الجيش البريطاني(٦) •

ولم تظهر المؤامرة الالمانية التى كانت تعمل في الخفاء في العراق الا في شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٠ ، يوم اقدم ضابط شرطة سابق ،يعطف على الالمان ، على قتل رستم حيدر ، صديق فيصل الاول ومستشاره ،ومن اكثر اعضاء الحكومة اعتمادا وخبرة(٧) •

كان رستم حيدر شيعيا • وقد وجد نورى السعيد نفسه في مشكلة

---

(٦) كان نورى السعيد في ضغطه لاشراك قوة عراقية مع جيوش الحلفاء ، أى الانكليز والفرنسيين ، في الحرب العالمية الثانية ، متأثرا تماما بما اقدم عليه الصهاينة من ارسال كتيبة يهودية من يهود فلسطين الى ميدان القتال للحرب الى جانب الحلفاء ، الامر الذى زاد من تشبث اليهود بعد تلك الحرب بانشاء دولة اسرائيل وتحويل فلسطين ذلك البلد العربى الاصيل الى معقل خطير من معاقل الامبريالية العالمية والموجه الى قلب حركة التحرر العربى ، والشرق الاوسط برمته •

(٧) قتل رستم حيدر في مكتبه بوزارة المالية في حوالى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر من يوم الاربعاء الثامن عشر من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٠ • اما القاتل فهو من مفوضى الشرطة المفصولين ويدعى «حسين فوزى توفيق» وليس «حسين فوزى ابراهيم» كما ذكر المؤلف ذلك خطأ • كما ان القاتل لم يكن يعطف على النازيين وانما اقترف جريمة القتل بسبب فصله من الوظيفة •

بالنسبة إلى محاكمة القاتل «حسين فوزى ابراهيم» ، الذى بعد ان نفى التهمة الموجهة اليه اول الامر ، اعترف بها ، وبانها كانت بتأييد عدد من السياسيين البارزين !

لقد طالب الشيعة باجراء محاكمة عرفية مباشرة لكل من لهم علاقة بالحادث • أما البقية من اعضاء الوزارة ، وابناء السنة بصفة عامة ، فقد ارادوا تطبيق الاجراءات الاعتيادية • وعلى هذا استقال نورى السعيد من رئاسة الوزارة •

غير ان بعضا من الضباط نشطوا في الضغط على خصوم نورى السعيد ، ومنهم رشيد عالى الكيلانى ، رئيس الديوان الملكى ، لكى يتقبل رئاسة الوزارة ، في حين ساند ضباط آخرون نورى السعيد نفسه • وهكذا جعل الفريقان من هؤلاء الضباط ، القوات التابعة لهما في حالة تأهب ، ولذلك واجه الوصى عبدالاله الشاب ازمته الاولى •

رفض رشيد عالى الكيلانى قبول منصب رئاسة الوزارة ، لانه كان يقدر قوة المعارضة ضده • وهكذا عاد نورى السعيد الى الحكم مرة اخرى ومن دون تدخل عسكرى مباشر •

اما قاتل رستم حيدر ، فقد حوكم امام محكمة عرفية ، وتم شنقه• وكانت احدى التهم الموجهة اليه عقوبتها السجن لمدة سنة واحدة ، في حين كانت التهم الاخرى تقضى باطلاق سراحه لعدم ثبوتها •

اشار رشيد عالى الكيلانى ، بصفته رئيسا للديوان الملكى ، على الوصى عبدالاله بأن يعمد الى تشكيل حكومة ائتلافية ، تتلافى ضغطالجيش عليها • ولقد وافق نورى السعيد على هذه الفكرة ، واقترح ان يتولى

رشيد عالى رئاسة الوزارة ، وان يتولى نورى السعيد وزارة الخارجية . ولقد بدا بأن الامر قد تمت تسويته ، بشكل ودى ، وبصفة صحيحة .

غير ان نجاح الجيوش الالمانية في ميادين الحرب ، وقوة الدعاية الالمانية ، كان لها تأثيرها . ذلك لان العراق لم يقطع علاقاته مع ايطاليا ، وكان ممثلو ايطاليا في وضع يستطيعون فيـه ان ينشطوا بحرية نسبية ضد مصالح الحلفاء ، وان يستغلوا منتهى حريتهم لتنفيذ ذلك .

وفي نهاية سنة ١٩٤٠ فقد نورى السعيد القاعدة التى كان يستند اليها ، حيث تعاظمت قوة المعارضين له بفضل ما ناله اولئك المعارضون من مساندة عدد من كبار ضباط الجيش لهم .

اصبحت الهوة في الرأى العام ، وفي الوزارة القائمة واضحة جداً. ففى اول الامر حاول الوصى عبدالاله ان ينـاور في ابعـاد رشيد عالى الكيلانى عن منصبه ، لكنه اضطر في النهاية ، وبعد حدوث الازمة ، بأن يحتفظ به ، في حين خلا المسرح نتيجة استقالة نورى السعيد ، وهكذا تألفت وزارة جديدة مناهضة له في الحال[٨] .

كان الوزراء الجدد في وزارة رشيد عالى الكيلانى جد متطرفين . وقد بدأ يظهر ثقة متزايدة ، بعد ان توثقت علاقاتـه مـع قادة الجيش

---

(٨) هى وزارة السيد رشيد عالى الكيلانى الرابعة التى تألفت في اليوم الحادى والثلاثين من شهر اذار سنة ١٩٤٠ والتى ضمت اربعة من رؤساء الوزارات السابقين هم رشيد عالى الكيلانى نفسه ، ونورى السعيد ، وناجى شوكت ، وناجى السويدى . وفي عهد هذه الوزارة توترت العلاقات بين العـراق وبريطانيا وانتهت الازمـة باستقالة الوزارة وتأليف وزارة طه الهاشمى في ٣١ كانون الثانى ١٩٤١ .

العراقي • وعندما صمم عدد من وزرائه الاخرين على الاستقالة لغرض اجباره على ان يستقيل ، تدخل قادة الجيش ، فأرغم الوصي عبدالاله على ان يبقى رشيد عالي في رئاسة الوزارة ، مع وجود وزراء اشد تطرفا •

ولغرض ان يكسب الوقت ، وان يتخلص من ضغط قادة الجيش عليه ، غادر الوصي عبدالاله بغـداد ، واقام في الديوانيـة لدى السيد ابراهيم الراوي آمر الفرقة الرابعة ، المخلص له •

ولقد استدعى الوصي الى الديوانية عددا من الساسة المجربين ، ووضع الخطة لتأليف وزارة جديدة برئاسة طه الهاشمي ، احـد قادة الجيش السابقين ، وهو السياسي الذي يرضى به قادة الجيش العـاملون بديلا عن رشيد عالي الكيلانـي • وهكـذا استطاع الوصي ان يعود الى العاصمة في اليوم الاول من شهر شباط سنة ١٩٤١ •

ومع ذلك وعلى الرغم من عودة الوصي ، فقد اخذت الحالة تسوء ، وشرع عدد مـن الافراد البارزين من البريطانيين يقدمون التماسات الى السلطات البريطانية المختصة ، يطلبون فيها تعيين السر كنهان كورنواليس سفيرا لبريطانيا في بغداد • فقد شعر هؤلاء بأن «كورنواليس» هو املهـم الوحيد ، ولذلك اتخذوا الخطوات اللازمة للاسراع في تعيينه •

وفي الوقت ذاته قام العقيد «دونوفان» من ضباط القوات الامريكية العاملة فيما وراء البحار ، بزيارة الى بغداد اثناء مروره بها • وقد طلب «دونوفان» ان يجتمع بالحـاج «امين الحسيني» واتباعـه ، من بين من اجتمع بهم من الساسة الاخرين • ولم يتردد المفتي اللاجيء الى العراق آنذاك ، والذي كان وراء جميع المناورات التي قامت بها الزمرة المؤيدة

للالمان ، عن المجيء الى المفوضية الامريكية ، والاجتماع مع «دونوفان»، لكنه كان قد جاء الى هناك بمفرده ، وقد اخفى عن زملائه الدعوة التي وجهت اليهم •

ولقد اوضح «دونوفان» للمفتي ان امريكا ، وان كانت لم تعلن الحرب بعد ، الا انها تساند بريطانيا ، وانها سوف تستاء من نشاطات الاشخاص الذين يعملون ضدها ، وان على المفتي ان ينظر الى ابعد من ذلك ، وان يدرك نتائج الاعمال الموجهة ضد المصالح البريطانية ، لان مثل هذه الاعمال ستكون ضد مصالح امريكا نفسها •

ولقد اقر المفتي هذا القول ، لكن المعتقد انه لم ينفذه ، بل على النقيض من ذلك ، واصل مكائده ضد السلطات البريطانية ، واستمر في مؤامراته الخطرة •

لقد قال لي نوري السعيد عند انتهاء الحرب ، وهو يبتسم ابتسامة مقتضبة « حيثما يحل المفتي ينشأ الاضطراب » • فقد كان في المانيا ـ كما يعلم نوري السعيد ذلك ـ في الوقت الذي اخذ فيه ذلك البلد في الانهيار !

لقد كان مفتي القدس ، الذي صادق الحاكم البريطاني العام لفلسطين على تعيينه في هذا المنصب ، يشبه بكر صدقي ، في انه الرجل الذي يكون مظهره الواضح ، كافيا لتغيير آراء أي شخص يستخدم لتقدير اخلاق الرجال الآخرين • اما عن كيفية حصوله على المساندة البريطانية، فذلك امر يصعب فهمه !•

كان الحاج امين الحسيني ضابطا في الجيش العثماني ، وقد استطاع

بعض الناس ان يروه يرتدى بزته العسكرية تحت جبته • كما انه لم يعمل سوى الشيء الضئيل لاخفاء صفته العدائية • كانت له عينان زرقاوان شاحبتان ودامعتان ، ولحية حمراء ، وشفتان زامتان ، ومظهر خبيث ، ولذلك اطلق عليه لقب «الثعلب الاحمر» • وكان على معرفة بعملاء الشيوعيين ، كما كانت له عصابته الخاصة من الرجال المسلحين • كان المفتى امين الحسينى يردد على الدوام «ان الغاية تبرر الواسطة» • وكان المفتى مقبولا من لدن الساسة لانه وافق واشترك في تنظيم جملة من اعمال القتل ، من ضمنها اغتيال « عبدالله » ملك الاردن في المسجد الاقصى بالقدس •

على ان هناك اثنين من المندوبين الساميين البريطانيين في فلسطين ، كانا يعتقدان فيما مضى بأن للمفتى امين الحسينى قيمته ، اولهما هو السر هربرت صموئيل ، الذى سبق له ان صادق على تعيين امين الحسينى مفتيا لفلسطين ، ولو ان ذلك التعيين كان نادر الوقوع بالنسبة الى انظمة الانتخابات العثمانية القديمة ، وبالنظر الى الشريعة الاسلامية •

وفي النهاية واذ كان المفتى على وشك ان يعتقل ، فقد استطاع الهرب ، بعد ان حلق لحيته ، وتنكر في زي امرأة ، الى سوريا ومنها الى العراق ، حيث سمحت له السلطات العراقية - وهى آسفة لما فعلت - بالبقاء في بغداد •

لقد حاول كل من السفير الامريكى ، والمندوب الامريكى الخاص ، والمستر انطونى ايدن ، لدى اجتماعهم بالسيد توفيق السويدى وزير الخارجية العراقية في القاهرة ، اطفاء الفتنة التى اثارها رشيد عالى الكيلانى عن التحمس المؤيد للالمان • فقد اثر ذلك التحمس بشكل

عميق على الموقف المعتدل الذى كان يقفه الوصى عبدالاله ونورى السعيد، والمؤيد للبريطانيين ، ولو ان رشيد عالى نفسه كان قد برهن على درجة معينة من الحياد ، بقصد اخفاء مشاعره الخاصة ٠

لقد صمم الوصى على تحطيم قوة القادة الاربعة البارزين ، أى «المربع الذهبى»[٩] وهو النعت الذى اطلقته اوساط الدعاية البريطانية عليهم ، ولذلك امر احدهم بأن يغادر بغداد ، لكن الامر قد تم تجاهله ٠

وعلى الرغم من هذا الاستخفاف ، كان احد موظفي الادارة البريطانية الكبار العاملين لدى الحكومة البريطانية ، يعتقد بمقدرة رشيد عالى الكيلانى في السيطرة على اولئك القادة الاربعة ، ونصحهم بالتروي والصبر ٠

في ليلة اليوم الاول من شهر نيسان سنة ١٩٤١ استولى القادة الاربعة على السلطة ، وجلبوا قواتهم الى العاصمة لحراسة النقاط المهمة فيها ، بالاضافة الى الاحاطة بالقصر ٠

تم توقيف احد ضباط الارتباط الجوى البريطانى عندما كان في طريقه الى مقر القوة الجوية البريطانية في «الحبانية» ٠ ولما كان هذا الضابط قد ارغم على العودة من حيث اتى ، فقد توجه الى السفارة البريطانية ، لكنه وجد هناك عدم مبالاة بجدية الحالة الراهنة ٠ وهكذا بدأ ذلك الضابط سفره ثانية الى الحبانية ، فعبر جسر «الكاظمية» ،

---

(٩) المربع الذهبى GOLDEN SQUARE تسمية اطلقها الانكليز وعملاؤهم على القادة الاربعة لثورة ايار الوطنية اذ اتهموهم بأنهم قاموا بتلك الثورة نتيجة اغداق الالمان الاموال عليهم ٠

وحصل على دليل من احد افراد العشائر ، حتى وصل الى الحبانية عبر الصحراء ، حيث عبر نهر الفرات في معبر عند «الرمادى» ، وبذلك استطاع ان يقدم الى مقر القوة الجوية البريطانية في الحبانية انذارا مباشرا عن بداية الانقلاب .

قرر الوصى ان يغادر العاصمة للمرة الثانية ، عندما اوصل اليه طباخ القصر نسخة من شهادة طبية تثبت وفاته ، وهى موقعة ومؤرخة في تلك الليلة . كان الطبيب الذى صادق على تلك الشهادة مكرها ، هو الذى بحث عن طباخ القصر ، وانفذ اليه الشهادة لكى ينقلها الى القصر[١٠] . اما اذا كانت تلك الشهادة قد رتبت بقصد اخافة الوصى ، واخراجه من المدينة ، فذلك امر لم يتم التأكد منه .

لقد كان من رأى الوصى عبدالاله ، ان القضية لم تكن على هذه الشاكلة ، وان مماته قد تم التخطيط له ، وان الاحداث اخذت تظهر له بأنه كان على صواب فيما يعتقده ، ولذلك امتطى احدى السيارات في الحال ، وتوجه الى دار عمته الاميرة «صالحة» التى كانت تسكن في بيت قديم على الضفة الشرقية من نهر دجلة .

ولقد تحدث الوصى عن لجوئه الى دار عمته فقال « لقد انتشرت قوات الجيش على جانبى الطريق الممتد بين بيتي ، وقصر الرحاب ، والمطار . غير ان افراد هذه القوات كانوا يجلسون او يقفون هناك بسهولة . والامر الواضح انهم كانوا ينتظرون اوامر لم تصل اليهم بعد ولذلك كنت آمل ان لا يوقفني احد في الطريق » .

---

(١٠) لم يذكر المؤلف اسم ذلك الطبيب الذى وقع شهادة وفاة عبدالاله.

وفي الوقت ذاته اتصلت احدى نساء العائلة في القصر ، بالدكتور سندرسن باشا ـ كما هى العادة عند حدوث ادنى اضطراب ـ لم تعط تلك المتكلمة اسمها وكان الصوت الذى نطقت به يقول للدكتورسندرسن « ارجو ان تذهب الى بيت عمتى في الحال • ان الحالة ملحة جدا » • وقد فهم الدكتور سندرسن بأن المتكلمة هى «عبدية» شقيقة عبدالاله وانها كانت خائفة(١١) •

تقرر في بيت الاميرة «صالحة» بأن يرتدى الوصى عبدالاله ملابس النساء ، وان يتخذ طريقه ، في عربة تجرها الجياد لا الى السفارة البريطانية ، بل الى المفوضية الامريكية •

فقد قال الدكتور سندرسن ان الذهاب الى السفارة البريطانية لن ينطوى على الحكمة ، لان السفارة البريطانية كانت هى المكان الذى يتوقع ان يذهب الوصى اليه • وهكذا هيأ الوصى نفسه لهذا الامر بمساعدة الاميرة « صالحة » ، فاستعار من العائلة عباءة وملابس وحذاءا نسائيا •

عندما وصل الوصى الى المفوضية الامريكية وجد صعوبة تذكر في الحصول على اذن بالدخول له الى هناك ، وهو يمثل دور امرأة غير

---

(١١) ذكر سندرسن في مذكراته ، « كان الهاتف يدق وحين رفعت السماعة سمعت صوت امرأة تقول « ان عمتى مريضة جدا ارجوك ان تأتى بسرعة » ••• لقد استطعت ان اتبين بأن صوت المتكلمة هو صوت الاميرة «عبدية» •

[مذكرات سندرسن الطبعة الاولى سنة ١٩٨٠ ص٢٢٩] •

معروفة من بغداد ترغب الحضور لدى الوزير المفوض • غير انه قرر ان يقنع احد موظفى المفوضية بأنه يرغب في رؤية زوجة الوزير «المستر نابنشو» •

وهكذا اذن له بالدخول وظل هناك ينتظر وصول ممثل بريطانى مع الدكتور سندرسن لدراسة الخطوة التالية •

ولقد تحدث الدكتور سندرسن الى «ادريان هولمان» القنصل في السفارة البريطانية ، واذ ذاك ارسلت سيارتان من سيارات القوة الجوية البريطانية مع بزتى ضابطين ، الى موعد في ناد ، قريب من المفوضية الامريكية •

وفي النهاية فان تينك البزتين لم تستعملا من قبل الوصى نفسه ، وانما من لدن مرافقه «عبيد عبدالله المضايفى» الذى اعطيت له بدلة عسكرية ، مع نظارتين سوداوين ونسخة من صحيفة «التايمس» لكى يخفى بها وجهه •

كان الوزير الامريكى وزوجته قد استعدا في الحال لمغادرة بغداد الى مقر قائد القوة الجوية البريطانية في الحبانية ، وذلك للترحيب بالسفير البريطانى الجديد السر «كنهان كورنواليس» ، والذى وصل ـ كما قال هو نفسه ـ «متأخرا في ذلك اليوم» بل جد متأخر ليمنع وقوع الانقلاب •

ولقد اشترط ان تتضمن السفرة الى الحبانية وسائل لسلامة الوصى• فاذا ماتوفرت تلك الوسائل فانه يستطيع الوصول الى الحبانية • واذا

مااستطاع الوصى الوصول الى البصرة ، فسوف تعد لـه بارجـة حربيـة بريطانية ان دعت الحاجة الى ذلك •

اختفى الوصى في سيارة الوزير الامريكى تحت سجادة بين اقدام نابنشو وزوجته •

وكان على سيارات القوة الجوية البريطانية ان تتوجه مسبقا وهى تحمل المرافق عبيد عبدالله ، فتعبر الجسر وتنتظر ثم تسير وراء سيارة المفوضية الامريكية •

وعلى الجسر القائم فوق النهر ، نظر احد الضباط العراقيين الى داخل سيارة الوزير الامريكى • وقد لاحظت زوجة المستر نابنشو ان نهاية مسدس الوصى عبدالاله كانت ظاهرة من تحت السجادة ، غير ان الضابط تراجع وسمح للسيارة بالعبور •

كان علم الولايات المتحدة المثبت في مقدمة السيارة ، يمثل جواز مرور كاف في كل مكان للوصول بسلام الى القوة الجوية البريطانيـة في الحبانية •

لقد استطاع السفير البريطانى الجديد ان يرى حاكم البلاد في هذا المعسكر • ذلك لان السفير الجديد لم يصل الى سفارته الا في الوقت الذى حبس فيه داخلها بسبب الجيش الثائر •

تم قطع الاتصـال التلفونى عن الملكة وبقية افراد العائلة الملكية في القصر ، ومنع الزوار من الاقتراب منهم ، في حين سمح للخدم بالمجىء

الى القصر والخروج منـه • وقد اتخذت الاجراءات التى تضمن سلامة الملك الطفل ، لكنها لم تكن صحيحة ولا عملية •

ولغرض مناقشة هـذه الامور ، قررت الملكـة « عالية » وشقيقتها «عبدية» الخروج من القصر ، لوقت ما بعد ظهر احد الايام ، وقد ارتدينا عباءات قديمة ، واستأجرتا جملة من العربات التى تجرها الخيول ، كانتا تستبدلانها الواحدة تلو الاخرى ، حتى وصلتا الى بيت الدكتور سندرسن والتحدث الى خادمه الباكستانى •

توجه الخادم الى سندرسن وقال له « هناك سيدتان ترتديان عباءات رثة تريدان رؤيتك • لقد قالتا انهما شخصيتان مهمتان ، وكانتا تتحدثان كما لو ان قولهما كان صحيحا ، وانهما لاتريدان ان تذكرا اسميهما » •

واخيرا بقيت العائلة الملكية كلها في القصر ، الى ان تم نقلهـا الى اقامة جبرية في كردستان ، حيث بقيت هناك الى ان انتهت الثورة[١٢] •

لقد سلمت المجوهرات والاوسمة ، ومن بينها الوسام الهاشمى دو السلسلة الذهبية ، ووسام فكتوريا ، ومسدس مصفح بالفضة اهداه هتلر الى الملك غازى ، ووثائق اخرى ، سلمت كل هذه الاشياء الى القوة الجوية البريطانية لارسالها الى الكويت ، حيث ذهب الوصى الى القوة الجويـة البريطانية في زي ضابط بريطانى •

غير ان الطائرة التى نقلت هذه المجوهرات والوثائق ، وتولى قيادتها

---

(١٢) افرغ «ملا افندى» والد النائب المزمن «عزالدين ملا افندى» وهـو من الاكراد المشهورين في اربيل ، داره الكبيرة الفخمة في مدينـة اربيل لاقامة عالية وطفلها فيه طيلة ايام ثورة ايار •

ضابط الاستخبارات البريطانى الاول آمر الجناح الجوى «جوب سليد» ، هذه الطائرة مالبثت ان سقطت في مياه الخليج العربى ، ذلك لان الملاح فقد الاتجاه الصحيح ، واخفق في العثور على ارض يهبط عليها سواء في «الشعيبة» ام في الكويت ، قبل ان ينفد الوقود لديه • وزيادة في الاحتياط جرت هذه السفرة ليلا ، حيث تم اقلاع الطائرة من معسكر الحبانية في الوقت الذى كانت فيه نيران القناصة العراقيين تمطر المطار •

سبح الملاح مع الآمر «جوب سليد» لمدة طويلة في مياه الخليج العربى • لكنه كان يرى انه بعد دقائق معدودة لابد ان يعترف بعجزه ويستسلم لليأس ، ولو انه سباح ماهر ومتدرب ، حين مر زورق ينقل الماء قادما من البصرة الى مكان الحادث فالتقط الملاح •

لقد بذلت جهود كثيرة للعثور على الطائرة وحمولتها لكنها باءت بالفشل • وهكذا ضاعت تلك المجوهرات والوثائق العراقية والبريطانية ، ومن بينها ملف كبير على شكل عملة ورقية من دائرة الاستخبارات البريطانية في العراق ، تحت مياه البحر عند ساحل جزيرة «بوبيان» •

× × ×

نقل الوصى عبدالاله من الحبانية الى الاردن ، ومنها الى فلسطين ، بطائرة من طائرات القوة الجوية البريطانية •

وهكذا كان الفريق الذى تجمع في فندق الملك داود في القدس يضم الى جانب الوصى كلا من نورى السعيد وولده صباح اللذين نقلتهما طائرة بريطانية ايضا ، وداود الحيدرى ، وعلى جودت الايوبى ، وجميل المدفعى ، وعبيد عبدالله المضايفى ، والشريف حسين •

ولقد انضممت انا اليهم بعد ايام قلائل من وصولهم الى هناك حيث

قدمت من طهران عن طريق البصرة .

كان الرجال الاربعة الاول من السياسيين . في حين كان عبيد عبدالله، وهواول عراقي يدخل كلية «ساند هرست» العسكرية بلندن خيالا بالدرجة الاولى. اما الشريف حسين فلم يكن له ادنى اتصال بالحياة السياسية . وهكذا تم تأليف حكومة عراقية في المنفى - اذا جاز هذا التعبير - من اربعة اشخاص ، في حين ان الحد الادنى لتشكيل وزارة عراقية ، هو ستة اشخاص .

وعندما اخذت البرقيات من لندن ، تتوالى على الوصي وهي تلح عليه بأن يؤلف حكومة في المنفى ، كان عبدالاله مترددا في ذلك ، ليس لان النصاب لا يكمل الا اذا عين كلا من عبيد عبدالله والشريف حسين وزيرين حسب ، بل لانه كان يشعر بأن المتذبذبين في العراق سوف يتصلبون في مواقفهم اذا ماعلموا بأن نوري السعيد قد اصبح رئيسا للوزراء مرة اخرى .

واكثر من هذا كان كل من نوري السعيد وعلي جودت الايوبي وجميل المدفعي ، ينظر احدهم الى الآخر نظرة استهزاء . فاذا ما اظهر الوصي ، او بان عليه بأنه كان يؤيد واحدا منهم ، تجهمت وجوه الآخرين واصبحوا عابسين .

عندما كنت ادخل الى قاعة الفندق في كل صباح واجد احد هؤلاء الساسة غير موجود ، افاجيء الوصي متسائلا « اين فلان ؟ اصحيح كذا وكذا ؟ » . وقد يكون ذلك الوزير المتخلف عن الحضور قد اخفى وجهه وراء صحيفة يقرؤها وفي زاوية لاتحدث اليه ، راح يتظاهر بأنه

مصاب بصداع ، أو بأى ادعاء آخر • ففى كل يوم لابد وان يكون احدهم وحيدا ومكتئبا •

وفضلا عن ذلك ، وكما كان الوصى يدرك ذلك جيدا ، فان من الخطا تعيين نورى السعيد رئيسا لحكومة المنفى في الوقت الذى كان فيه ممقوتا من لدن العراقيين ، ولو ان الوصى لم يرد ان يجعل ذلك هو السبب • ولهذا كان الوصى يقاوم كل محاولاتى لاقناعه بتشكيل حكومة في المنفى ، في الوقت الذى كان فيه فشل تأليف حكومة في المنفى طبقا للمنهج المقرر ، يعتبر في لندن امرا مشكوكا فيه دونما ريب •

كان جميع العراقيين في المنفى يتساءلون بشكل ثابت عن انباء عودتهم الى العراق • وقد ظهر بأنهم كانوا يعتقدون بان الجيش البريطانى كان يتحرك ابطأ حركة عرفوها عنه • فالوحدة البريطانية التى عهد اليها أمر الاستيلاء على حصن «الرطبة» كانت بطيئة الحركة في الواقع ، لانها كانت تخشى وقوع هجوم جبهوى ضدها ، حيث كانت الحامية العراقية هناك تحتفظ بعدد من المدافع الآلية •

واخيرا ، وبمساندة من سلاح الجو ، سقط الحصن بأيدى سرية السيارات المصفحة التابعة للقوة الجوية البريطانية ، واذ ذاك بدأت الحركة الثانية •

كان نورى السعيد وآخرون معه ، جد متلهفين عندما أعدت لهم وسائل النقل ، وزودوا بالنقود ، وانبئوا بأنهم على وشك المغادرة • وقد تم تسفيرهم في النهاية الى قاعدة الحبانية • اما امتعتهم ـ ماعدا حقيبة واحدة لكل منا انا والوصى عبدالاله ـ فقد ارسلت سرا مع فريق صغير من

المتطوعين العراقيين الذين كانوا موجودين في الاردن او في أي مكان آخر عندما نشبت الثورة •

لقد طلب الى فريق النقل العراقي ان يتسلم اوامره من القائد البريطاني للقافلة • ولقد فرح هؤلاء لدى وصولهم الى نهر الفرات ، ورفضوا ان يتوقفوا هناك ، وواصلوا سيرهم نحو «الرمادي» التي كانت ماتزال بأيدي الثوار ، ولم يعرف لهم من اثر بعد ذلك •

وهكذا ، وبعد ايام قلائل ، كان الساسة يتطلعون الى تغيير ملابسهم، وقد استطاعوا الحصول على اذن لهم بالتسوق من حوانيت القوة الجوية البريطانية في الحبانية • لقد كان من غير المصيب ان يفعلوا ذلك لولا استثناء تم تنفيذه لهذا الغرض •

وهكذا ظهر اولئك الساسة ، الذين كانوا في وقت من الاوقات من الاشخاص البارزين الذين تعلو البعض منهم سيماء المهابة ، وهم يخطرون في معسكر الحبانية بسراويل قصيرة من الخاكي ، وبثياب بيضاء مما يرتديه افراد القوة الجوية البريطانية بعد انتهاء اوقات الدوام !

نصبت لهؤلاء الساسة خيام في بستان نخيل خارج المعسكر ، كيما يستطيعوا بذلك ان يظفروا بجو اكثر استقلالا • واذ ابصرتهم احدى الطائرات الالمانية من طراز «مسرشمدت» وامطرتهم برشاشاتها ، فقد هرعوا يتسللون ببطء الى امام وقد استولى عليهم الهلع ، واذ ذاك خاطبهم الوصي عبدالاله قائلا « من منكم يريد العودة الى فندق الملك داود ، ومن يريد ان يذهب معي الى بغداد ؟ » •

لقد كان عبدالاله جريئا في ذلك • وفي اليوم التالي وجدتهم قد

نقلوا ليس الى بيت المقدس ، وانما الى بناية تقع على شواطىء بحيرة الحبانية ، كانت تستخدمها شركة الخطوط الجوية الامبراطورية ، والتي سبق للثوار ان نهبوا محتوياتها •

ولقد قام اولئك الساسة مع لفيف من المتطوعين بتنظيف البناية ، وازالة كميات من الزجاج المهشم ، حيث حطم الثوار كل النوافذ فيها ، وبذلك غدت البناية قابلة للسكن فيها مرة اخرى •

كان الوصي منهمكا في استجواب الاسرى الذين اسرهم الرتل البريطاني ، والافراد الذين اقبلوا مستسلمين للوصي وانضموا اليه • ولقد تم تسليح هؤلاء الذين اظهروا ولاءا اصيلا ، والف منهم حرس كان يؤمل ان يتسع فيكفي لتأليف كتيبة موالية للوصي •

ولقد شجعتني السلطات البريطانية على صرف النقود ، ووضع تحت تصرفي اعتماد حصلت معه على سيارات من بيت المقدس لاستخدامها من قبل الوصي وجماعته ، ووزعت على هؤلاء مبالغ كان ينبغي ان يسددها العراق فيما بعد •

وكان المؤمل ان يستطيع الوصي وجماعته بهذه النقود ضمان تأييد العشائر لهم • فقد قيل « ان لدينا القليل من الاسلحة ولكن الشيء الوحيد الذي ينقصنا هو النقود » • ولقد وجدت نفسي استحق اللوم لانني لم انفق تلك النقود بسخاء •

غير ان اثارة العشائر لتأييدنا كان امرا مستحيلا • ولا بد ان كان هذا الامر يمثل خيبة امل لاولئك الذين كانت تدور في مخيلاتهم خطوط الحملة التي قادها «لورنس» اثناء الثورة العربية منذ وقت بعيد •

وهكذا تقدمت ساقة من الابل التى تحمل قرب اللبن عبرالصحراء، وكنت انا والوصى نسير وسط هذه الناقة ، وقد حملت معى في الخرج اكياس النقود ، كما احاط بنا حرس خاص ، كيما تظهر القافلة بهذا المظهر •

كانت الحقيقة المخيبة للآمال ، هى ان ذلك الوقت من السنة لم يكن ملائما لاجراء تعبئة في الصحراء ، على اى حال • فقد انفقت بضعة اسابيع في استنهاض همم افراد العشائر • لقد كان هؤلاء مترددين في التمرد مالم يحصلوا على احدث الاسلحة ، ذلك لانهم ذاقوا طعم ماتفعله الرشاشات والطائرات ، ولانهم يدركون ان لا امل لهم في ربح المعركة ضد قوات مجهزة تجهيزا جيدا •

لقد كان مستطاعا تجنيد البدو وتدريبهم ، مثلما تم انجاز ذلك بالنسبة للجيش العربى في الاردن • غير ان مثل هذا العمل يستغرق وقتا ، في حين كنا جميعا نتطلع الى السرعة • وحتى اذا ما جمعنا البدو سوية للقيام بغارات صغيرة على طرق المواصلات في مثل هذا الوقت من السنة ، فان ذلك سوف يصبح امرا مستحيلا في الوقت التالى • ذلك لان البدو يتراجعون خلال الصيف الى الاماكن التى يتوفر فيها الماء بصفة دائمة ، والا فلسوف تنفق حيواناتهم نتيجة نقص الورد • وها ان الصيف العربى قد اقبل علينا فورا •

كما ان هؤلاء الذين يتركون خيامهم لابد ان يوفر لهم طعامهم ومياههم • وقد اصبح الطعام المتوفر لهم في الخيام ، خلال شهر ايار ، واطئا،لان البدو كانوا يتسوقون ويخزنون مايتسوقونه من«مراكز تموينهم»، اى في المدن التى تقع على حدود الصحراء ، في اوائل فصل الخريف •

ولما كان العشب ينعدم ولا يبقى منـه سوى الشيء الضئيل خـلال الصيف ، فان البدو يحتاجون الى اكياس من الطعـام لمواشيهم ، مثلمـا يحتاجون ذلك تماما لانفسهم •

ولذلك فان ارسال برقيات لدعوة جميع الشيوخ الذين يسـافرون باستمرار ايام اشتداد الحر ، سوف يستغرق عدة ايام ، وسيكون وصولهم في وقت اطول •

لقد تم التخلي عن هذه الخطط • وبدلا عنها اشترينا من فلسـطين سيارات لنقل الافراد والامتعة ، ووفرنا السائقين والحراس المرافقين لها •

كان استخدام العشائر المهمة التي تسكن قرب الانهار في الجزء الاصلي من العراق ، يمثل قضية مختلفة • ذلك اننا اخذنا نتطلـع الى تنظيم اخلاصهم ، وتوزيع النقود عليهم ، وارسال الرسائل اليهم •ولذلك فان احدا منهم لم ينهض لمساندة رشيد عالي الكيلاني •

وفي الوقت ذاته كان هناك قلق في لندن له اسبابه • ذلك ان المستر تشرشل الذي بدأ في اليوم السابع مـن ايار بالقاء خطـاب عن الوضـع الحزبي ، كان قد اشار لاول مرة الى « امر سيء ومتعب جدا ، هو ان كلا من «فارس» و «بلاد الرافدين» عندما غيرتا اسميهما في ذات الوقت تقريبا ، اصبحتا تعرفان باسم «ايران» و «العراق» » • ومن ثـم واصل تشرشل خطابه فقال «لقد اشار البعض الى ماحدث في العراق بأنه دليل آخر على فشـل استخباراتنا ودبلوماسيتنا • لقد تسـاءل صديقي المبجـل الشهم «نوكس» عضو البرلمان عن منطقـة «ويكومب» عن ذلـك الامر بطريقة ودية •

لقد قيل لنا ان وزارة الخارجية لاتعرف الآن اى شيء عما يحدث في العالم ، وان تنظيماتنا ليست ملائمة تماما لمواجهة المصاعب الحالية .

غير اننا كنا نعلم بصفة جيدة بكل ماحدث في العراق ، وان وزارة الخارجية كانت قد بدأت منذ شهر ايار الماضى ، اى قبل سنة ، تطالب بارسال قوات الى هناك لحماية خط المواصلات . ولكن ليس لدينا قوات. ذلك لان كل مانستطيع ان نرسله من قوات يجب ان يتم توجيهها الى «وادى النيل» . لقد كان من العسير علينا ـ نتيجة نقص القوات ـ ان نتحرك قدما ضد المكائد الموالية للمحور التى يحوكها رشيد عالى الكيلانى، الذى ما ان تمت ازاحته عن السلطة بطلب منا ، حتى عمد الى تدبير انقلاب ضد الوصى، وضد الحكومة الشرعية في البلاد . وكان واضحا ان الهدف الذى يهدف رشيد عالى الكيلانى اليه ، هو ان يهيىء كل شيء للالمان ، حالما يستطيعون الوصول الى العراق ، طبقا للبرنامج المعد .

ومع ذلك وفي مثل هذه الحالة ، نجد الحكومة البريطانية سيئة الاطلاع ، والكسولة التى تشبه طفلا يلبس القفازات ، والتى اصبحت في مثل هذا الوضع دون ريب ، بعد ان حرمت من قابليات بعض الاعضاء الذين لهم قيمتهم ، نجد ان هذه الحكومة كانت نفسها تتوقع مثل هذه المؤامرة فعلا .

فقبل ثلاثة اسابيع قامت قوات بريطانية قوية يجرى تعزيزها باستمرار من الهند ، بالنزول الى ميناء «البصرة» وهى الآن تحتفظ بالسيطرة على رأس هذا الجسر المهم جدا في الشرق ، والذى سوف نقاتل في سبيله قتالا شاقا وطويلا دون شك » .

اما بالنسبة الى الحقيقة فان السفارة البريطانية في بغداد لم تكن

سطة تماما بشأن الاحداث المقبلة بالصفة التى كان ينبغي لها ان تكون ، وان رشيد عالى الكيلانى لم يزح عن منصبه بناء على طلبنا ، لانه فعل كل ما في وسعه ، والى آخر لحظة ، لكى يمنع او يؤخر وصول قواتنا ومرورها عبر العراق ، ولو ان ذلك كان قد جرى طبقا لمعاهدة سنة ١٩٣٠ •

لقد بدا لآمر القوات البريطانية عند وصولها الى البصرة ، بعد الانقلاب ، وكأنه كان يتوقع ـ كما اشار الى ذلك تشرشل في مجلس العموم ـ «بأن يخوض قتالا شاقا وطويلا» • ولربما كان سبب ذلك هو ان الجيش البريطانى والجيش الهندى قد احتاجا الى ثلاث سنوات للوصول من البصرة الى بغداد ، عبر المناطق التى تسكنها العشائر على ضفاف الانهار خلال الحرب العالمية الاولى •

وعندما اقترحت عليه في البصرة بأن تتقدم بعض قواته بسرعة الى بغداد ، عبر الصحراء التى تمتد غربى الانهار ، وان تستولى على كل نقطة صغيرة للشرطة في الصحراء ، وعلى كل بئر في الصحراء ، قوبلت هذه الفكرة بالرفض •

ولذلك سافرت الى فلسطين في طائرة مدنية هولندية ، وكنت مسرورا لانني فعلت هذا • ذلك لان التقدم من فلسطين ، والوصول الى بغداد ، يستغرق شهرا واحدا • وقد انجز هذا التقدم وباصابات قليلة ، في الوقت الذى كان يصعب فيه على القوات التى نزلت في البصرة ان تتحرك •

كان الحر شديدا • وكان احد افراد القوة التى نقلت من فلسطين ، وقد وجدته غير مرتاح فعلا ، هو القرد التابع لسرية الخيالة الذى وجد

الرمل الحار في منتصف النهار ، امرا لايطاق • ولذلك فانه ما ان هبط حتى اخذ ينط ويجرى بوحشية نحو الظل •

لقد علمنا بأن حامية الحبانية قد قاتلت بشجاعة • فقد اتخذ الثوار، في اول الامر ، موطئا لهم على التلال التي تسيطر على المعسكر • وقامت طائرات الثوار بقصف المعسكر ذاته • كانت هنالك منطقة يبلغ محيطها مقدار سبعة اميال ، ينبغى الدفاع عنها • ولو لم تقم الحامية بالهجوم ، وترد العدو عن ابواب المعسكر ، لتمت ابادتها فعلا •

كان المدفعان القديمان من عيار اربع عقد ونصف العقدة ، واللذان نصبا بصفة ظاهرة عند احد ابواب المعسكر ، يعتبران من المدفعية الوحيدة لدى المدافعين • وكانت طائرات المدافعين تتـألف من طائـرات التدريب القديمة وهى قليلة العدد •

غير ان معنوية الحامية الصغيرة ومناورتها ، هى التى انقذتها • فقد كانت الحاميـة تقوم بأعمال الهجـوم بكل شجاعة ، واستطاعت استعادة الاراضى المرتفعة التى تسيطر على المعسكر • كما انها تمكنت بقيادة المقدم «السير غراهام» وسريته المؤلفة من الاثوريين ، ان تندفع فيما بعد ،وتحتل الجسر الوحيد القائم على نهر الفرات ، وتدخل قرية « الفلوجة » عـلى الضفة الشرقية من النهر ، حيث تمركزت هى وكتيبة اخرى في الفلوجة، وراحت تشن منها هجمات مضادة •

وعندما وصلت القـوات البريطانيـة التى قدمت من فلسـطين الى الحبانية ، كان كل من الوصى عبدالاله ، ونورى السعيد ، قد شرع يطرح آراءه عن الوضع ، مستخدمين في ذلك المعلومات المحلية التى توفرت لهما•

وما ان تم نصب جسر آخر متأرجح فوق نهر الفرات ، حتى شرع الرتل الذي اقتحم الفلوجة ، وكذلك الجيش العربي الاردني ، يمنع الثوار من استعمال الطريق الشمالي القادم من بغداد اثناء النهار •

اخذت القوة العراقية الصغيرة الموالية للوصي ، تتعاظم وكان الوصي يأمل ان يسيطر بها على الميدان • لكن الرتل البريطاني الرئيس الذي يقوده الفريق «كلارك» بدأ في الحال تقدما بطيئا وضروريا نحو بغداد ، وذلك عبر الريف الذي اغرقه الثوار بالمياه •

كان الجنود البريطانيون الذين عبروا نهر الفرات ، يتعقبون آثار الجيوش العظيمة الشهيرة في التأريخ السالف • فهنا كنا نتقدم فوق ارض تأريخية • كما ان استعادة الامن في العراق سوف تكون لحظة مهمة وتأريخية بالنسبة للحرب في الشرق •

لقد سبق للالمان ان نقلوا طائرات الى العراق ، عن طريق حلب ، وبعثوا بمستشارين رسميين الى الثوار • وكان من بين هؤلاء المستشارين «اكسل فون بلومبرغ» احد الطيارين الممتازين ونجل المشير « فون بلومبرغ » • وقد استقبله في مطار بغداد عدد من كبار الثوار في اليوم الثاني عشر من ايار •

وعندما ارادت الطائرة التي يقودها «اكسل» ان تهبط على الارض ، اطلق احدهم – وهو غير معروف لا لدى الملاح ولا لدى لجنةالاستقبال – النار على الطائرة فأصاب الطيار في بلعومه • وحين هرع العراقيون لمصافحة الطيار وجدوه جثة ملطخة بالدماء[١٣] •

---

(١٣) اكدت كل المؤلفات الانكليزية ان ابن بلومبرغ قتل برصاصة

::

كانت معنويات قادة الثوار ضعيفة اصلا • ويبدو ان هـذا الحـادث كان نقطة تحول • فبعد ايام قلائل ، وحينما اقترب الرتل البريطاني من بغداد ، بدأ زعماء الثوار يهربون الى ايران ، وكانوا يقصدون الوصول الى المانيا فعلا ، كما فعل ذلك رشيد عالى الكيلاني تماما •

لقد استطاعت القوة الجويـة البريطانيـة ان تدمر في الايام الاولى للثورة ، احتياطي بنزين الطائرات الذى كان الثوار يحتفظون به(١٤) • ومنذ ذلك الوقت شرعت الطائرات البريطانية ترمي الرسائل الموجهة الى شيوخ العشائر •

وفي احدى المناسبات اسقطت احدى هذه الرسائل على القصر ، على امل ان تسلمها الملكة ، لكن الواقع هو ان الملك والعائلـة المالكـة قد نقلوا جميعا الى اربيل في كردستان ، من قبل الثوار ، وللاقامة الجبرية هناك مع احد من الاعيان(١٥) •

كذلك القت الطائرات البريطانية ايضا رسائل موجهـة من الوصي

=

طائشة وجهت الى طائرته اثناء محاولتها الهبوط في مطار بغداد • غير ان بعض المصادر العراقية ـ وفي مقدمتها كتاب محمود الدرة المعنون «الحرب العراقيـة البريطانية» ـ تؤكد ان ابن بلومبرغ قتل نتيجة اشتباكه في معركة جوية مع الطائرات البريطانية •

(١٤) تم خزن بنزين الطائرات المتوفر لدى القوة الجوية العراقيـة في محطة «كاسل بوست» شمالي الشماعية ولكن الطائرات البريطانية عرفت بالمكان الذى خزن فيه الوقود فألقت عليه القنابل واحرقته برمتـــه •

(١٥) المقصود به «ملا افندى» الذى سبقت الاشارة اليه ولم يكن عضوا في مجلس الاعيان كما ذكر المؤلف خطأ •

عبدالاله الى امين العاصمة ، ومدير الشرطة ، واهالى بغداد .

لم يتلق الثوار كل المساعدة المباشرة التى كانوا يتوقعونها من المانيا. ولذلك بعث رشيد عالى الكيلانى بوزير خارجيته «ناجى السويدى» لمواجهة الملك عبدالعزيز بن سعود على امل ان يساعده . لكن ابن السعود لم يخدع ، بل اخبر ناجى السويدى قائلا « لو اننى وجدت منفعة للعرب في العمل الذى قام به رشيد عالى ، لوقفت الى جانبه ، دون ان تكلف نفسك عناء المجيء الى هنا لطلب المساعدة مني » .

ثم تساءل ابن السعود قائلا « ايريد مني رشيد عالى الآن ، وانا رجل مسن ، ان اخون هؤلاء الذين ساعدوني عندما كنت شابا ؟ » .

في نهاية شهر ايار كان القائد البريطانى مايزال غير واثق من تحقيق نجاح مبكر . ذلك لان العدو كان قد تخندق في منطقة « الكاظمية » تسانده المدفعية . كان الرتل البريطانى مايزال على بعد ثمانية اميال غربى بغداد . وكان يقوم باصلاح الجسور المخربة على القنوات الواقعة في طريق تقدمه . ولقد قال القائد البريطانى « ان البلاد عازمة على الدفاع عن نفسها اعتمادا على الرشاشات التى يمتلك العدو الشيء الكثير منها » . غير ان اذاعة الثوار قد اظهرت هبوطا في المعنويات .

ولذلك كان نورى السعيد وداود الحيدرى ، يكتبان ـ بحماسة طاغية ـ نصوص المنشورات التى كانت تلقيها طائرات القوة الجوية البريطانية ، والتى كانت تحرض الناس على التخلى عن الثوار ، وتأييد الوصى .

وما ان حل اليوم الثلاثون من ايار ، حتى وصلت الينا برقية من

ايران تقول ان رشيد عالى قد عبر الحدود • وبعد فترة قصيرة تسلمنا اول برقية لاسلكية من السفارة البريطانية في بغداد • وبعد فترة طويلة من الصمت ، ابرقت السفارة البريطانية الينا تقول ان لجنة الهدنة سوف تصل الى الجسر الحديدى فوق قناة « الخر » غربى بغداد في الساعة الثانية بعد الظهر •

ولقد ذهبت بنفسى لمواجهة اللجنة المذكورة ، يصحبنى كل من المقدم «سبنس» وعلى جودت الايوبى وصباح نورى السعيد • وقد تأخر اعضاء اللجنة في الوصول حسب الموعد ، فلم يصلوا الا في الساعة الرابعة• وعندما استداروا اخيرا وجدت من بينهم صديقى القديم « غازى الداغستانى » •

ومما قلناه لاعضاء اللجنة اننا نريد قبل كل شيء ان نواجه السفير ، وهكذا مضينا نحو السفارة ، التى كان هذا اول اتصال لها بالعالم الخارجى، ذلك لان الشروط مع الثوار لايمكن ان تتم دون علم السفير • ولما كان القائد لم يحاول ترك قواته ، فقد عاد السفير كنهان كورنوالس على رأس الرتل البريطانى •

اعرب كورنواليس عن رأيه بعدم الحاجة الى اخذ ضمانات عسكرية ، وان الجيش العراقى ـ وكثير من افراده قد خدعهم الثوار ولم يكونوا من المتمردين في الواقع ـ يجب ان يسمح له بالانصراف وهو يحمل سلاحه •

كان لهذا القرار الحكيم ، والذى افزع رؤساء الاركان في انكلترا في حينه ، اثره الفعال في تحسين العلاقات فيما بعد اكثر مما كان يتوقع ، وانى اعتقد بأن تأثيره مايزال قائما •

ففى الاضطرابات التى وقعت فيما بعد ، وفي ذروة ثورة العواطف ، يندر ان اصيب بريطانى واحد بأذى وبصفة متعمدة ، ولو ان البعض من البريطانيين قد جوبهوا بشيء من المضايقة .

بعث امير الاردن برقية تهنئة الى الحكومة البريطانية يثني فيها على روح الصداقة القائمة بين العرب والبريطانيين ، وعلى « التعاون الذى توثق بين الوصى على العرش واتباعه ، والشخصيات الكبيرة في العراق ، وبين السلطات البريطانية المسؤولة التى وقفت الى جانبه ، وعلى السياسة الثابتة التى انتهجتها القيادة البريطانية في ميدانى البر والجو » .

استقبل الوصى عبدالاله استقبالا حماسيا من لدن اعيان بغداد الذين خفوا لاستقباله ، يقودهم كل من رئيس مجلس الاعيان «محمد الصدر»، وامين العاصمة ضئيل الجسم النشط(١٦) .

ولقد اصر الوصى على الغاء احتفالات الاستقبال التى اقترحتها امانة العاصمة . وبعد ساعات قلائل دخل بغداد ، فتوجه الى القصر ، مباشرة ، لان اهتمامه الاول كان مركزا في الاتصال بالملك هاتفيا ، ولقد امسك بسماعة الهاتف كيما استطيع انا ايضا ان اسمع صوت الصبى الذى بدا عليه التأثر بشكل ظاهر جدا وهو يتحدث الى خاله مرة اخرى .

اكد كل من امين العاصمة ومدير الشرطة للوصى بأن الامن سوف يستتب . ولكن على حين غرة ، وعندما تحقق للدهماء بأن الجيش

---

(١٦) هو السيد ارشد العمرى امين العاصمة آنذاك الذى اصبح وزيرا للخارجية ووكيلا لوزارة التموين في وزارة حمدى الباجهجى الثانية ، ثم رئيسا للوزراء في اعقاب استقالة وزارة توفيق السويدى التى تألفت في اوائل سنة ١٩٤٦ .

العراقي عائد ، وان الجيش البريطاني لن يدخل بغداد - لان قائده رفض ذلك على اساس ان هذا الدخول يمثل خطرا على قواته في الشوارع الضيقة - اقدموا على نهب حوانيت اليهود[17] في الشارع الرئيس ، الامر الذى اضطر بعض اصحاب هذه الحوانيت على رفع الاعلام البريطانية عليها ، وان تسخر من المسلمين المندحرين • وقد امكن التغلب على الاضطرابات الناجمة في الحال ، ولكن وسائل الاعلام في «لندن» راحت تشيد بالسمعة الحسنة للوصى ولاولئك الذين شوهت سمعتهم معه •

غير ان بهجة العودة كانت مؤذية للوصى • فقد ذكر ، بشكل غير صائب ، بأنه لو الفت حكومة في المنفى ، واستطاعت ان تسيطر على بغداد عند دخولها اليها ، لما اصيب اى فرد بأى اذى كان • غير انه لم يكن في مستطاع الوزراء ان يفعلوا شيئا ما ، او ان يتصرفوا بأسرع مما فعلته سلطات المدينة التى اتخذت الاجراءات المباشرة لمكافحة الاضطراب •

ومع ذلك فقد اظهر الوصى امتنانه من اولئك الذين بقوا مخلصين له ، والذين ساعدوه بشكل ظاهر في سنة ١٩٤١ •

فعندما توفى السفير الامريكى الشجاع المستر نابنشو نتيجة تسمم بالدم ، بعد حوادث سنة ١٩٤١ مباشرة ، وهب الوصى زوجة السفير دارا، ومعونة للعيش في بغداد ، حتى الى مابعد انتهاء الحرب العالمية الثانية •

---

(١٧) كان من جملة الامور التى اثارت ثائرة العوام في بغداد هو الابتهاج الذى اظهره اليهود بصفة خاصة بفشل الثورة وعودة عبدالاله ، فقد كان هؤلاء يتظاهرون بذلك الابتهاج نكاية بالمسلمين ولقد بدأت اولى بوادر «الفرهود» بعد عودة الجموع التى استقبلت عبدالاله وجماعته في المطار المدنى في ظهر ذلك اليوم •

ولذلك فانها لم تواجه الرحلة الطويلة في البحار المحفوفة بالاخطار، لغرض العودة الى وطنها ٠

كذلك اعطى الوصى للآخرين اوسمة عراقية ، او وظائف يشغلونها في العراق ٠ ففى شهر تشرين الثانى سنة ١٩٤٣ ذكرت احدى صحف لندن المسائية « ان حادثا غير اعتيادى قد وقع في احد الفنادق الليلة الماضية. هذا الحادث هو اقامة حفل تكريم جرى في الجناح الذى يحتله الوصى في فندق «كلارج» وقد كان ذلك الاحتفال تعبيرا من الامير الشاب عن امتنانه من افراد القوات البريطانية الذين ساعدوه خلال الايام العاصفة من سنة ١٩٤١ على الهرب الى خارج البلاد ، كيما يعود فيما بعد فيقود تلك البلاد الى جانب الامم المتحدة ٠

ومن ناحية اخرى اصر الوصى على ان ينزل بالرجال الذين قادوا الثورة ، العقاب الكامل ٠ فقد تم شنق اولئك الذين حكم عليهم بالاعدام في ذات الوقت الذى تم فيه القاء القبض عليهم ٠

لقد التجأ رشيد عالى الكيلانى الى العدو ٠ وعندما اجبر – بعد انتهاء الحرب – على مغادرة المانيا ، فر الى المملكة السعودية حيث منحه الملك ابن السعود الامن هناك ٠ وحين عاد الى بغداد بعد ثورة ١٩٥٨ لم يبق حرا لفترة طويلة ، فقد زج به في سنة ١٩٥٩ في زنزانة منعزلة في سجن بغداد ٠

اما مفتى القدس السابق فقد هرب من بغداد الى ايران ٠ وحين دخل الجيش البريطانى ايران في صيف ١٩٤١ ، تم القاء القبض على المرافق الرئيس له[١٨] ٠ لكن المفتى استطاع ، بمساعدة الايطاليين ،

---

(١٨) هو عثمان كمال حداد الذى اصدر بعد الحرب العالمية الثانية كتيبا =

ان ينضم ــ بعد ان حلق لحيته ــ الى ملاحي سفينة ايطالية صغيرة ، ثم نقل جوا فيما بعد • وقد مكث اثناء الحرب في ايطاليا والمانيا ، ومنهما ذهب الى سويسرا في سنة ١٩٤٥ ومن سويسرا تسلل الى فرنسا مباشرة، حيث وضع تحت مراقبة الشرطة في «لوفسيان» على مقربة من باريس ، الى ان هرب من مطار «اورلي» في احدى الطائرات الامريكية التي القاهرة في سنة ١٩٤٦ •

وهكذا استطاع المفتي ، بعد الحرب ، ان يواصل حملته في الشرق الاوسط ، وبدعم من الروس هذه المرة ، ضد بريطانيا واصدقائها •

كان الوصي يحرص دوما على دعم ابن اخته علانية • فحيثما كانا يظهران وهما يسيران سوية جنبا الى جنب في بعض مناسبات التفتيش ، يلاحظ من الجانب الذي يسير فيه الوصي انه كان يتأخر دوما عنه بنصف خطوة • هنالك القليل من الافراد ، في مثل مركز عبدالاله ، لم تراودهم الرغبة في ابعاد حراسهم عنهم • وكان الكثيرون من الحراس في الشرق وفي اوربا ايضا ، في الماضي ، يتآمرون ضد اسيادهم بصفة فعالة • ولكن عبدالاله لم يسمح لمثل هذه الافكار بأن تتطرق الى ذهنه • كما ان مركزه الرسمي لم يحل بينه وبين ان يمارس حياته الاعتيادية ، ولم يفقده الاحساس بالمرح ، والرقة ، والاستمتاع بالاشياء الصغيرة •

فحيثما استطاع الى ذلك سبيلا ، كان عبدالاله يقيم حفلات العشاء الخاصة ، ويدعو البارزين من الضباط العراقيين والبريطانيين الى القصر• فقد حدث ذات مرة ان التقى ، حين كان يمتطي جواده خارج القصر ،

= عن حركة رشيد عالي الكيلاني فضح فيه مؤامرة الالمان والايطاليين ضد تلك الحركة وتنصلهم عن تأييدها في حينه •

بضابط من اعضاء البعثة العسكرية البريطانية في العراق ، فطلب اليه ان يتمهل ويتناول شيئا من الشراب عنده . ولكن ذلك الضابط اخبره بانه ذاهب في مهمة الى كردستان لمدة يومين ، واستطرد الضابط في حديثه يقول « يبدو وكأنني سأحتفل بعيد ميلادي في الاسبوع القادم على قمة احد الجبال الكردية » .

بعد يومين من ذلك الحادث ، تحدث مرافق الوصي بالهاتف الى ذلك الضابط يدعوه الى تناول العشاء في يوم مولده ويقول له « وانك سوف تؤمر بالذهاب في ذلك الوقت ، فهل تتفضل وتطلب الى القائد بان يؤجل ذهابك بحيث تستطيع ان تحضر العشاء ؟ » .

× × ×

عندما كان عبدالاله في لندن في شهر تموز ١٩٤٥ ، وهو في طريق عودته من زيارته للرئيس الامريكي «ترومان» وللحاكم العام في «كندا» ، دعي لتناول طعام الغداء في قصر بكنغهام . كان حتى ذلك الوقت ما يزال شديد الخجل ، وقد سأل عما اذا كان يستطيع ان يعرف الضيوف الذين سيحضرون هناك وهو يقول « انني اود ان اعرف الاشخاص الذين سألتقي بهم ، وان اتحدث اليهم ، لأن ذلك سيكون ايسر علي ان انا عرفتهم مسبقا ! » .

كان عند عودته من تلك الدعوة متألق الوجه ، ذلك لانه كان لوحده مع الملك والملكة ، والاميرة « اليزابيث » . ولقد افضت الحكومة البريطانية بأن من المستحسن ، ان يقوم عبدالاله بزيارة الجيش البريطاني في المانيا ، ولذلك طار هو ونوري السعيد الى هناك ، فقاما بجولة سريعة ، وشاهدا القوات الانكليزية التي

كانت تحت امـرة السر « بريان هروكس » ، كمـا تجـولا في بعض المدن المهدمة ٠

وعند وقوفهما على انقاض في وسط مدينة «هانوفر» الالمانية ، قيل لهما انهما يقفان الآن في محطة القطار التى لم يبق اى اثر يشير الى وجود تلك المحطة سوى احد مصابيحها المهشمة !٠

وكانت تشاهد هنا وهناك مخلوقات بشريـة بائسة تخرج من بين الاحجار ، انها البيوت التى اقامها اولئك البشر لانفسهم في بقايا الانقاض والملاجىء ، اذ لم يبق لديهم اى مكان آخر يسكنون فيه ٠ ولقد بدت الكآبة واضحة على محيـا عبدالاله ونورى السعيد لدى رؤيتهما النتائج التى ادى اليها القصف الجوى ٠ ولقد سـأل عبدالاله عمـا اذا كان في مقدوره ان يعـود الى لنـدن بالسيارة ، حيث كان قد اشترى سيارتين كبيرتين ، عبر اوربا المحتلة ، ومن ثم يركب الباخرة الى تركيـا ، لان الرئيس التركى قد دعاه للتحدث معه حول العلاقات القائمة بين بلديهما، وعن امكانية اقامة حلف جديد للشرق الاوسط !٠

ولما لم تكن توجد في ذلك الوقت خطوط بحريـة تسير بانتظام ، فقد عرض عليه ان يسافر في إحدى السفن الحربية البريطانية ٠ كما ان في مستطاعه ، في فرنسـا وفي ايطاليا ، ان يمكث مـع الجيش الانكليزى الموجود هناك ٠

غادرت الجماعة مدينـة لندن الى مضيق «دوفر» في باكر صبيحـة اليوم الخامس والعشرين من شهر آب سنة ١٩٤٥ ٠ وكان عبدالاله قد اصر على ان يقود السيارة بنفسه طيلة الطريق من ميناء «كاليه» الى مدينة «نابولى» ٠ وفي المدن والقرى المنتشره على امتداد الريفيرا الايطاليـة تأثر

هو ونوري السعيد تأثرا بالغا بالمظهر السعيد الذي ظهر به الايطاليون اذا ماقورن ذلك بمظاهر شعوب فرنسا والمانيا •

وعلى امتداد الريفيرا الايطالية كان يشاهد المئات من العمال الشبان الذين لايرتدون سوى الملابس القصيرة المصنوعة من مواد صناعية ، وهم يعملون في اصلاح الطرق التي دمرتها القنابل • كانت السيارة تسير حول زاوية حادة في طريق منحن يقف فيه تمثال صغير لهرقل وهو يحمل الفأس ، وسط اكوام من صخور مهشمة • هنا سأل الوصي قائلا «لماذا يقول هذا التمثال أنني اريدك ؟» فأوضحت له ذلك مقدما •

وفي مدينة «ميلانو» تناول عبدالاله الغداء على ساحل بحيرة «كومو» واستطاع عن طريق احد الزوارق ان يشاهد عن بعد ، المنزل الذي قتل فيه موسوليني ، واذ ذاك سألني «هل تلاحظ ان نوري السعيد لايود النظر الى ذلك المنزل ؟» •

ولقد امضى عبدالاله ونوري وقتهما في مدينة «البندقية» بكل هدوء، حيث هبطت «فريا ستارك»[١٩] من «فيلتها» في «صولو» لتساعد في ايناس عبدالاله • وقد اعتاد ان يذهب بعد العشاء الى القنال الكبير ، حيث يشرع

---

(١٩) فرياستارك FRYA STARK من المغامرات الانكليزيات اللواتي اشتهرن قبيل الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، على غرار غيرترود بل ، وروزيتا فوربس • طافت بالبلاد العربية ، وايران ، ومصر والشمال الافريقي ، ووضعت عن ذلك كتبا عديدة من بينها كتاب بعنوان «الشرق غرب» • حبست اثناء ثورة ايار ١٩٤١ في العراق مع بقية الرعايا الانكليز في السفارة البريطانية ببغداد ، ونشرت عن ذلك كراسا بعنوان «الحصار» ترجمناه مع ماكتبه تشرشل في مذكراته عن تلك الثورة واصدرناه في كتيب صدر في

ملاحو الزوارق على كلا جانبي القنال ينشدون قبالتـه مقطوعات للشاعر «اريوستو»[٢٠] .

من بين جميع المدن التي زارها عبدالاله في القارة الاوربية ، كانت البندقية هي المدينة الوحيدة التي لم تغيرها الحرب الا قليلا . فما خلا رؤية مظهر افراد القوات الحليفة ، وتغيب الحمائم عن «بيازا سان ماركو»، والتي قيل عنها بأن البندقيين قد اقبلوا على اصطيادها واكلها ، لم يظهر في المدينة سـوى فرق ضئيل ، ولذلك كان عبدالاله ونوري السعيد يشيران بعد ذلك بشكل غالب الى البهجة التي نعما بها خلال وجودهما في البندقية لبضعة ايام بعد انتهاء الحرب .

غادر الركب مدينة روما الى نابولي في اليوم العاشر من شهر ايلول وكان الجنرال «انفانتي» قد وفد مبعوثا من القصر لوداع الوصي وحاشيته، وذلك نيابة عن آمر المنطقـة الذي سبق للوصي ان زاره واعجب به . وتوقف الركب في منطقة «دير كاسينو» لمشـاهدة ارض المعركـة . وفي مدينة «كاسرتا» قدم «الفيلد مارشال الكسندر» الى عبدالالـه هديـة لملك العراق ، هي نموذج لمدفعين مضادين للدبابات ، اتماما لهدية سابقة كانت تمثل نموذج دبابـة قدمت الى عبدالاله اثناء زيارته الصـحراء الغربيـة سنة ١٩٤٢ .

سنة ١٩٦٣ بعنوان «ثورة العراق في مايس سنة ١٩٤١» وصدر لها عن بغداد في تلك الايام كتاب بعنوان «غبار في مخلب الاسد» من الكتب التي قررنا ترجمتها ونشرها في وقت مقبل .

(٢٠) لودفيكو اريوستو ١٤٧٤ – ١٥٣٣م .. شاعر ايطالي ولد في ريجيو باقليم «لومباردي» وكان ابوه آمرا لقلعة ريجيو . اظهر لودفيكو ميله الى الشعر منذ سنواته الاولى فأجبره ابوه على دراسة القانون لكنه عاد الى هوايته الادبية بعد وفاة ابيه .

كذلك قام الركب بزيارة مدينتي «بومبي» و «سورنتو» على ظهر قارب حربي بريطاني نقله الى جزيرة «كابري» . ولما كانت كابري تؤلف مكان استراحة للقوات الامريكية ، فقد تم استقبال الركب على رصيف الميناء من لدن ملازم ثان ورئيس عرفاء امريكيين معهما سيارتان من طراز «جيب» . قدم الملازم الى عبدالاله رئيس العرفاء الذي قال له « انني مسرور لملاقاتك ايها الوصي ! » .

ثم انطلقت السيارتان بسرعة هائلة في المنعطفات الى «فيلا» حقول «غراسيا» ، واذ ذاك راح افراد الفريق يرشفون المشروبات على شرفة تطل على منطقة «بيكولا مارينا» . كانت تحتنا مباشرة درجات ومنصات صخرية ، تمددت على كل واحدة منها احدى الفاتنات مع ضابط امريكي من رجال الميدان . وكان كل ضابط بملابس الاستحمام وقد وضع الشراب الى جانبه وهنا تحدث الملازم الى عبدالاله قائلا « حسنا ايها الوصي ! اتود ان تشاهد «الغروتو» الازرق ؟ اظن ان من الافضل ان تنصرف حالا ! » .

في اليوم الثاني عشر من ايلول ابحر عبدالاله وحاشيته من نابولي متوجها الى تركيا على ظهر الباخرة الحربية البريطانية «اجاكس» .كانت تلك اول زيارة يقوم بها حاكم عربي الى تركيا منذ ان انهارت الامبراطورية العثمانية(٢١) واول زيارة تقوم بها سفينة حربية بريطانية لاسطنبول منذ بداية الحرب العالمية الثانية .

---

(٢١) هذا خطأ من المؤلف . ذلك لان العراق جدد علاقاته مع تركيا خلال السنوات العشر الاولى لقيام الحكومة العراقية . فقد قام الملك فيصل الاول بزيارة رسمية الى تركيا في اليوم الرابع من شهر تموز سنة ١٩٣١ وقوبل باحتفال كبير

كان قائد الباخرة وضباطها وملاحوها متقدين نشاطا ، في حين كان افراد الركب شديدى الاضطراب بصفة غير اعتيادية • وقبل ان تبدو مدينة اسطنبول لاعين المشاهدين في مبكر صباح اليوم التالى ، كان عبدالاله والباشوات معه على ظهر السفينة ، ذلك لان ايا منهم لم يشاهد المدينة منذ سنوات عديدة • كان نورى السعيد وداود الحيدرى قد تلقيا تعليمهما هذه المدينة ، كما ان جدة عبدالاله ماتزال تعيش هناك في منزل كان يعود الى العائلة منذ زمن طويل ، ويقع في منطقة «امرغون» على مضايق البسفور فوق المدينة •

كان جميع افراد الفريق العربى يتحدثون التركية ، وان كانوا غير ملمين بالتغييرات التى حدثت فيها ، والكلمات التى اضيفت اليها في عهد «اتاتورك» • لقد كان حديثهم هو حديث العثمانيين الذى الفه العالم القديم • لقد راح نورى السعيد وهو يتحدث بالتركية ، يتنقل من مكان الى آخر في الباخرة ، وهو يدعو داود الحيدرى الى مشاهدة الاماكن التى يتذكرانها ، كما يتذكران اسماء رفاقهما في ذلك العهد الذى مضى من قبل ، حيث قتل البعض منهم في الحرب العالمية الاولى •

وحين مرت الباخرة تحت اسوار المدينة القديمة ، بدأت المدافع تطلق نيرانها تحية لها ، واذ ذاك وقف نورى السعيد وهو يمسك بقضبان الباخرة ، وقد رأيت الدموع تترقرق في عينيه • انه يدخل الآن الى عاصمة الامبراطورية التى ثار ضدها قبل ثلاثين سنة خلت •.

كان على راسه كمال اتاتورك مؤسس الجمهورية التركية ورئيسها • وادت تلك الزيارة الى توطيد العلاقات السياسية والاقتصادية بين تركيا والعراق • وقد استمرت زيارة فيصل الاول لتركيا مدة عشرة ايام •

وعندما اقبل مرافق الرئيس التركي الى ظهر السفينة ، كان قد جلب معه منهاج الزيارة ليطلع عبدالاله عليه ويوقعه • وكان المنهاج يشتمل على تناول العشاء في اليخت العائد للرئيس ، وحضور حفلة رقص بحرية في الليلة الاولى من الزيارة • وقد ردد مبعوث الرئيس مبتسما وهو يقول « ان اسطنبول لن تنام هذه الليلة ! » •

مكث عبدالاله في قصر «دولمه بقچه» ، القصر الامبراطوري القديم ، وفي نفس الغرف التي كان يستخدمها «السلطان عبدالعزيز»[٢٢] في اواسط القرن التاسع عشر • كانت الوليمة على اليخت خاصة باعضاء الفريق الزائر ، وللذين جاءوا لزيارته •

وقد صفت الكراسي على جانب واحد من المائدة وفي نهايتها ، ولكن كانت هنالك مقاعد فارغة رتبت باتجاه الجدار المقابل للقاعة•ولقد اتضحت فيما بعد انتهاء الطعام الغاية من وجود تلك الكراسي الفارغة ، اذ سرعان مااحتل تلك الكراسي عدد من الموسيقيين والمغنين • وكانت الآلات التي يعزفون عليها خليطا من الآلات العربية والتركية القديمة •

كان هنالك فيض من الاستمتاع والبهجة تأثر به ، وبصفة خاصة ، نوري السعيد لما اشتهر به من حبه العميق للغناء العربي ، فقد كان يعشق

---

(٢٢) السلطان العثماني عبدالعزيز بن السلطان محمود الثالث ولد في شعبان سنة ١٢٤٨ وتولى الحكم في ١٧ ذي‌الحجة سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) قام باصلاحات كثيرة فأسس مجلس الشورى ، وانشأ مكتب الصنايع والمكتب السلطاني في بغداد ثم بعث بحملة رأسها مدحت باشا ففتحت الاحساء • وقد خلع عن الملك في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) وهو الثاني والثلاثون من سلاطين آل عثمان •

هذا الغناء ، ولذلك ظل يسـمعه ساعات وهو يتذوق الحلويات ويشرب «العرق» على فترات بين الاغاني • واذ اكتفى الباشا بما سـمع ، وتعب العازفون والمغنون ، اعلن مرافق رئيس الجمهوريـة قائلا « والآن لنغير الموضوع ، ونرتدي «السموكن» للمشاركة في حفلة الرقص البحرية ! »، وكان وقتئذ قد مضى من الليل نصفه !

كانت زيارة اسطنبول قصيرة ، ولم يعلـم عنهـا كثيرا ، لان رئيس الجمهورية كان مايزال في العاصمة • وفي خلال ذلك اصطحبني عبدالاله لزيارة جدته في «امرغون» • كان المنزل يقع على البسفور شمالى المدينة ، وهو مجهز بالسجاد الفارسى الفاخر، ونوافذ زجاجية من الطراز البوهيمى، ونافورات من المرمر الايطالى •

وهنا تم استقبال الامير في غرفـة على السلم وتطل على البحـر من خلال نوافذ مشبكة • ولقد سألتنى السيدة العجوز عما اذا كنت ادخن ، فرددت عليها ايجابا ، وانا اتوقع ان تقدم لي سيكارة ، او ان تأذن لي بتدخين سكائرى ، لكنهـا اكتفت بأن قالـت « وانا ادخن ايضـا واحب النرجيلة » ومن ثم دعت بواحدة منها ، وشرعت تقرقر بها في الحال !•

كان عبدالاله يترجم لى اقوالها ، لانها كانت تتحدث بالتركية ،وهي لاتعرف من العربية سوى الشيء القليل ، او لا تعرفها بتاتا • كانت جميلة الوجه حتى وهي في ذلك السن المتقدم ، وكانت تقاطيع وجهها محببة ، ولا يعرف على وجه الدقة مكان مولدها ولكنها كانت من بلاد القفقاس • وكانت مثل أى من نساء الحريم في تركيا القديمة ، تتحدث بلباقـة عن كثير من الاشياء والمحلات ، وكانت ، وهى في عمرها المتقدم ، ذات عيون براقة ونباهة في الفكر مما لاتستطيع ان تحتفظ به الكثيرات ممن كن على شاكلتها في الاقطار المحيطة بتركيا •

تحدث الي عبدالاله عن امور كثيرة يريد ان يذكرها لرئيس الجمهورية التركية • فقد كان يعتزم ان يطلب اليه تسليم احد القادة الاربعة ، والذى لعب دورا بارزا في ثورة سنة ١٩٤١ ضد نظام الحكم الهاشمى والحلفاء • لقد تحدث عبدالاله بضغينة عن الثائرين ، واصر على ان يتسلم ذلك الرجل لتنفيذ الحكم فيه ، لان ذلك الحكم كان قد صدر عليه غيابا • ولقد خيل الي ان رئيس الجمهورية التركى سوف يجد ان من العار عليه ان يسلم رجلا يعيش في المنفى في تركيا ، وان كان يخضع لاحكام اتفاق غير اعتيادى لم يكن قائما آنذاك بين تركيا والعراق[٢٣] •

وما ان بدل عبدالاله حديثه هذا حتى سألنى عما اعتقده اذا ماطلب من الرئيس ، عند تقديم الهدايا ، « قطة انقرة » افهل يكون ذلك امرا محيرا[٢٤] ؟

وهنا سألته عن السبب الذى جعله يعتقد بأن مثل هذا الطلب سيكون محيرا للرئيس ، لان مثل هذا الطلب امر هين حقا ؟ وليس من شك انه ارادنى ان اتقدم انا نفسى بذلك الطلب • وعاد الوصى يقول « انك تعلم ان الرئيس اطرش ، وان عينيه لا لون لهما مثل القطط ايضا » • وهكذا علمت لاول مرة ان قطط انقرة تكون طرشاء احيانا ، وتكون احدى العينين زرقاء والاخرى خضراء •

---

(٢٣) المقصود به هو المرحوم العقيد صلاح‌الدين الصباغ ، احد قادة ثورة ايار ١٩٤١ والذى هرب الى ايران اول الامر والتجأ من هناك الى تركيا فأودع السجن ولم يكن في ذلك الوقت بين تركيا والعراق أى اتفاق بشأن تسليم المجرمين •

(٢٤) «قطة انقرة» نوع من القطط التى تتميز بتعدد الوان عيونها ، اى ان يختلف لون كل عين عن لون العين الاخرى •

لقد حصل عبدالاله في النهاية على الطلبين : القطة والثائر المنفى .
ولما لم يكن الاتراك راغبين في تسليم الاسير بصفة رسمية ، فقد رتب الامر بارساله الى الحدود السوريـة ، وقالوا لعبدالاله بأن « اصدقاءك الانكليز قادرين على ان يرتبوا امر القاء القبض عليه هناك ، وليس يهمنا مايحدث له مادام خارج حدودنا » ، وهكذا قرر ضباط الامن البريطانيون مداهمة القطار الذى كان يقل الاسير حين دخوله الاراضى السورية ، واعتقاله في الحال . في ذلك المساء طلب الاسير الى حارسـه ، وهو رئيس عرفاء بريطاني من وحدة الاستخبارات ، عما اذا كان يسمح له بالذهاب الـى المرحاض الموجود في المحطة . وهناك تسلق شباك المرحاض بسرعـة ، وقفز منه الى الارض خلال الفترة التى امتدت زهاء عشر دقائق .

ما ان سمع عبدالاله بما حدث حتى استشاط غيظا ، فاستدعاني اليه وطلب مني ان اسافر الى بغداد وان اتحدث الى البلاط عما حدث ، وراح يصرخ قائلا « كيف يكون الامر على مثل هذه الشاكلة من النقص وعدم الكفاءة ؟ » . وقد انفعل لذلك انفعالا سيئا . ولذلك بعثت السفارة العراقية برقية مستعجلة تطلب فيها القاء القبض على الهـارب حالا ، وفي غضون ثماني واربعين ساعة عثر على الهارب متخفيـا في احدى القرى التى تبعد زهاء عشرين ميلا عن محطة القطار[٢٥] . وفي هذه المرة شددت الحراسة عليه ، وارسل مخفورا الى بغداد ، حيث نفذ فيه حكم الاعدام .

(٢٥) تحدث المرحوم صلاح‌الدين الصباغ في مذكراته عن كيفية القـاء القبض عليه بعد محاولته الفرار من تركيا فقـال « لقد سلمني الاتراك فنقضوا عهود الشرف والقوانين المرعيـة في بلادهـم . لقد سلمني الاتراك الى الانكليز على الحدود السـورية بمعونـة الدرك السورى في ميدان (اكبس) » .
[صلاح‌الدين الصباغ : فرسان العروبة في العراق ص٣٠١] .

لم تكن العلاقات بين العراق وتركيا على مايرام اثناء زيارة عبدالاله تلك • وعن طريق المحادثات التي جرت هناك تم التوقيع في السنة التالية على معاهدة صودق عليها في سنة ١٩٤٧ ، ومنذ ذلك الوقت تطورت تلك المعاهدة الى ماعرف باسم «حلف بغداد» •

كانت آخر مرة زرت فيها تركيا في خريف سنة ١٩٤٠ ، ومن هناك ذهبت الى طهران ، وانا متعب ، وجائع ، ومتسخ ، عن طريق «تبريز» وبامتداد الحدود الروسية التي تجتاز جبال ارارات وارض الروم • كانت الامطار قد بدأت تسقط ، ونظرا للحاجة الملحة الى عبور المضايق قبل ان يغمرها الفيضان ، ولان اماكن التوقف الوحيدة الموجودة، كانت تتألف من اكواخ تكدس فيها الاشخاص الذين توقفوا هناك بسبب الامطار ، فقد صممت بأن لا اتوقف لا لتناول الطعام ولا المنام ، وان اهجع داخل السيارة فأقطع الطريق بين تبريز وارض الروم في مدى ثلاثة ايام • على ان الرحلتين اللتين قمت بهما الى تركيا فيما بعد ذلك ، كانتا على شكل مناقض لذلك تماما •

الفصــل الخــامس

ســـــلام مضطـرب ....

معاهدة بورتسموث ووثبــة كانون

« هنالك المزيد من المتعـة في بناء القلاع في الهواء ، بدلا »
« من بنائها على الارض ! » .

ادورد غيبون

في كتابه « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها »
EDWARD GIBBON: THE DECLINE ANR FALL OF
THE ROMAN EMPIRE

ما ان يبلغ المسافرون من العراقيين العرب ، الحدود التركية والفارسية حتى تتكون لديهم احاسيس متباينة لدى مشاهدتهم الجبال . ذلك لان فرحتهم الطبيعية سرعان ماتخف ، نتيجة الشعور بخوف له جذوره الحقيقية . فمن الجبال كان الغزاة يتدفقون . ومنها تأتي الفيضانات التي تعرض الحياة في السهل الى الخطر .

ففي كل عشر سنوات او نحوها ، تغدو الفيضانات خطيرة جدا . وهناك مثل عراقي يقول « ان مصير بغداد هو الغرق ، ومصير «البصرة» هو الحريق !! » .

ولقد ظهر في منتصف شهر آذار سنة ١٩٤٦ ، وكأن ذلك المثل العراقي اصبح امرا واقعا . فالشارع الرئيس في بغداد ينخفض بمقدار ثمانية اقدام تحت مستوى الماء ، الذي لا تصده سوى سدود ترابية على امتداد نهر دجلة . كما سبق للمياه ان تسربت الى داخل المدينة خلال جوانب النهر المشيدة بالآجر .

كان المعتاد ايام الفيضان ، وحين يتوفر التحذير الكافي ، ان يتم احداث كسرة في احدى السداد التي تقع على بعد حوالى عشرين ميلا شمالى المدينة ، بحيث يسمح للمياه الفائضة بأن تجرى في الاراضى المنخفضة المزروعة ، لكي تلتقى بمياه نهر دجلة جنوبى المدينة ، وذلك بالانصباب في احد روافده وهو نهر ديالى .

غير انه في سنة ١٩٤٦ لم يتوفر اى انذار بحدوث الفيضان • فلقد كان ذوبان الثلوج سريعا ، اعقبته امطار غزيرة ، بحيث فاضت دجلة مثلما فاضت الروافد التى تصب فيها سوية • وما ان بلغت ذروة الفيضان مدينة بغداد ، حتى هبت ريح جنوبية شديدة ادت الى تأخير الجريان ، وتراكم المياه بصفة اكثر • وسرعان ماتحطمت ضفاف نهر دجلة على بعد لايزيد عن اربعة اميال شمالى المدينة • ولذلك فان المياه بدلا من ان تنساب عبر الريف الى نهر ديالى ، راحت تجرى بسرعة صوب السدة التى كانت تحمى معسكر الجيش العراقى[1] جنوبى المدينة •

غير ان الجيش لم ينفق مايفي من الوقت والمال لصيانة تلك السدة، وهكذا تحطمت ضفة النهر ، وراحت المياه التى انصبت فيها ، تهدد من الداخل ، الضفة الغربية من النهر ، والتى كانت تقف لوحدها بين النهر واقرب جزء من المدينة •

وعبثا حاول الالوف من الجنود سد الانهيار الذى اصاب تلك الضفة ، لكى يحولوا دون انهيار خط الدفاع الاخير هذا • وسرعان ماغدا واضحا بأنهم لن ينجحوا في محاولتهم تلك • لقد كان الجنود يعملون وقد نعرت صدورهم ، ويقسمون الايمان ويضاعفونها بأنهم سوف يوقفون الفيضان ، في حين اخذت موجات كبيرة من الاهالى رجالا ونساء يقدمون لهم التراب في السلال •

---

(١) هو معسكر الرشيد والذى كان يعرف قبلا باسم معسكر الهنيدى الذى رابطت فيه القوات الانكليزية التى احتلت بغداد في الحرب العالمية الاولى وقد تخلى الانكليز عن هذا المعسكر وسلموه الى الجيش العراقى في سنة ١٩٣٦ •

وفي كل بضع دقائق كان ينطلق العويل كلما تداعى بيت ، او ثكنه داخل المعسكر ، وتهاوت في الماء ، في ذات الوقت الذى كانت فيه السحب التى تلبد كبد السماء ، تنذر بسقوط امطار جديدة • ولقد انتشر الهلع بين سكان بغداد ، وازداد حدة ، ولذلك بادر عدد من الاهلين والاوربيين بمغادرة المدينة ، واخذ الملك فيصل الثانى ، الذى كان في الحادية عشرة من عمره بين الجند ، فراح يشاهدهم وهم يعملون على طول السداد ، ويشجعهم وجوده معهم •

غير ان ذلك كله لم تنجم عنه سوى فائدة ضئيلة • فقد غدا جليا أنه لم تبق امام الكارثة سوى ساعات قلائل جدا ، حين اقدمت مديريه الرى على جلب كل مايمكن الحصول عليه من ادوات لحفر التراب ، والتى استعين البعض منها من القوة الجوية العراقية ، ومن بعض المقاولين، فراحت تلك الادوات تعمل ليل نهار على تقوية السداد ، وهكذا زال الخطر عن بغداد خلال يوم او يومين •

ولقد حال بناء سد كبير في سامراء يمكن ان تحول فيه مياه الفيضان الى منخفض وادى الثرثار ، دون تعرض بغداد لاخطار الفيضان منذ ذلك الوقت ، ولو ان القسم الثانى من مشروع مجلس الاعمار لاعادة انصباب المياه مرة اخرى الى نهر دجلة ، لم يكمل بسبب وقوع ثورة ١٩٥٨ •

قبل ان تبدأ «مسيرة النصر» في لندن ، دعي كل من فيصل الثاني وعبدالاله الى حضورها • وكان عبدالاله يحضر مؤتمرا عقده الحكام العرب في القاهرة ، ولذلك عرج ــ وهو في طريقه الى القاهرة ــ على عمان ، ليحضر حفلة تتويج عمه «عبدالله» ملكا على شرقى الاردن • ولقد

عاد عبدالاله الى بغداد بعد ايام قليلة ، وتوفر لديه الوقت لكى يفضي الي ببعض انطباعاته .

كنت اجلس معه منفردا في مرج بجانب القصر عند الغسق ، حين قطع علينا الحديث أحد الجنود ، ويدعى «شنيشل» الذى كان يرتدى بزة رجال الحرس الانيقة المهندمة . كان وجه ذلك الجندى حالك السواد ، وكان غليظ الشفاه ، شديد العزم ، يبلغ طوله ستة اقدام . وعندما سأله عبدالاله عن سبب مجيئه من دون اذن ، رد عليه ، وقد بدا صدقه واضح التعبير في عينيه ، بقوله «كلمة واحدة ليس الا» وهو يضع اصبعين تجاه شفتيه ، في حين تدلى قفا يده الاخرى الى امام اشارة الخضوع والاذعان .

لثم الجندى يد عبدالاله ، وحاول ان يفعل ذات الشيء معى ، لكننى سحبت يدى منه بسرعة ، فتراجع وقبّل اصابعه ، اشارة الى انه كان يود ان يقبل يدي لو استطاع ذلك . سمح عبدالاله للجندى بأن يقبل يده وهو يقول له «حاذر يجب ان تحصل على اذن عندما تأتي الي ، واعود فأقول لك بأن عليك ان تحصل على اذن ، ولتنصرف الآن ! » .

انصرف ذلك الجندى واذ ذاك قلت لعبدالاله ، بأن اسمه كان في وقت من الاوقات «قايد رزوقي» ، وانه كان في خدمتي قبل عشرين سنة خلت ، وهو يجيد الرقص ، وكان شكله في ذلك الوقت نفس ماهو عليه الآن ، ولكننى لم انجح في تهذيبه مثل الآخرين ، غير ان اخلاصه لا غبار عليه .

كرر عبدالاله ذات كلماتى برقة ، وكأنها تعرب عن اهميتها الحقيقة ، وراح يقول « غير مهذب ومخلص خير من مهذب وغير

مخلص ! » • واذ اظهـر شيئا من الاشمئزاز استدعـى احـد الخـدم لكي يجلب له ضابط الحرس ، وان يختبر طلب الجندى «قايد» •

وحين شرع عبدالاله يتحدث عن زيارته للقاهرة ، وعن حضوره مؤتمر «انشاص» الذى عقد في التاسع والعشرين من شـهر ايار ، فقد انضى الي كيف انه وجد «سعود بن عبدالعزيز السعود» ، والذى لم يكن قد التقى به قبلا ، متزمتا بشكل ملحوظ ، بطيئا في الاجابة على الاسئلة التى كانت تطرح عليه •

ولقد سألنى عبدالاله عمـا اذا كنت قـد لاحظت ذات التصرف • والواقع اننى قد لاحظت ذلك ، لكننى اعرف ان سعودا كان يتحدث بهذا حين يتحسس ذلك بقوة ، او يود ان يقنـع احدا بالسرعـة التى كان يتحدث بهـا ابوه ، وان كان اقل اقتباسـا لعبـارات من القرآن او مـن الامثال البدوية •

طلب عبدالاله الى ارشد العمرى ، وهو من احدى العوائل الموصلية، والذى تولى منصب امين العاصمـة عدة مرات ، ان يؤلف الوزارة[٢] • وما ان تمت التشكيلة حتى رغب عبدالاله في السفر الى لندن عن طريق القاهرة • واستطعت ان اتأكد في اليوم التالى من السفارة البريطانيـة بأن احدى طائرات شركـة «ايرواى كوربوريشن» الانكليزيـة على استعداد

---

(٢) الف ارشد العمرى وزارته الاولى في اليوم الاول من شهر حزيران سنة ١٩٤٦ في اعقاب استقالة وزارة توفيق السويدى التى اذنت للاحزاب السياسية والمنظمات النقابيـة بالعمـل • وقد استقال ارشد العمرى في اليوم السادس عشر من تشرين الثانى • ولهذا لم يطل عمر وزارته اكثر من خمسة اشهر ونصف الشهر •

سفله في اليوم الثاني من شهر حزيران عن طريق اللد والقاهرة ومالطة ونابولي ومارسيليا الى لندن • لقد كان عبدالاله يود ان يسافر بطائرته البريطانية الجديدة ، لكنه وجد بعض الخلل فيها •

سافرت انا ونوري السعيد مع عبدالاله ، وكان في حاشيته النقيب الطيار «حسام محمد» وهو ملاح من القوة الجوية العراقية وقد مكث مع عبدالاله حتى وقوع الثورة في سنة ١٩٥٨ وكان مع عبدالاله ايضا اثنان من مرافقيه العسكريين هما «عبدالحليم» و «عبدالقادر» ، بالاضافة الى مرافق جديد كان ضابطا في المدفعية وشاعرا في ذات الوقت هو «ابراهيم عبدالرحمن»[٢] ، وهو فتى ذو ظرف فريد ، ومزاج غير عسكري • لقد كان نوري السعيد يؤمن بالمواهب العالية لهذا الشاب في ميدان الشعر ولذلك كان يوصي به خيرا • كان يتحدث بين الفينة والفينة عن اشعاره الى البلاط بما يسر كل فرد • فقد كان الجميع ينصتون طويلا دونما ملل او كلل الى قصائده الملحمية •

وفي لندن استقبلنا القائم بالاعمال العراقي هناك ، السيد شاكر الوادي ، والذي سبق له ان قدم من انكلترا لمواجهة الملك فيصل ومن ثم عاد الى هناك بحيث كان موجودا في مطار مارسيليا ، حيث ذكر لنا بأنه

---

(٢) هو ابراهيم عبدالرحمن الخال نقل من المدفعية الى وظيفة مدنية في السكك الحديدية لاندفاعه وراء الافكار اليسارية ولافراطه الشديد في السكر وقد فصل حتى من وظيفته المدنية تلك ، وانضم الى حرفة الصحافة بعد ثورة الرابع عشر من تموز ، واصدر ديوان شعر صغير له بعنوان « وقد وورد » وقد وجد ميتا في داره ببغداد في اوائل سنة ١٩٨١ وكان من المترجمين البارعين عن الانكليزية •• اما عبدالحليم فهو عبدالحليم عبدالغفور الاجودي ، وعبدالقادر هو العقيد عبدالقادر محمود الذي شغل في وقت من الاوقات آمرية قوات الخيالة•

قد اعد للعائلة الملكية مسكنا في «غروف لوج» بمنطقة «بركنل» على مقربة من «وندسور» وكانت تلك المرة الاولى التى تخرج فيها سيدات من العائلة خارج حدود العالم الاسلامى •

لم يكن عبدالاله يرغب في ان تتناول اخته ملكة العراق ، طعام الغداء في القصر اثناء الاحتفال بيوم النصر ، اذا ماأضفيت الصفة العامة عليه ، او اذا ماسمح بنشر صورها • ولذات السبب لن تستطيع ملكة العراق ان تكون مع ملكة بريطانيا اثناء المسيرة ، لان العالم الاسلامى ينتقد ظهور النساء المسلمات في المناسبات العامة • ومع كل ذلك فقد ذهب النسوة الهاشميات الى خياط الملكة بأسرع مايمكن ، في حين ذهب الملك الصبى الى «سلفرج» لكى يتسوق من هناك حاجياته ، ومن ثم يشاهد منطقة «غروف لوج» فيما بعد • وكان فيصل الثانى يشكو من برد شديد ، لكن ذلك البرد توقف فجأة اثناء مكوثه هناك •

في اليوم الثامن من شهر حزيران ذهب عبدالاله الى قاعدة التحية حيث اعد مكان لوقوف العائلة الملكية البريطانية فيه • اما الملكة نفيسة ، والملكة الام (عالية) والاميرات – وكن يخشين من الظهور علانية – فقد وضعن حسبما رغبن ذلك في مكان مقابل لمحل الوقوف الملكى ، وليس داخله • وكان فيصل الثانى يتحدث مع الاميرة «الكسندرا» ، ويذكر لها قضايا عديدة مطولة بمنتهى الرقة •

تناول عبدالاله ، وفيصل ، وعالية طعام الغداء في القصر • وابدى فيصل في حديثه مع امه شديد فرحه لعودته • وكانت السيدات يرتدين القبعات لاول مرة في حياتهن ، وكن في المساء يتناولن عشاءهن علانية في غرفة الطعام بفندق «كلارج» • وفي اليخت الذى قدمن فيه الى انكلترا ،

وكان الدكتور سندرسن طبيب الملك ومعلمه ، يتناول معهن طعام العشاء ، غير ان تلك كانت اول مرة يتناولن فيها طعام العشاء مع الآخرين .

بعد تناول العشاء ، وبمعية عبدالاله ، والنقيب «هيو كروداس» من البعثة العسكرية البريطانية في العراق ، والذى منحه عبدالاله ترقية ، والمستر «هار وود» من شرطة اسكوتلانديارد ، قمنا بمسيرة عبر الحدائق والمتنزهات الى منطقة «هورسغارد» مرورا بقصر بكنغهام ، وذلك لمشاهدة الالعاب النارية . وما ان بلغنا القصر تماما حتى خرجت العائلة المالكة البريطانية الى الشرفة ، استجابة للاصوات المتكررة التى كانت تطالب بذلك .

كان الازدحام في منطقة «مال» شديدا جدا ، ولذلك تشابكنا بالايدى انا ، وعبدالاله ، وكروداس ، وهار وود ، لكى نحول دون تفرقنا . وفعل الآخرون نفس مافعلناه ، سواء منهم الجنود ام الملاحون ،والطيارون والمدنيون . كان كل فرد في نشوة من الفرح . وفي وسط مثل هذا المشهد من الاحتفال الدمقراطى ، تصدت لنا احدى السيدات ، فانحنت امامنا بمنتهى المجاملة . لقد كانت تلك السيدة هى «شارلوت» زوجة « بونهام كارتر »[٤] ، وكان يصحبها « هارولد فريز بنفاذر » من وزارة الخارجية البريطانية الذى حيانا هو الآخر بانحناءة ايضا . واذ فعلا ذلك توقفا عند خط من الملاحين متشابكى الايدى ، وقد ارتسمت على وجوههم اعظم التعبيرات الساخرة حين كانوا ينظرون الى المشهد القائم امامهم .

---

(٤) بونهام كارتر من كبار الموظفين الانكليز الذين عملوا في العراق في اعقاب الاحتلال الانكليزى وظل مستشارا لوزارة العدل سنوات عديدة بعد تشكيل الحكومة العراقية .

لم ينس عبدالاله هذا اليوم ، وكان فخورا بحضوره • كما انه لم ينس رؤية المستر تشرشل وهو يخرج من غرفة الطعام الخاصة في فندق «كلارج» من دون ان يلمح على وجه اى اثر للاضطراب في تلك الليلة التى اخفق فيها في الانتخابات البرلمانية في اعقاب الانتصار في الحرب ، ولذلك لم ينس عبدالاله توقف تشرشل في تلك اللحظة ، واقباله عليه، وتبادل المجاملات معه •

وقد حدث في الوقت الذى كان فيه فيصل الثانى يعيش في «بركنل» ان زار المسكن احد الانكليز في يوم من ايام الصيف ، واصابته الدهشة لحادث وقع عندما كان ينتظر في ممشى المدخل الذى يمتد خلال الدار الى الحديقة • فقد انحنت له احدى السيدات مرتين ، ثم عادت الى الوراء ، واستدارت خارج احدى الغرف ، ومن ثم اتت فوقفت امامه • لقد سعل ذلك الانكليزى ، وعندما سارت المرأة قدما ثم استدارت نحوه ، وجد انها كانت مربية فيصل ، حيث خاطبته قائلة « اننى ابحث عن حشرة قارضة اضاعها جلالته في مكان ما ! » •

هبط فيصل ميناء بيروت في طريق عودته الى بغداد بالقطار عبر الاراضى السورية • وحين كان في انكلترا خف كثيرا داء الربو الذى كان يعانى منه • ولقد حدثتنى «عالية» عن مدى سعادتها وهى تعتقد بأنه سوف يتخلص من هذا المرض في النهاية بعد ان يكبر •

جرت مشاهد مجاملات معتادة في سوريا ، بما في ذلك اقامة حفل غداء اقامه رئيس الجمهورية السورية في «شتورة» في الوادى الذى يفصل بين لبنان وجبل «انتى لبنان»[٥] • فقد مدت المائدة على حافة نهر صغير

(٥) انتى لبنان هو المعروف باسم جبل لبنان الصغير •

هناك بين الاشجار التى كانت تلوح عليها بصفة جزئية انوار الشمس المشرقة ، حيث القى الرئيس خطاب استقبال قصير • ولقد ابدى الشباب اللبنانى ترحيبا حارا ومدهشا بفيصل الثانى ، سواء عند الباخرة التى كان يستقلها ، ام في الشوارع التى كان يسير فيها • ولقد فعل الموظفون السوريون الشيء ذاته •

[×] × ×

انتهت الحرب العالمية الثانية • وكنا نتطلع الى المستقبل بتفاؤل • وقد بدا على الملك الصبى بأنه كان مطابقا لآمالنا وآمال الشباب العربى • كان القطار ينتظر في احدى المحطات شمالى دمشق ، ولذلك فلم نكن نتوقع ان نرى رئيس الجمهورية مرة اخرى • غير ان القطار مالبث ان توقف عند منعرج الطريق ومن دون سابق انذار ، واذ ذاك خرج الرئيس الى القطار للتوديع ، وكان قد قطع مسافة طويلة بالسيارة لكى يفعل ذلك •

حين اقتربنا من الحدود العراقية ، اقبل احد المرافقين على الملكة «عالية» لكى يذكرها بأنه سيكون هنالك حرس شرف يقوم فيصل بتفتيشه عند الحدود • وكان فيصل يمرح معنا وقد خلع سترته ، وبدا انيقا مهندما يظلل طلعته ضرب من التردد الطبيعى • وما ان صعد الى القطار ثانية ، حتى اخذ داء الربو يظهر عليه مجددا ، وبعد ساعات قلائل كان هنالك حرس شرف آخر في الموصل ، وقبل ان نصل الى بغداد سقط فيصل مريضا نتيجة نوبة حادة من الربو •

كانت الحشود والقوات المسلحة في انتظاره ، ولم يستطع ان يواصل خطواته بينها الا بمشقة بالغة ، وهو يبتسم ابتسامات مثيرة للشجن • ويبدو ان داء الربو يحصل بسبب الغبار ، وينتقل بصفة خاصة عبر الغبار الذى يكسو اجسام الخيل ، وشعور القطط ، وقد عز على الخبراء

ايجاد علاج له ، ولو انه قد خفت شدته بعد ان اخذ فيصل ينمو .

كان فيصل الثانى يتصرف تصرفا حسنا جدا في كل الاعمال التى يمارسها ، والاجتماعات التى يحضرها باعتباره ملكا ، ولو انه مايزال طفلا . ففى بعض الاحيان كان يتصرف بمنتهى الاتقان والكمال . فحين كان في طريقه الى اوربا وجهت اليه الدعوة من لدن السفير «اللورد كلرن» لتناول الشاى . وقد صدرت الاوامر بتأليف حاشية خاصة تناسب فتى صغيرا ، ولكن فيصل كان متمكنا من نفسه ، ويأكل بحذر واحترام . وفي النهاية كان السفير ، وليس الملك ، هو الذى التهم القطائف !

تزوج عبدالاله ثلاث مرات . كانت زوجته الاولى فتاة مصرية جميلة تدعى «ملك فيضي» لم تنجب له طفلا ، ولذلك طلقها لهذا السبب، وكان نورى السعيد هو الذى سلمها كتاب الطلاق ، ومن دون سابق انذار ، في الطائرة التى كانت تقلها معه الى مصر . وقد تزوجت هذه فيما بعد من ضابط مصرى ، وانجبت له الاطفال .

وكان زواجه الثانى ، والذى لم يدم سوى فترة قصيرة ، من فتاة مصرية ايضا تدعى «فائزة الطرابلسى» . وكان الزواج الثالث والاخير من «هيام» ابنة امير ربيعة ، الذى كان ينحدر اصلا من رئيس شهير لمجموعة من قبائل «عنزة» ، والتى سماها «شارل دوتى» في كتابه «الصحراء العربية»[٦] «امة لانها كانت كثيرة العدد» . وكان امير ربيعة ، حسب

---

(٦) شارلز مونتاغو دوتى CHARLES M. DOUGHTY ١٨٤٣ – ١٩٢٦ من مشاهير الرحالين الانكليز في بلاد الشرق . قام باوسع رحلة يقوم بها رحالة في انحاء الجزيرة العربية وقد اورد كل معلوماته عن رحلته تلك في كتاب ضخم نشره في لندن سنة ١٨٧٨ بعنوان «الجزيرة العربية» وكان قد امضى في رحلته تلك مدة سنتين اى خلال ١٨٧٦ – ١٨٨٨ بعد ان زار سوريا .

الحكايات القبلية ، يتفوق على ابن سعود ، وهو رجل سـخي متميز ، يعيش في منطقـة الحسينية على نهر دجلـة بالقرب من «كوت الامارة» ويزرع مساحات شاسعة من الاراضي ، وكان اول من اقدم على استعمال الجرارات والتجهيزات الآلية الاخرى في الزراعة • وحين نهبت الغوغاء بيته في الحسينية ، بعد الثورة ، باع كل ماكان يملكه هناك ، واخلد في شيخوخته الى السكن في دار يملكها في بغداد وقد لحقت به ابنته هيام •

لم ينجب عبدالاله اية اطفال من وراء زيجاته الثلاث •وفي زيارته الاخيرة للندن ، اراد ان يتزوج احدى الفتيات الانكليزيات الجميلات ، لكن ذلك لم يتحقق • واخيرا طلب من احد سفراء امريكا اللاتينية في لندن ، يد احدى بناته • ولكن هذا الطلب واجه صعوبة شـاقة بسبب الدين ، لان الفتاة كانت من اتبـاع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ومن اسرة ذات مستوى رفيع • ولقد اعرب ابوها ، بصفـة دبلوماسية ، عن سروره بذلك الشرف ، لكنه اكد الحاجة الى استشارة «روما» ، وهكذا فلم تنجم عن ذلك الطلب اية نتيجة •

كان عبدالاله مايزال شديد الحساسية والانفعال • لكنه كان شديد الرغبة في محاولة التغلب على تحفظاته • فلقد اصبح في تعامله مع الناس، بل حتى في تذوقه الامور ، اكثر تعقيدا • واخيرا ، وحين التقى في لندن، بالليدي «كونارد» ، وفي باريس بالمس «الزى مندل» المضيفة الامريكيـة الساحرة ، ذات الشهرة العالمية ، خيل الي بأنه لن يستطيع ايجاد اساس مشترك معهما ، او ان يرغب في رؤيتهما مرة اخرى • وكان من دهشتي ان وجدته ، بعد اسبوع من التقائه مع الليدى كونارد ، معها مرة اخرى، وفي دارها مع ثلة من المدعوين اليها ، وكلهم من الاذكياء المشهورين • لقد ذهب الى هناك بمفرده ، ولم يرافقه احد • واظن انه وجد في ذلك متعة معقدة وغير اصيلة •

وحين دخلت غرفتها وجدتها تخاطب عبدالاله بصوتها الناعم قائلة « والآن اخبرني ايها الوصي هل توجد اشجار النخيل في بلادكم ؟ » .

× × ×

وعلى الرغم من طريقة الحياة الغربية ، فان عددا من الاسر القديمة مايزال محافظا على التقاليد . فلقد استقبلني الملك علي ، والد عبدالاله ، مرتين وهو في سريره ، كما استقبل الآخرين الذين كان يثق بهم بذات الطريقة .

وحين مرض عبدالاله بعض الشيء في بغداد سنة ١٩٤٧ ، استقبلنا انا والعقيد «فيل ماكلين» النائب في البرلمان الانكليزي وهو في سريره ، من الذي اثار دهشة النائب «ماكلين» . لقد كان عبدالاله يعتبر ذلك التصرف نوعا من الاحترام .

وكثيرا ماكان عبدالاله يلاحظ النقاط الحسنة في العادات الانكليزية او العالمية ، فيقدم على اقتباسها تماما . فقد كان يود ان يقود سيارته بنفسه ، لكنه لا يفعل ذلك حين يطلب السرعة ، او حينما يجد ان من الاصح ان يكون لديه سائق . وكان في بعض الاحيان يقود بنفسه احدى السيارات الصغيرة جدا في شوارع لندن ، او في بغداد . وكان يستمتع حين يسبب الارتباك لضيف غير رسمي ينتظر ، وهو يتطلع الى سيارة من طراز «رولزرايز» ، او احدى السيارات الكبيرة نوعا ما ، او قد يميل نحو سيارة صغيرة يحاول سائقها ان يوقفها امام باب منزله .

كان شديد الاستمتاع والتلذذ بالتسوق من اسواق لندن . فبعد ان يتناول طعام الغداء في فندقه ، كثيرا ماكان يهبط الى « بوند ستريت » بمفرده ، او بصحبة مرافق له ، فيدخل مختلف الحوانيت التى يعرفها

جيدا ، ويحبها كثيرا . وكان من اليسير عليه ان يعتبر مثل تلك الزيارات للسوق ممارسة ملذة ، لان الاوضاع تمنعه ان يفعل ذلك في بغداد . وكانت الهدايا تقدم بأعداد كبيرة الى عائلته كلما عاد من لندن . وكثيرا ماكانت تلك الهدايا تشتمل على انواع من الطيور .

كان يعمل دوما على تحسين صيد الطيور في كردستان ، وذلك عن طريق استيراد بعض انواع الطيور ، من امثال الديك البرى الذى لم يكن معروفا في بلدان اخرى مماثلة في الشرق ، والذى يعتقد بأن موطنه الاصلى هو كردستان . لقد اخذ عدد الصقور ، وحيوانات اخرى صغيرة ، يتناقص ، ولكن ماتزال قلة موجودة منها ، ويمكن تطويرها عن طريق التدجين . وبعبارة موجزة كان عبدالاله جماعا للاشياء ، لكنه كان يجمعها من دون افراط . ومهما قال عنه منتقدوه من افراد الطبقة الجديدة المثقفة في العراق ، فانه لم يكن اكثر مما كان متوقعا من رجل في مثل مركزه صاحب نشأة جديدة لم يجلب من موطنه الحجاز سوى خصائص ضئيلة .

كان يدرك جيدا اهمية التعليم الذى يتم تطويره على اسس صحيحة بالنسبة الى شباب القطر . وكان يبدى اهتماما خاصا بالمدارس التقنية وقد حمل نورى السعيد على ان يقلل من العدد الكبير للشبان الذين يدخلون مدرسة الحقوق ، والتى كانت تضم في وقت من الاوقات الف طالب ممن لا تتوفر فيهم المؤهلات الكافية لممارسة الحرفة . ولذلك اوقف قبول طلاب جدد فيها في احدى المرات ، ومن ثم خفض العدد الى عدد ملائم للفرص المهيأة لتدريبهم .

كان يتوق الى نشر الرياضة وتشجيع الهيئات التعليمية على تطويرها ،

ويود ان يرى العراقيين ، في يوم من الايام ، يتبارون في المناسبات الدولية • ولم يكن تشجيعه الهيئات التعليمية مقتصرا على تحرياته الشخصية حسب ، وانما كان يتخذ جهد المستطاع ، خطوات عملية لذلك، كاقدامه على اجراء ترتيب مع الجيش يسمح بتوفير الخيول لتدريب الشبان على ركوبها ، وتقديم الجوائز عن المواضيع والمناسبات غير المتوفرة، واصطحاب الملك الصبى معه اثناء تفتيشه المدارس •

وكان عبدالاله هو الذى طور التلفزيون في بغداد • فقد اقترح عليه انشاء محطة للتلفزيون لاول مرة عندما كان في لندن ، حيث كان قد حضر حفلة اقامها اللورد «بوزيرو» • وسرعان ماالتفت الي في تلك الحفلة ، وسألني عما اذا كنت لا اعتبر الفكرة فاخرة وهو يقول « ان قومنا يفكرون بعيونهم كما تعلم ذلك ! » •

ومن ثم استدعى مشاوره تحسين قدرى ، وراح بين الفينة والفينة يرتب اجتماعا لبحث موضوع التلفزيون ، ولمعرفة النفقات التى يتطلبها انشاء محطة للتلفزيون •

كان يرى ان في الاستطاعة استخدام التلفزيون لتدريب الجيش ، ولغرض الرخاء الاجتماعى ، والتعليم ، وكل المواضيع التي يراها مهمة، وليس لغرض التسلية وحدها ، ذلك لانه من المستحسن ان يراه الناس وهو يتحدث اليهم ، وان يستطيع رئيس الوزراء استعماله هو الآخر لوضيح سياسته • ويمكن اختيار اشرطة من لندن على ايدى اولئك الذين يعرفون حاجات القطر • كما انه وضع خطة لادخال التلفزيون وصيانته على اسس صائبة •

اصبحت لبغداد محطة تلفزيون قبل اية امة شرقية اخرى ، وذلك بفضل التفهم السريع الذى ابداه عبدالاله لقيمة هذه المحطة ، ولو ان

نوري السعيد قد اخفق في استعماله للاغراض السياسية بالقدر الـذى كانت تستعمل به تلك الاغراض • كما ان الحاكمين لم يستخدموا المذياع بالصفة التى يمكن استخدامه بها • فقد كان فيصل الثانى لا يذيع شيئا من اذاعة لندن وبغداد ، الا بصفة عرضية ، كما كان نورى السعيد لايقدم على استخدامها الا نادرا •

ومن ناحية ثانية كان عبدالاله يحرص على ان ترسل بالبريد الجوى الى الصحافة في بغداد ، انباء زياراته للمؤسسات في اوربا ، حيثما بدت تلك الانباء نافعة او مهمة بالنسبة الى العراق • ولكن القضية التى كانت تسيطر على تفكير عبدالاله دوما ، هى ترفيه ابن اخته الملك وتعليمه فلم يكن هنالك من اب استطاع ان يحب ابنه ، او يهتم بتربيته ، اكثر مما كان يبديـه عبدالالـه • فحين قام بزيارة الفيلد مارشال «الكسندر» في «نابولى» ، سأله عما اذا كان مستطاعا العثور على ضابط شـاب يصلح ان يكون معلما • وقد قال عبدالاله « ان مؤهلات المعلم بسيطة ، ذلك لان الملك لايريد ان يجتاز الامتحانات ، ولا ان يصبح موظفـا مدنيا ، أو رجل اعمال • فلا بد من تدريبه لكى يصبح ملكا ، ومن ثم ـ وبصفة خاصة ـ يتعلم العادات الحسنة ، وادارة الافراد ، والتأريخ ، واللغـة الانكليزية ، واللغات الاخرى ، وان الصيد ، وركوب الخيل ، والسباحة هى الالعاب الكافية له » •

كان عبدالاله يريد ان يكون ذلك المعلم ضابطا شجاعا ، وذا بداية حسنة • ولقد وعده القادة بالبحث عن شخص من هذا الطراز ، وارسلت دوائر « الحكومة البريطانية » بعض رجالهـا الاخصائيين لاختيار ذلـك الشخص من بين الاوساط المدنية • واخيرا ما ان غادر عبدالاله لندن ، حتى صمم على تأليف لجنة لاختيار معلم للملك ، ولما كان هو نفسه قد ترأس تلك اللجنة فقد توفر لديه السر «لويس غريغ» الذى امضى مـع

الملك جورج السادس معظم حياته ، والذى اقترح بحماسة اختيار المستر « جوليان رفرز » ، والذى حصل مؤخرا على شهادة الدكتوراه في الفلسفة ، لتلك المهمة ، حيث قدم الى بغداد لكى يمضى مع فيصل الثاني عدة سنوات ، ويعده بنجاح فائق للالتحاق بمدرستى «ساندروير» و «هارو» .

× × ×

كان فيصل الثاني في ذلك الوقت فتى صغيرا جدا ، وهادئا ، ناحل العظام مثل اكثرية افراد اسرته ، مشرق المحيا ، ذا عينين سوداوين ، وشعر يدلل على عرقه . وكان تلميذا محبوبا ، شديد الذكاء ، وجد «جوليان بت رفرز» ان من اليسير عليه ان يعلمه . فقد ذهب وهو في الثانية عشرة من عمره الى مدرسة «ساندروير» التمهيدية ، ومن ثم انتقل حين بلغ الثالثة عشرة من عمره ، الى «هارو» حيث انتقلت امه عالية الى منزل في «ستانول بليس» بمنطقة «ستينس» لكى تكون قريبة منه .

كان ذلك المنزل يقع على مقربة من المطار . وكنت انا الذى عثرت عليه ، وانبأت عبدالاله عن مدى الضوضاء التى تحيط به قائلا « ونحن ايضا قريبين جدا من المطار في بغداد ، وقد تعودنا عليه . ولما كنا في الريف حقا فقد يكون هادئا تماما » . كان بيتا ريفيا ومميزا ، صغيرا ومختفيا في ارض الريف . ولما كان هذا المنزل مملوكا لاحد المهندسين الذى تقاعد بعد ان بنى القناطر في مصر ، فقد كنت اشعر بأنه في مكان نقي ، ولذلك وافق عليه الذين كانوا يبحثون عنه . وقد ذكر لي عبدالاله بأنه قد اشترى ذلك المنزل هو وفيصل سوية .

× × ×

اصبح الجيش العراقى بعد الحرب العالمية الثانية في وضع يرثى له . ذلك لانه خلال ثمانى سنوات ، لم يجر فيه اى تدريب رغم انه

قد شارك في اربعة انقلابات وثورات • كان الجيش العراقي مايزال يخضع لسيطرة الضباط الذين تدربوا على ايدى العثمانيين الذين كان يندر ان يغادروا دوائرهم في العاصمة •

وحتى الاحذية التى كان يلبسها الجنود لم تعد ملائمة للسير ، في حين كانت تجهيزاته من الملابس قليلة ، واجازاته طويلة اكثر من المطلوب ، ومرتباته ضئيلة • وقد انقصت اقواته الى رقم يقل بألف سعرة حرارية عن الحد الادنى الذى يعتبر ضروريا ، في نظر الاطباءالاوربيين، بالنسبة الى الجيوش الشرقية •

كذلك توقف صرف الاموال اللازمة لاصلاح الثكنات والمعسكرات، وحظر على رجال الشرطة ان يساهموا في تعقب الفارين من الجيش وتوقيفهم• وهكذا بلغ عدد الذين هربوا من الجيش في صيف سنة ١٩٤٣ وحده ، عشرين الف نفر من مجموع افراده البالغ عددهم ثلاثين الف نفر •

ولغرض ان يصبح المرء ضابطا ، كان عليه في الغالب ان يحصل على وظيفة من دون عمل • وعلى الرغم من ضعف حالة الجيش كأداة عسكرية ، فان الكثيرين من افراده كانوا قانعين بذلك الوضع •

لم يكن الوصى ولا نورى السعيد ، ولا سيما الاخير ، يرغبان في تقوية الجيش ، وذلك بعد الذى حدث في سنة ١٩٤١ •

ونظرا للسياسة التى اتبعها نورى السعيد فقد كان يرغب ان يظل الجيش يعانى النقص في التموين • ولا بد ان يكون نورى السعيد في ساعاته الاخيرة من سنة ١٩٥٨ قد ندم اشد الندم لانه لم يجر اى تغيير في تلك السياسة •

وحين كانت القوات البريطانية تجلو عن العراق بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية ، وكنتيجة للانحدار السريع الذى عانته بعض القوات العراقية آنذاك على ايدى المتمردين من الاكراد في خريف سنة ١٩٤٣ ، فقد تأكد بصفة طبيعية لدى الرجال العسكريين في انكلترا ، بأن جيش هذا البلد الحليف يجب ان يصبح اكثر كفاءة •

كان الفريق «جورج بروميلو» آمر قوات الخيالة الهندية في العراق اثناء الحرب العالمية الاولى ، قد طعن في السن فتقاعد ، وترك وظيفته كرئيس للبعثة العسكرية البريطانية في العراق ، حيث حل محله في ربيع سنة ١٩٤٤ آمر سابق للمدرعات في الصحراء الغربية هو الفريق «مالكولم رنتن» من لواء حملة البنادق • وكان رنتن هذا قد فقد احدى ذراعيه في فرنسا اثناء الحرب العالمية الاولى ، واصبح فيما بعد من كبار الضباط الذين قادوا قوات المرتزقة «الليفى» في العراق • وكان يعرف البلاد معرفة جيدة •

بدأ «رنتن» في الحال بعملية تطهير شاملة في الجيش العراقى ، اخرج بموجبها مائة وعشرين ضابطا كبيرا ، وذلك لغرض اعادة تنظيم الجيش ، ورفع مستوى التدريب الميدانى فيه ، وزيادة مستوى الاقوات ، وانشاء حوانيت ومراكز للاعاشة ، ومنح الاجازات برواتب ، وسمح باعطاء اجازات بالسفر لكل افراد الجيش •

جاءت الصعوبة التى واجهها «رنتن» في عرض هذه الاصلاحات من رئيس اركان الجيش العراقى ، وكبار الضباط فيه في الدرجة الاولى • غير ان صغار الضباط لم يكونوا بدورهم مسرورين ، وذلك لبقائهم بعيدين اثناء المناورات ، او بسبب مكوثهم خارج بغداد • فقد كان الابتعاد عن بغداد يشعر به الموظفون المدنيون والضباط دوما ، وذلك ليس بسبب انعدام الفائدة المالية لهم حسب ، وانما بسبب وصمة

تبرهن على نقص النفوذ وهى وصمة يصعب ملاحظتها ، والشكوى منها من قبل احد افراد العائلة او من يتصل بها •

ابدى عبدالاله ، رغم بعض الاعتراضات ، مساندته للفريق «رنتن» في منهاجه الاصلاحي ذاك ، ومما قاله بهذا الصدد « يجب ان يكون لى اتصال جيد مع الضباط من الشباب ، وعلينا ان لا نكرر الاضطراب الذى وقع سنة ١٩٤١ مرة اخرى » •

وكانت نتيجة ذلك ان بدأ «رنتن» باجراء المناورات العسكرية واعمال التفتيش بصفة مستمرة • ولذات السبب راح ينظم للضباط في بغداد رحلات للصيد كانت تعتبر ـ مثلما كان عليه الامر اثناء الخدمة العسكرية البريطانية في الايام القديمة ـ بمثابة استعراض ، أو القيام بواجب ما •

وكان الوصي نفسه يشارك في هذه المناسبات ، ويحرك جواده اثناء الانطلاقات الى جانب اى ملازم او نقيب شاب ، ويروح يتحدث اليه • وبهذه الوسيلة واخرى غيرها ، كان يستطيع ان يعرف المزيد عن ضباطه بطريقة غير رسمية •

ولما كان الوصي يكرر التأكيد على الحاجة الى معرفة الضباط وتشجيعهم ، فقد اعتاد الفريق «رنتن» ـ الذى لم يكن يشترك في حفلات الصيد نظرا لفقدانه ذراعه ـ ان يقيم ولائم الطعام على حسابه الخاص ، الامر الذى كان يهيىء له ولعبدالاله فرصة الالتقاء بالضباط الذين كانا يتوسمان فيهم خيرا بصفة خاصة •

وكانت تجرى ، بعد تناول الطعام ، العاب كان بعض العراقيين الذين تدربوا في انكلترا ، يستمتعون بها ، مثلما يفعل البريطانيون ذلك• وسواء كان اولئك الضباط يفعلون ذلك حقيقة ام تظاهرا ، فان الغرض

المقصود من ورائه كان يتـم تحقيقه ، وان جميـع الصالحين من اولئك الضباط الذين اعتبروا من المخلصين للنظام القائم ، قد تم اعتقالهـم بعد ثورة ١٩٥٨ •

ومع ان الجيش اصبح اكثر كفاءة بشكل سريع ، وان «الروحية العسكرية» المتوقعة منه كانت على وشك ان تؤتي اكلها ، وان الاسلحة كانت قليلة ، ذلك لان قوائم الطلبات التي كانت ترسل الى انكلترا ، لم تكن تقابل بالتجاوب المطلوب الذي كان العراق يأمل ان تقابل به • وعندما تم ارسال بعثة او لجنة الى انكلترا لشراء السلاح منها ، استطاعت تلك اللجنة ان تحقق نتائج طيبة • ومع ان التجهيزات الجديدة لم يتم توفرها كلية على اية حالة ، فقد قيـل ان كل طلبات الجيش العـراقي سوف تلبى بوسيلة ما او بأخرى •

لقد طلب «رنتن» بصفة خاصة ان تصحب وزير الدفاع لجنة لشراء الاسلحة ، وذلك لكي تكون لهذه اللجنة كامل الصلاحيات اللازمة لاتخاذ القرارات بشأن المشتريات • وتقرر ان يـكون «عبدالاله» في انكلترا في ذات الوقت •

بعد وصول البعثة الى لندن بعشرة ايام ، وصلت برقية من رئيس الوزراء صالح جبر ، يقول فيها بأنه لاتوجد اية عروض لاية تجهيزات، الا بعد ان تكون اللجنة قد عادت الى بغداد ، وان تتم مصادقـة مجلس الوزراء على اية مادة من التجهيزات •

حنق لذلك كل من عبدالاله ، ووزير الدفاع ، واعضاء اللجنـة ، وعند العودة الى بغداد كان ينبغي خوض نضال بشأن ايـة تفصيلات في مجلس الوزراء • وبعد ستة اسابيع تمت المصادقة على كل العروض ، ماعدا واحدا منها كان رئيس الوزراء صالح جبر جـد متصلب فيـه •

فقد رفض ان يقبل عرضا بشراء خمسمائة سيارة من سيارات النقل حمولة كل واحدة منها ثلاثة اطنان ، ومن ذوات العجلات الاربع المزدوجة ، وأصر على ان تكون هذه الوجبة من السيارات الامريكية ذوات العجلتين المزدوجتين ، وان يتم شراء هذه السيارات من امريكا ، عن طريق احد الموردين في بغداد[٧] • ولقد اثار تصرف رئيس الوزراء هذا ، بعد ان ذاع خبره ، سخط الجيش واستياءه •

وفضلا عن ذلك فقد اصبح رئيس الوزراء صالح جبر في هذا الوقت ، اى اوائل خريف سنة ١٩٤٧ ، غير محبوب بسبب تدهور الحالة الاقتصادية للبلاد بصفة عامة •

عندما عدت من انكلترا مع عبدالاله ، زارني بصفة مباشرة السيد داود الحيدرى ، وألح علي بأن نمضى مباشرة الى الوصى ، ونوضح له الحالة المحزنة التى تعانيها البلاد ، وذلك بالنظر الى سوء الناتج الزراعى• ومما قاله داود الحيدرى « ان الناس لم يعد يتوفر لديهم الخبز ، وانت تعلم مقدار مايتناولونه منه • ويبدو ان الحكومة غير مهتمة بالامر » • وقد اضاف الى ذلك ايراد تفصيلات عن الموضوع •

ذهبت الى الوصى كما اراد داود الحيدرى ذلك ، فوجدت بأنه قد سبق له ان سمع ذات الحكاية من خدم القصر ، وكيف ان القمح كان يصدر الى سوريا •

واذ وافق رئيس الوزراء صالح جبر ، بعد تردد وتأخير ظاهرين ، على اصدار امر بمنع تصدير القمح الى سوريا او اى مكان آخر ، حتى

---

(٧) المقصود به التاجر الفيلي «صادق التميمى» الذى كان من جملة التجار الذين كانوا يتاجرون بالسيارات الامريكية في بغداد •

منح ـ بعد صدور امر المنع مباشرة ـ احد زبائنه من التجار اجازة بتصدير كمية كبيرة من القمح الى سوريا • واذ عرف الناس ذلك ازداد هياجهم وتذمرهم(٨) •

وفي الوقت ذاته كانت تجرى منذ زمن ما ، محادثات على مستوى عال لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٠ مع بريطانيا ، وعلى الاخص مايتعلق بالفقرات العسكرية منها • فقد اقترح الوصى في بادىء الامر بان يصحبه ضابط من رتبة رفيعة معروف لديه ، الى خارج العاصمة بحجة القيام برحلة صيد معه • وكان الوصى قد اقترح في خريف سنة ١٩٤٦ بان يشارك «المشير ولسون» في موضوع التفاوض ، وبذلك يمكن ان تجرى المفاوضات دون ان يعلم بها رجل الشارع او المعارضة في بغداد • غير أن شتاء ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ انقضى ، ولذلك غدا مثل هذا الأجراء متاخرا •

في شهر تشرين الثانى سنة ١٩٤٧ وصل الى بغداد مارشال الجو البريطانى «روبرت فوستر» • وهذا الرجل من الاشخاص الذين يعرفون العراق معرفة جيدة ، ويحبونه كثيرا ، نتيجة جولاته فيه في الماضى اثناء عمله كضابط خدمة خاصة ببغداد • وقد عهد اليه القيام بمفاوضات اخرى استمرارا للمفاوضات التى احرزت فيما سبق شيئا من التقدم في بغداد وفي لندن • وقد احيطت مهمة «فوستر» بالسرية التامة •

قام القائم بالاعمال البريطانى في بغداد بتنفيذ هذه التعليمات تنفيذا حرفيا ، ومن دون استشارة رئيس المستشارين البريطانيين لدى الحكومة العراقية • كما ان رئيس اللجنة العسكرية البريطانية لم يخبر بأى تقدم حول الموضوع ، الا في وقت متأخر •

---

(٨) لم يعرف عن صالح جبر انه كان على شراكة مع بعض التجار او انه كان من المرتشين •

ففي حفلة عشاء اقامها الفريق «رنتن» في داره ، وصل الى هناك عبدالاله ، وكان المرح طاغيا عليه ، فقال للقائم بالاعمال البريطاني « لدي انباء سيئة نوعا ما افضي بها اليك . لقد استقال صالح جبر ! » .

ولقد اضطرب القائم بالاعمال البريطاني كثيرا لدى سماعه هذا النبأ ، واخبر الفريق «رنتن» ، بأنه ينبغي له ان يتحدث الى عبدالاله على انفراد ، بعد الانتهاء من تناول العشاء .

كنا ننظر الى عبدالاله والقائم بالاعمال من وقت لآخر وهما عند احد اركان البيت ، واخيرا نهضا . كان الوصي جد متردد في قبول الاستقالة ، وهكذا بقي صالح جبر في منصبه رئيسا للوزراء .

كانت المفاوضات الاخيرة مع مصر قد انقطعت . وقد فهم ان وزير الخارجية البريطانية المستر «ارنست بيفن» ، كان يرغب رغبة اكيدة في ان يتم الاتفاق مع العراق بشكل ناجح وسريع ، لان ذلك سيكون له تأثيره المشجع ، وعلامة بارزة لاولئك الذين كانوا يهتمون بانجازه بسرعة .

خلال الاسابيع التى اعقبت افتتاح البرلمان العراقى في اليوم الاول من شهر كانون الاول سنة ١٩٤٧ ، كان كل شيء جاهزا ، او هكذا بدا في نظر السفارة البريطانية ببغداد ، لغرض التوقيع على المعاهدة الجديدة . ذلك لانه لم تتم صياغة المبادىء الاساسية للمعاهدة فحسب ، بل تم الاتفاق على معظم النصوص من قبل صالح جبر نفسه .

ولم يقدم رئيس الوزراء صالح جبر على مشاورة رؤساء الاحزاب السياسية في امر المعاهدة ، وان كان عدد من السياسيين القدامى ، وباصرار من عبدالاله ، قد دعوا الى حضور اجتماع عقد في قصر

الرحاب ، وتمت فيه مناقشة نصوص المعاهدة بصفة عامة[٩] • وفي هذا الاجتماع سئل رئيس الوزراء صالح جبر عما اذا كانت توجد مسودة للمعاهدة الجديدة فأجاب بالنفي •

ونظرا للقلق الذى كان يسود الحالة العامة في البلاد ، فقد اصر الوصى على ان يصحب رئيس الوزراء اثنان من الساسة القدامى من خارج الوزارة ، هما نورى السعيد وتوفيق السويدى • وهكذا غادر الوفد الذى كان يترأسه صالح جبر ، بغداد متوجها الى لندن في اليوم الخامس من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ، كما صادقت كل من وزارتى الخارجية البريطانية والعراقية بصفة سرية على كامل مواد المعاهدة •

كان وزير الخارجية البريطانية «ارنست بيفن» يمضى اجازة قصيرة على مقربة من «بورتسموث» • ولما كان اعضاء الوفد العراقى قد نقلوا الى هناك للاطلاع على بعض المنشئات الدفاعية في بورتسموث ، فقد اتفق على ان يتم التوقيع على المعاهدة في بورتسموث ذاتها ، في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٨[١٠] •

كذلك غادر القائم بالاعمال البريطانى في بغداد الى انكلترا هو الآخر ، وقام بتسليم اعماله في السفارة البريطانية الى الملحق التجارى البريطانى في بغداد •

---

(٩) عقد هذا الاجتماع في البلاط الملكى وليس في قصر الرحاب كما ذكر المؤلف فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاربعاء الحادى والعشرين من شهر كانون الثانى برئاسة الوصى عبدالاله وحضره قرابة خمسة وعشرين من رؤساء الوزارات والوزراء والاعيان والنواب وبعض رؤساء الاحزاب ونقيب المحامين ولم يكن صالح جبر في هذا الاجتماع كما اشار المؤلف الى ذلك •

(١٠) من هنا اطلق على المعاهدة اسم معاهدة بورتسموث نسبة الى المدينة التى تم التوقيع فيها على تلك المعاهدة •

لقد تضمنت المواد الرئيسة في المعاهدة الجديدة تسليم القاعدتين الجويتين البريطانيتين في «الحبانية» و «الشعيبة» الى العراق ، على شرط بقاء عدد محدود من البريطانيين فيهما على نفقة الحكومة العراقية ، وان تلغى البعثة العسكرية البريطانية التى يرأسها «رنتن» ، وان يقوم مجلس بريطاني عراقي مشترك بتطوير الخطط الستراتيجية ، وتوحيد التجهيزات بين الجيشين البريطاني والعراقي ، وان تقوم القوة الجوية البريطانية بتقديم المساعدات لتدريب افراد القوة الجوية العراقية في الخارج ، وان يتم توفير احدث انواع السلاح للعراق .

كانت المعاهدة في هذا المحتوى تعتبر فاخرة ، وقد قوبلت بالترحاب من لدن بريطانيا ومن عبدالاله الذى سارع الى تبادل برقيات التهنئة بذلك مع الملك جورج السادس . وطبقا لذلك فقد قرر الوفد العراقي في انكلترا ، والذى بدا عليه الرضا بشكل ظاهر جدا ، ان يمضى عطلة لبضعة ايام هناك .

لقد كانت تلك لحظة مباهاة لرئيس الوزراء صالح جبر ، ولا سيما عندما عاد بذاكرته الى الايام الاولى التى لم يكن فيها اكثر من خادم لدى احد الضباط السياسيين البريطانيين في شمالى العراق(١١) !

وفي الوقت ذاته راحت الصحافة العراقية تتساءل بشكل مصيب عن النص العربى للمعاهدة ، لكنها لم تتلق سوى بعض عناوين المعاهدة باللغة الانكليزية . ويبدو ان تلك المعاهدة كانت عرضية ، وبشكل لايمكن

---

(١١) لم يكن صالح جبر خادما لاحد الضباط الانكليز لا في الشمال ولا في الجنوب وانما كان اتصاله ، وهو شاب ، بأحد ضباط الانكليز في مدينة الناصرية ، ومن ثم عين كاتبا لدى الحاكم العسكرى في النجف وتدرج في الوظائف .

الوثوق به ، ولذلك فلم تنشر ترجمتها العربيـة ، وبقيت مدونة باللغـة الانكليزية وحدها •

كان اهمال نشر نص المعاهدة ، واهتمام الصحافة بها ، يمثل نقطة تحول • ذلك لان المعارضة التى كان يتزعمها «حكمت سليمان» لم تجر استشارتها ، ولم تطلع على ماجريات الامور(١٢) •

كان السخط الذى ساعدت المعارضـة والصحافـة في تضخيمـه ، والذى نجم في الاصل عن المجاعة ، وتضاعف نتيجة تصدير الحبوب الى سوريا ، كان هذا السخط مؤذنا بقيام اضطرابات خطرة •

وفي غضون ساعات ليس الا ، انفجرت تلك الاضطرابات •

فقد استمرت اعمال التحريض والتظاهرات ، منذ اليوم السادس عشر حتى اليوم الحادى والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ، وذلك من قبل اهالى بغداد والطلاب فيها ، على الرغم من كـل الجهود التى بذلتها الشرطة لايقافها • ولقد اعلن طلاب كليتى الحقوق والهندسة الاضراب • وقامت الاحزاب القومية الدمقراطية ، والمستقلة ،والليبراليـة (الحرة) والشيوعية ، بتنظيم تظاهرات واسعة جدا في نطاقها وفي اهميتها • واعلنت الاضرابات في الدوائر الحكومية وفي المصانع ، ووقع هجوم على مبنى جريدة «الاوقات العراقية»(١٣) •

---

(١٢) لم يكن معروفا آنذاك ان حكمت سليمان كان يقود المعارضة ذلك لان حكمت سليمان كان قد طلق السياسة واعتزلها تماما بعد ان نجا من عقوبة الاعدام التى حكم بها اثر اتهامه بتدبير مؤامرة للاطاحة بالحكم ، حيث انصرف الى شؤونه الخاصة في الزراعة وفي انشاء معمل حديث للالبان • غير ان حضوره في بعض الليالى في بيوت بعض «التقدميين» ادى الى اتهامه بالتعاون معهم في حوادث الوثبة •

(١٣) كانت جريدة «الاوقات العراقية» تصدر عن شركة انكليزية في بغداد،

وكانت المسيرات،والمسيرات المضادة لها[١٤]،والاصطدامات الوحشية مع رجال الشرطة ، تملأ شوارع العاصمة • وكانت التظاهرات التى امكـن السيطرة عليها اول الامر ، قد تجاوزت الانضباط ، وتحولت الى اعمال غوغائية بعد ان شارك فيها اصحاب «الچراويات» من منطقـة الكرخ على الضفة الغربية من النهر ، والذين ضاعف الجوع من حماستهم • وهكذا تم تجاهل البيانات التى كان يصدرها رئيس الوزراء بالوكالة ، ووزراؤه الذين داهمهم الخوف •

كان تصرف الشرطة في فتح النار لاعادة النظام غير ناجح ، وقد زاد من حدة السخط بشـكل وحشى ايضـا • ولم يعرف عدد الذين قتلوا ، لكنه كان في حدود مائـة شخص على اكثر احتمـال ، في حين تجاوز عدد المصابين اربعة اضعاف هذا العدد • ولقد طافت جثث عديدة

وتنطق بلسان السفارة البريطانية ، وتصدر يوميا بأربع صفحات احداها باللغة العربية وقد توقفت عن الصدور صبيحة يوم الثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ •

(١٤) هذا نوع من الدس المتعمد الذى تعمد المؤلف ذكره • ذلك لانـه منذ ان بدأت التظاهرات ضد المعاهدة في بغداد لم تجرأ اية فئة او جماعة على الخـروج بمسـيرة او تظاهـرة مضـادة للتظاهرات الجماهيرية • بل اكثر من هذا ان احدا لم يلتفت او يقيـم وزنا للمنشورات الطائفية اللعينة التى اعدها ضياء جعفر وقام بتوزيعها على الناس ، والتى اعتبرت معارضة المعاهدة بانها حركة مدبرة من طائفة السنة ضد صالح جبر باعتباره اول شيعى يتولى رئاسـة الوزارة لاول مرة في تاريخ العراق حتى ذلك التاريخ ، ولقد كانت فكرة تكليف السيد محمد الصدر برئاسة الوزارة بعد استقالـة صالح جبر ، فكرة حكيمة فعلا لانها اوهنت الحس الطائفى الذى حاولت بعض الايدى اثارته في تلك الايام •

في مياه النهر ، ودفن آخرون من دون تسجيل رسمي من لدن السلطات او من ادارة المستشفى .

بدأت معنويات الشرطة تنهار بسرعة ، ولم يعد مستطاعا اعادة الامن الا عن طريق استخدام الجيش . ولكن وجد الوزراء والوصي معهم ان من عدم التبصر استخدام الجيش .

وفي لندن كان صالح جبر مايزال واثقا من نفسه بشكل متحمس . ففي اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني القى بيانا هاجم فيه خصومه السياسيين الذين اتهمهم بأنهم « العناصر المخربة التي استغلت بعض الطلاب الابرياء ، ونجحت في خلق الاضطراب » .

واضاف الى ذلك قوله « انا بعد عودتنا الى العراق سوف نوضح نوايا المعاهدة الجديدة للبرلمان وللشعب ، ونحن واثقون بأنه سوف يجد ان اماني البلاد قد تحققت كلية في هذه المعاهدة ، وان الاغلبية الساحقة في البلاد سوف تؤيدها ، وبمثل هذا الاعتقاد وقعت انا وزملائي على المعاهدة » .

كان القنصل البريطاني في بغداد والذي تولى منصب القائم بالاعمال السابق ، في لندن مع الفرقاء الذين وقعوا المعاهدة التي تم اعدادها بصفة سرية جدا . ولقد دهشت عندما اقبل القائم بالاعمال الجديد في بغداد يدعوني لابداء آرائي في الاحداث التي وقعت . لقد كان هذا القائم بالاعمال - كما علمت - موجودا في البصرة ، وفي القنصلية البريطانية هناك ، عندما سمع لاول مرة بأنباء الاضطرابات في بغداد . ولقد انبأته في حينه بأنه اذا ماعاد صالح جبر فلسوف يقوم - كما اعتقد - بقتل ثلاثة اضعاف الذين قتلوا قبلا ، ولذلك فان على صالح جبر ان لايعود الى بغداد حقا في الوقت الحاضر .

ولقد رد القائم بالاعمال البريطانى ، بأن صالح جبر سوف يعود على اية حالة ، وانه اذا ماوقع الامر الذى حدثته عنه فان «ذلك سيكون امرا سيئا جدا في الواقع » • ولقد تأكد لدي بأنه كان يقصد بذلك ان الأمر يخص الحكومة العراقية وحدها ، وان احدا لايستطيع التدخل فيه•

كانت الصعوبة التى برزت في العراق في هذه المرحلة من علاقاتنا معه ، تتمثل في عدم وجود خط واضح في التفريق بين ماهـو عادل ، وما هو غير عادل ، وفي التفـريق بين متى تزجى النصيحـة وتسترد ، ومتى لاتعطى ولا تسترد •

ذلك ان تجربتنا الطويلة في ادارة وتربيـة ممثلينا ، ربمـا كانت تبرر بصفة مؤكدة ازجاء النصح بشكل منظم ومنسق ، بشأن الخطوات التى تؤدى الى التوقيع على المعاهدة الجديدة ، واختيار اللحظة والطريقة التي يمكن بهما انجاز ذلك بصفة افضل • غير ان مثل هذا الامر كان يعتمد على الدراية وحسن التصرف وفقا للمعلومات الجيدة •

يعود السبب الرئيس للفشل ، ولمقتل عدة مئات من العراقيين ، الى انعدام المفاوضات الصحيحة مع ممثلى الحكومـة ، مثلمـا حدث ذلـك بالنظر الى قضية مصر • ذلك لان المحاولات التى جرت لوضع معاهدة مع حكومة غير ممثلـة في البرلمان ، لم تؤد الا الى الفشل • فالمعاهدتان الناجحتان اللتان عقدتا مع حكـومات الشرق الاوسـط خـلال الخمس والعشرين سنة الماضيـة ، كانتا قـد عقدتا مع حكومتين ممثلتين تمثيـلا كاملا ، واعنى بذلك حكومة مصر في سنة ١٩٣٦ ، وحكومـة العراق سنة ١٩٣٠ •

ففى العراق جرت المفاوضات سنة ١٩٣٠ مع حكومة كان يرأسها

ياسين الهاشمي ، وتضم كل الساسة البارزين في البلاد[15] • اما المعاهدة مع مصر فقد جرى التفاوض حولها مع «حزب الوفد» الذى كان اكبر واشهر حزب في البلاد •

وعلى هذا فان محاولة التفاوض ، عندما تكون البلاد في حالة يرثى لها من الناحية الاقتصادية ، سوف تكون خطرة على اية حالة ، وتفتح للقادة المتذمرين مجالا للاستفادة منها •

فحين اخذت الحالة في فلسطين ، ونحن نتحدث عن وضع العراق في ذلك الوقت ، تثير نتائج مفزعة ، فان توقع أى نجاح في الامر يكون منعدما منذ البداية ، وان آخر فرصة خارجية مواتية ، قد ضاع، عندما اظهر عبدالاله تأييده لرئيس وزراء مكروه حقا ، مثل صالح جبر !•

والواقع انه في غضون اسبوع من التوقيع على المعاهدة ، اى في الحادى والعشرين من كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ، اضطر عبدالاله ـ بعد ان جوبه بالفوضى الشاملة تقريبا ـ الى ان يعقد مجلس «التاج»[16] • وبعد نقاش امتد خمس ساعات ، تم التنصل من المعاهدة • فقد اصدر الوصى بيانا قال فيه[17] بأن المعاهدة « لا تحقق امانى العراق ، وليست

---

(١٥) هذا خطأ يقع فيه المؤلف • ذلك ان المفاوضات بشأن معاهدة سنة ١٩٣٠ لم تقم بها حكومة يرأسها ياسين الهاشمى ، وانما قامت بها الوزارة السعيدية الاولى التى الفها نورى السعيد في اليوم الثالث والعشرين من شهر آذار ١٩٣٠ وكان ياسين الهاشمى على رأس المعارضين الاشداء لتلك المعاهدة •

(١٦) يريد المؤلف بعبارة «مجلس التاج» الاجتماع الذى عقد في البلاط والذى سبقت الاشارة اليه •

(١٧) صدر هذا البيان في اعقاب اجتماع البلاط ، واذيع من دار الاذاعة ببغداد في الساعة الثامنة من مساء يوم الاربعاء الحادى والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ١٩٤٨ •

اداة صالحة لتوطيد دعائـم الصداقـة بين البلدين » وان الوصي « يعد الشعب بأنه سوف لا تبرم اية معاهدة لا تضمن حقوق البلاد واامانيهـا الوطنيـــة » .

وعلى الرغم من هـذا التبدل الخطير ، فقـد استمرت التظاهرات العارمة . ذلك ان جموعا هائلة كانت تسير وراء نعوش الطلاب الذين قتلوا في الاضطرابات ، قد اخذت تندفع بشكل عاصف في الشوارع .

وعندما عاد صالح جبر كان مايزال مقتنعا بأنه قد عاد لغرض اعادة الامن الى نصابه ، لكنه جوبه بأعمال شـغب اكثر خطورة من الاعمال السابقة . ذلك لان الصحافة وابنـاء الشعب الذين لم تكبحهم عمليات اطلاق النار ، واعتقال بعض حملة السلاح منهم ، قد استمروا في هياجهم ضد صالح جبر ، ولذلك احيطت داره برجال الشرطة لحمايته ، بـل انه طلب اللجوء الى دار اخرى اكثر حراسة وحماية .

في اليوم السابع والعشرين مـن شـهر كانون الثـاني ١٩٤٨ بلغ الاضطراب ذروته ، الى درجة اضطر معها صالح جبر ان يعلن عدم قدرته التغلب على الوضع . فقد كانت الحشود تتعرض لاطلاق النار عليها ، وقد بلغ عدد القتلى والجرحى بضع مئـات ، ولكن هذا لم يمنـع تلك الحشـود من التوجـه نحـو القصر ، وهـي تنادي بالموت لصالح جبر رئيس الوزراء .

وراحت جثث القتلى تتساقط مرة اخرى في نهر دجلة . وقد عثر على احدى هذه الجثث راسية عند جذع شجرة «توت» على مقربة من داري القريبة من قصر «الملك علي» ، وقد حملها الفتية الذين يصيدون الاسماك ، ويعملون في خدمتنا ، وقد علق هؤلاء بقولهم « ان الذي يصلح للاكل هو التوت وليس الجثث ! » .

واخيرا استقال صالح جبر من رئاسة الوزارة ، وهرب ناجيا بنفسه ، والتجأ الى داره الاولى في ادنى منطقة الفرات ، في الوقت الذى كانت تسير فيه مئات الاهلين وراء اخر جنائز الشهداء • وقد استمرت الاجتماعات والمسيرات الجماهيرية ، وكانت الهتافات والشعارات تطالب بالويل لكل الاجانب ، وبالموت لكل الاعداء ، وتوزيع الاراضى على الجميع •

ووفدت فروع الاحزاب من المحافظات ومن كردستان على العاصمة، فانضمت الى الجماهير ، وزادت من مخاوف الوزراء • وقد توقفت الحياة التجارية والاجتماعية تماما ، واصبح من النادر مشاهدة احد افراد الشرطة في الشوارع •

وبدأت اعمال النهب والحرق المتعمدين(١٨) ومع ذلك فقد لوحظ بشكل ظاهر ، ان ايا من الاجانب لم يصب بأذى ، وان ايا من الممتلكات الاجنبية لم يمسس بسوء •

فلم يتعرض انكليزيان كانا في سيارتهما ، اثناء مرور احدى التظاهرات ، بأى اذى ، ولو ان احدى نوافذ السيارة قد تحطمت • ويبدو ان ذلك هو التلف الوحيد الذى اصاب الممتلكات البريطانية خلال التظاهرات التى اعقبت عودة صالح جبر الى بغداد •

بعث عبدالاله وراء اكبر اعضاء مجلس الاعيان من الشيعة سنا ، وهو «محمد الصدر» ، وكلفه بتشكيل الوزارة • واذ تجنب محمد الصدر

---

(١٨) لم تقع اية اعمال حرق او نهب من المتظاهرين كما ادعى المؤلف ذلك • ولم يقع اى اعتداء على اية ممتلكات حكومية او اجنبية ذلك لان التظاهرات كانت موجهة لاسقاط وزارة صالح جبر ورفض المعاهدة التى ارادت تلك الوزارة فرضها على الشعب بقوة السلاح •

اشراك قادة الاحزاب السياسية[١٩] ، فقد اختار وزراءه من رجال كبار السن معروفين مثله ، ومن زمرة قوية في التجربة والشخصية • وقد أعلن هؤلاء الوزراء بأن المعاهدة لن تصدق ، وان مجلس النواب قد تم حله لانه لم يكن ممثلا للامة • ثم صدرت الاوامر باجراء انتخابات جديدة ، وهكذا اخذ الهدوء يعود الى العاصمة بالتدريج •

× × ×

اما من ناحية البريطانيين فان عدم توفر المعلومات الجيدة باستمرار ، جعلهم مسؤولين الى حد كبير عن فشل المعاهدة • وكان ينبغي ازاء ذلك ان يلقى هذا الفشل على عاتق الحكومة البريطانية وليس على عاتق الافراد • فقد كانت عجلات ماكنة الادارة في هذه الحالة تدور خارج نطاق الحوادث • ونظرا لمرض السفير البريطاني ، وتغيبه عدة شهور نتيجة لذلك ، فقد وقع عبء ادارة المفاوضات مع العراقيين ، ونقلها الى وزارة الخارجية البريطانية ، على عاتق احد المستشارين باعتباره قائما بالاعمال ، ولكن لم تكن لهذا الموظف خبرة سابقة ، وان وجدت مثل تلك الخبرة فانها كانت ضئيلة جدا ، بشؤون العالم العربى ، كما انه لم تكن له ايضا معرفة وثيقة بالشخصيات البارزة في بغداد •

لقد تم ارسال المستشار الشرقى بوظيفة وزير للمستعمرات الى «باربادوس»[٢٠] ، واستبدل برجل كان من الآثاريين المشهورين ، ومن المستعربين الاصليين من ذوى المعرفة بالقبائل • ولسوء الحظ فلم يكن

---

(١٩) اشترك حزب الاستقلال في وزارة الصدر اذ عين رئيس الحزب محمد مهدى كبه وزيرا للتموين •

(٢٠) باربادوس BARBADOS جزيرة في منطقة غربى الانديز البريطانية •

لهذا الموظف اصدقاء ، او حتى مجرد معارف بين اى من زعماء الحكومة، او زعماء المعارضة في بغداد •

وارسل مساعد السكرتير الشرقى الى وزارة الخارجية ، ثم استبدل مرتين في غضون ستة اشهر • واستدعي رئيس مجلس العدل الى لندن ، في حين لم يكن السكرتير الثالث يحتفظ الا بمنصب مؤقت ، وقد غادر القطر هو الآخر ايضا •

وفي لندن سارت ادارة وزارة الخارجيـة للمفاوضات عبر تغييرات مماثلة ايضـا • فالموظف الكبير الذى زار بغـداد للاتصال بالشخصيات البارزة فيها ، قد تم ارساله سـفيرا الى «ريو دى جانيرو» ، وعين رئيس الدائرة الشرقية وزيرا في اسكتلندا • اما الموظف البارز الذى عهد اليه بالمفاوضات العمليـة ، والذى قدم الى بغـداد للمساعدة في ادارة تلـك المفاوضات في شهر تشرين الثانى ، فقد عين في لجنة الرقابة في برلين ، في شهر كانون الاول • وحتى الموظف الصغير الذى عهد اليـه بالقسم العراقى ، كان قد تم تعيينه رئيسا لمجلس العدل في «رانغون» •

وتعرضت مصلحة الاستخبارات السياسية في بغداد ، هى الاخرى للتبديل • فقد نقل اليها احد ضباط الشرطة الكبار من «لاهور» وقـد حدثت كـل هـذه التغييرات اثنـاء الاشـهر العشرة التـى دارت فيهـا المفاوضات •

وفضلا عن ذلك فان الانكليز الذين غادروا القطر ، وكانوا يعرفون العراق والعراقيين معرفة جيدة ، مثلمـا يعرفون الزعمـاء القدامى من الحكومة ومن المعارضة على السواء ، لم يفوزوا بثقة السفارة البريطانية ، وربما يعود ذلك على اكثر احتمال ، الى الاوامر المشددة بقصد المحافظة على السرية •

وقد يكون زعماء المعارضة وقادة الحشود الجماهيرية المتطرفون ، قد تحسسوا لاول مرة في الايام الاولى لاعمال الشغب مدى قوتهم ، وتحققوا من ضعف العرش العراقي ، وضعف السيطرة البريطانية على بغداد ، او هكذا بدا لهم . واذ شده عبدالاله لاخفاق الاجراءات التى لم يكن واثقا منها باى حال من الاحوال ، فقد بعث بي الى لندن لكى اوضح لاصدقائه من الموظفين وغير الموظفين ، بطريقة اعلامية وكممثل شخصي له ، اسباب ذلك الفشل ، وارغامه على انكار المعاهدة .

واخيرا وصل الى بغداد سفير جديد من الارلنديين الموهوبين هو «السر هنري ماك» . فبمبادرة من هذا السفير تم تحويل وجهة احدى السفن الاسترالية التى تحمل الحبوب ، الى البصرة ، وقد وزعت حمولتها على عجل ، حيث كانت الحاجة ماسة الى ذلك جدا . ومع كل هذا فلم يكن من اليسير الاستمرار في تغيير الحكومة التى كان ينبغي القيام بتغييرها ذلك لان حمى الاضطراب التى سمح لها بان تتطور اثناء الشتاء المنصرم ، كانت تحتاج الى وقت طويل لكى تهدأ وتنتهى . وقبل ان يتحقق ذلك وضعت الحرب التى نشبت في فلسطين مشكلة جديدة امام عبدالاله وحكومته .

تم قبل ذلك الوقت تجنيد طوائف من المجاهدين للعمل تحت امرة «فوزي القاووقچي» وهو ضابط قومى محظوظ ، ورجل احرز في ظروف مختلفة شهرة واسعة[٢١] . كان القاووقچي ذا شعر احمر ، وبنية قوية

---

(٢١) نقل المؤلف في حاشية هذه الصفحة من كتابه الكلمات التالية التى ذكرها الفيلد مارشال «السر وليم سلم» في كتابه «تأريخ غير رسمى عن فوزى القاووقچي حيث قال في الصفحة ١٥٧ « انه قاد معظم العصابات الشهيرة التى نظمت لمقاومة البريطانيين في الصحراء السورية في سنة ١٩٤١ . وكان جم النشاط ، وبنفس الاسلوب في فلسطين ايضا سنة ١٩٣٧ » .

وتكوين عسكرى حسن ، واستطاع ان يصبح في مستوى العسكريين العثمانيين المحظوظين ، ومعظمهم من الالبانيين ، الذين استطاعوا ان ينشئوا ممالك لانفسهم(٢٢) •

ومع ان القومية العربية قد هيأت الفرص للقاووقجي ، الا انه كان متعصبا • لقد كنت احب صديق اليه فيما مضى • وقد اهدانى صورا غالية ونادرة كان قد التقطها بنفسه ، عندما كان يعمل في الجيش السعودى ، ومن بينها صورة داخلية للكعبة ، وللامراء السعوديين وهم على ظهور الخيل يقومون بأداء شعائر رجم الشيطان اثناء الحج •

كانت القوة التي يقودها فوزى القاووقجي ضعيفة جدا ، وسيئة التجهيزات ، بحيث لاتستطيع ان تحقق شيئا جيدا • ولقد اضطرت جامعة الدول العربية ، في وجه تحديات القوات الاسرائيلية ، ان تتدخل بجيوشها النظامية • وعلى اثر ذلك قام عبدالاله الذى كرس زعامته وحيويته لاستعادة شعبيته ، بزيارة كل من القاهرة وعمان مع وزرائه • ولم يكن امام حكومته التى اشتد الضغط الشعبى عليها من مناص ، الا بأن توافق على التدخل وبنطاق واسع • وهكذا عبر الجيش العراقى حدود فلسطين في اليوم الخامس عشر من شهر ايار سنة ١٩٤٨ ، بعد ان تم اعلان قيام دولة اسرائيل مباشرة !•

ولقد ذهب عبدالاله الى الجبهة • وقامت النساء من اسرته ، لاول مرة وبصفة غير اعتيادية ، بالمساهمة في ميدان اقامة الاسواق الخيرية ، ووحدات الهلال الاحمر • ولقد ذكر لي عبدالاله ان القوات العراقية

---

(٢٢) يشير المؤلف بهذا الى محمدعلى باشا الكبير مؤسس الاسرة الخديوية في مصر التى استقلت في مصر عن الحكومة العثمانية • اذ كان محمدعلى من اصل البانى •

تأثرت تأثرا بالغا ، وتحمس حتى الجرحى لوجود نساء الاسرة الملكية فيما بينهم • وليس من ريب في ان افراد القوات العراقيه كانوا معقودي الالسن ، لان النساء الرفيعات لا يظهرن وهن سافرات في العراق ، ولذلك فان ظهورهن علانية وفي ميدان المعركة ، لم يكن امرا معروفا منذ بداية الاسلام وفي ايام الجاهلية[٢٣] •

كنت اسأل عبدالاله باستمرار عما اذا كان في مقدوري ان اصحبه في احدى المهمات ، كأن اغدو مثلا ضابط اتصال للصحافة الاجنبية ، وهي مهمة كنت اتوقع الحاجة الماسة اليها بشكل مصيب • ولكنه ولاسباب سياسية كان يحس بأنه محق في رفض مطلبي ذاك •

كان تنظيم الجيوش العربية صوريا وغير منسق التفكير • ذلك لان القائد صالح صائب الجبوري الذي اختير رئيس اركان للجيوش العربية ، لم يكن يتسلم اية تقارير يومية عن العمليات الحربية ، الا من الجيش العراقي • ولقد انبأني عبدالاله كيف انه وجده يجلس امام منضدة خالية ، وهو يتشكى من النقص التام للاهتمام بتحقيق التوافق

---

(٢٣) يقول المؤلف في حاشية له هنا « وان كانت اجمل الفتيات في بعض القبائل الخاصة في الجزيرة العربية ، كن يعنفن الرجال الذين كانوا يشتركون في المشاغبات ، حتى الى حدود سنة ١٩٣٠ » • ونضيف الى هذا فنقول ان المؤلف على جهل مطبق بتأريخ الفتوحات الاسلامية الاولى ، حيث كان الرسول محمد (ص) ورفاقه يصطحبون معهم زوجاتهم اثناء المغازي • وكانت تلك الزوجات غير محجبات بالطبع كما هو وضع المرأة العربية في الوقت الحاضر • فقد كان الحجاب احدى البدع التي انتقلت الى العرب والمسلمين من الاقوام الاخرى ، وكان هذا الحجاب يطبق في حواضر المدن وحدها في حين كان النساء في الارياف وفي الصحراء غير محجبات اصلا في جميع العهود والازمان •

بين القوات المصريــة وبقيــة القــوات الاخرى ، وكانت نتيجــة ذلــك معروفة تماما .

فعندما كان الجيش العــراقي يوشــك ان يعــود الى بغــداد عبر الصحراء ، وقع انقلاب عسكري في سوريا قام به الضباط الذين ادهلهم نجاحه في اول الامر(٢٤) . ونظرا الى الاتهامات التي وجهت مؤخرا الى كل من نوري السعيد وعبدالاله ايضا ، بان العراق يعتزم احتلال سوريا ، فقد قيل في حينه ان من اليسير على الجيش العراقي ان يدخل الى دمشق ، ويقابل بالترحاب لدى وصوله الى هناك . غير ان كلا من نوري السعيد وعبدالاله رفضا فكرة مسيرة الجيش العراقي الى بغداد عبر مدينة دمشق . ذلك لان البراهين التي طرحت ازاء مثل هذا الاجراء سرعان ما تداعت الواحد منها تلو الآخر .

فلقد تراجع نوري السعيد على اساس اعذار عسكرية مؤداها « ان الجيش العراقي ليست لديه خرائط ! » .

ولكن السبب الحقيقي كان من دون شك ، سببا عاما ناجما عن بعد

---

(٢٤) هو الانقلاب الذي قام به «حسني الزعيم» في اليوم الثلاثين من آذار ١٩٤٩ وقد فصلنا دوافعه ودوافع الانقلاب المضاد له ، والذي قام به العقيد سامي الحناوي في كتابنا « اسرار الانقلابات العسكرية في سوريا » الذي صدر سنة ١٩٤٩ اي بعــد حدوث الانقــلابات الثلاثة في سوريا باسبوعين .

وقد كان تحليلنا للانقلاب الاول بأنه من وحي السياسة الامريكية ، في حين كان الانقلاب المعاكس له ، من تدبير السياسة الانكليزية ، ولذلك توثقت العلاقات جدا بين العراق وسوريا بعد الانقلاب الذي قام به الحناوي ثم جاء الرد الامريكي بالانقلاب الذي نفذه العقيد اديب الشيشكلي الذي قضى على حكم الحناوي .

نظره السياسي . فاذا ماارید احداث تغيير في ذلك ، فان مثـل هـذا التغيير يجب ان يكون طوعيا تماما .

واخيرا وحين وقع انقلاب عسكرى آخر في ســوريا سنة ١٩٤٩ راح نورى السعيد يسعى قدما الى توحيد القطرين ، حيث تم ارسال احد الضباط من قبله مباشرة لاتخـاذ الخطوات لذلك . وربمـا لانـه كان عسكريا فقد تطايرت الاشاعات بأن الجيش العراقى قد اتخذ مواقعه على الحدود . وحين وصل نورى السعيد الى سوريا ، لم يقابل الا بالعداء ، وسرعان ماااتجهت سوريا بعد ذلك رأسا نحو مصر .

× × ×

اعطانى عبدالاله البيت الذي كان يقطنه ابوه الملك علي ، والذى يقع على نهر دجلة . واثناء سكنى هناك قمت بوضع كتاب عن عائلتـه «حكام مكة» . ولم تتغير الحيـاة على ضفـة النهر عما كانت عليـه في الماضى . ففى ايام الصيف يعمد الناس الى زراعة «البطيخ» على الشواطىء حالما ينحسر عنها الماء ، واذ ذاك يتوفر لهم في فترة قصيرة جدا ، ناتج وفير . وتبرز الجزر في النهر ، وتقوم المرافىء التى يمضى اليها الشبان خلال شهرى تموز وآب ، لقضاء ليالى الصيف فيها طلبا للبرودة ، كما تنمو الآجام على ارض تلك الجزر فتتألف منها متنزهات يمكن الدخول اليها بكل حرية ومن دون اى عائق ، ليستمتع بهـا البغداديون الذيـن ينقلهـم الصيادون بقواربهـم الى تلـك المواقـع لكـى ينعمـوا بالحيـاة الجميلة فيها .

وتقبل طوائف الشباب الى هنـاك للمصارعـة والمبارزة ، والفوز بالسراويل المزركشة التى تقدم بمثابة جوائز بقصد التدرب على المصارعة والملاكمة . ويؤلف هؤلاء المصارعون اعضاء فرقـة قديمـة ذات اصول فارسية تعرف باسم «زورخانه» فتشترك فيها المطامح الاخلاقية الى جانب المطامح الرياضية .

ماتزال في بغداد بقايا عجيبة لكثير من الطرف والمعتقدات القديمة . ففى مساء كل يوم خميس من ايام الصيف تطوف بكل بيت قطعة من الخشب عليها شمعة موقدة ، ومن ثم تطوف تلك الخشبة وعليها الشمعة في ماء النهر . ولقد عرفت معنى عادة تطويف الشموع هذه في النهر ، عندما حضرت في احدى السنوات احتفالا كان يقام سنويا في اليوم التاسع من شهر اذار ، في احد الاديرة بالقرب من الموصل .

كان ذلك الدير يدعى دير «مار بهنام» الذى يعود تاريخه الى القرن الرابع الميلادى ، وهو واحد من اقدم الاديرة القائمة في العالم . ويقع هذا الدير الى جانب قرية «خضرالياس» على بعد خمسة عشر ميلا من الموصل ، وسط حقول تزرع بالقمح بين نهر دجلة ورافده «نهر الزاب الكبير» ، وبين روابى معشوشبة تشتمل على بقايا خرائب ساسانية او اقدم منها بكثير .

وهذا الاحتفال الذى يقام في دير «مار بهنام» اثناء فصل الربيع ، يعتبر الآن احياء لذكرى القديس يوسف ، وهو المكان العائد الى الطائفة السريانية الكاثوليكية في الوقت الحاضر .

غير ان الكنيسة تحتوي على المزيد من الصور الحية للقديس «جرجيس» قاتل «التنين» . ذلك ان احدى تلك الصور ، وهى اكبرها ، تبرز منحوتة في احدى الصخور والى ارتفاع تسعة اقدام من اسفل تلك الصخرة .

حين دخلت الكنيسة وجدت بعض الفتيات اللواتى ارتدين ابهى ملابس الاحتفال وازهاها ، وهن يطيرن ضاحكات ، مناديلهن في الهواء ، لكى تتعلق بمسمار دق في دبر الحصان الذى يمتطيه القديس جرجيس . فالفتيات يفعلن ذلك طمعا في الزواج من شاب جميل ، او في انجاب

الاطفال • وقد يستدير بعض الرهبان من الشبان الراكعين عند المشى ، نحو اولئك الفتيات فيلقى احدهم نظرة نحو الآخر ويبتسمون قبل ان يخفضوا رؤوسهم مرة اخرى ويغرقوا في الصلاة !•

قادني احد الرهبان باجلال ، وهو في السبعين من عمره ، الى الاعماق لمشاهدة قبر «مار بهنام» ، بعد ان اضاء الطريق بشمعة صغيرة يحملها بيده • كانت الى جانب القبر ، وفي ركن مظلم يؤلف جانبا مثمن الشكل ، اصفاد واطواق من الحديد توضع في اعناق الرجال والفتيان الذين ينشدون تحقيق احدى الحاجات الخاصة ، من امثال الشفاء من المرض ، ولا سيما الجنون ، حيث يظل هؤلاء مقيدين هناك ليلة كاملة وسط الظلام الحالك • وفي زاوية اخرى تقابل القبر والاصفاد ، زنزانة مظلمة جدا لا يرتفع بابها الى اكثر من قدم واحد عن الارض ، وفيها فتحات تتعارض فيها القضبان الحديدية •

ويزور المسلمون واليزيديون هذا المكان مثلما يزوره المسيحيون انفسهم تماما • ويكون الاحتفال الذى يقع في التاسع عشر من آذار هو ذكرى وفاة القديس يوسف ، ولو ان مايحتفل به القوم في الواقع هو وفاة الشتاء الذى تمثله صورة التنين • ويرتبط الاحتفال بـ (خضرالياس)، اي «الياس الاخضر» ، بنفس الاحتفال بالقديس جرجيس ، اى جورج الاخضر ، في انكلترا وفي الاقطار الاوربية • ذلك لانه يمكن مشاهدة هذا الاحتفال في اوربا ، وفي الشرق الاوسط ، والهند ايضا • ويكون الاحتفال به على الدوام باعتباره خليفة لـ «ادونيس» في فصل الربيع •

اما في العراق فان الاحتفال بعيد خضرالياس او ادونيس ، يجري ايضا في اماكن اخرى غير دير ماربهنام ، مثل بغداد ذاتها ، وعلى نهر الفرات ، وعند التقاء النهرين في شط العرب •

وفي كردستان وايران يحتفل خلال فصل الربيع بعيد «نوروز» او «السنة الجديدة» ، والذى يرتبط باحتفال خضرالياس • ويقـول البعض ان القوم اخذوا يحتفلون فيما بعد ، بالهزيمـة التى الحقها شاب وضيع يدعى «كاوة» بأمير ظالم ، حيث يحرقون دمية مشابهة له[٢٥] •

وفي بعض الاحيان يرتبط اسم خضرالياس باسم الاسكندر المقدونى، وبالبحث عن الحياة الازلية • وبكلمة موجزة كان «الخضر» في الاصل نموذجا لالهة الخصب والتى ارتبطت فيمـا بعد باسم النبى «الياس» اى «ايليا» وبالاسكندر المقدونى ، واخيرا بالقديس جرجيس •

وفي بغداد حين كنت اشاهد في امسيات ايام الخميس ، المزيد من الالواح التي تحمل الشموع الموقدة وهى تطفو على نهر دجلة ، وتعد من النذور الدائمة التى تطلق من جامع خضرالياس في النهـاية الشـمالية للمدينة ، في ذلك الوقت فهمت ان ادونيس مايزال يعيش في العـراق ، سواء باسم الياس او اى اسـم آخـر ، مسيحيا كان ام مسلما ، وسواء كان دليلا الى حياة ابدية ، ام الى الشتاء القارس الذى ينبغى ان يقتـل لكى يقبل الصيف •

---

(٢٥) تدور اسطورة عيد نوروز لدى الاكراد حـول قصـة «الضحاك» الحاكم الفارسى الجائر ، والذى ضج الناس من مظالمه ، فتصدى له في احد الايام شاب فقير يمتهن الحدادة ، فقتله وانقذ الناس مـن ظلمه ، واصبح بذلك بطلا قوميـا • والحقيقة أن يوم نوروز عيد فارسى مجوسى بحت ، وقد نقله اكراد العراق عن الفرس ، ذلك لان عددا كبيرا من الفرس قد نزحوا من بـلاد فارس ، واستقروا في منطقة جمجمال وحواليها ، وبقوا متمسكين بكل عوائدهم الفارسية القديمة ، ومنها الاحتفال برأس السنـة الجـديدة ، بل ان هؤلاء الفرس النازحين الى شمالى العراق اطلقوا على المكان الذى حلوا فيه نفس اسم القريـة التـى كانوا يسكنونهـا في لورستان ، وهـى « جمجمال » •

★ ★ ★

في سنة ١٩٤٨ انبأني عبدالاله بأنه غدا شديد القلق على شقيقته الملكة «عالية» التى بدا عليها سوء حالتها الصحية من وقت لآخر • فلقد كان يجدها مرة او مرتين مضطجعة في منتصف النهار • وحين كان يدخل عليها كانت تنهض جالسة وتقول له انها لا تشكو من شيء • « لقد كنت متعبة نوعا ما ، وانني اشعر الآن بتحسن نتيجة الراحة » • غير انه اخذ يدرك بالتدريج بأنها كانت في ذلك الوقت تعانى من المرض ، وكانت تكابر جدا في عدم الاعتراف بذلك • ولهذا طلب بأن تجرى لها الفحوص الطبية التامة ، وكان يأمل ان لا تكون مصابة بمرض وبيل •

وحين اكتشف بعد وقت قصير من ذلك في لندن ، بأنها مصابة بسرطان داخلي ، استولى عليه البؤس بشكل يدعو الى اليأس • فقد غدا واضحا انه كان يحصل منها على الدعم اكثر مما هو معروف • فهو مثله في ذلك مثل «ابن سعود» ، اذ كان يبحث كل مشكلة تقريبا مع شقيقته عالية المفضلة لديه ، ويراها يوميا كلما استطاع الى ذلك سبيلا • وكانت نصائحها له على الدوام تنطوي على الحكمة اما الآن فانه اخذ يقول « انني لا استطيع ان اعمل بدونها ، فهي لازمة لعملي ولمركزي • فاذا ما ماتت فلسوف اتخلى عن الحكم ! » •

لم تحقق العمليات التى اجريت لها اى امل ولذلك راح عبدالاله يفكر في وسائل اخرى ، ويتساءل « الا يوجد نوع جديد من العلاج في امريكا ؟ » • ولقد تمت استشارة الجراحين الامريكيين برقيا ،ولكن الجواب كان على الدوام هو نفس الجواب ، في حين راحت حالة عالية تسوء ببطء •

واذ اصبحت النهاية قريبة في خريف سنة ١٩٥٠ ، تم نقلها من

المستشفى في لندن الى بغداد ، وترك ابنها فيصل مدرسة «هارو» لفترة من الزمن كيما يكون الى جانبها • وعرض الاطباء المحليون واشخاص آخرون آراءهم المختلفة حول العلاج • وكانت نصائح الاطباء الانكليز والامريكان ، واوامرهم تقدم اليها هناك بشكل طبيعي احساسا بأن الامر يستحق بذل اى شيء كان •

ونزولا عند اقتراح والدتها نفيسة ، تحول فيصل وعبدالاله الى فكرة القيام بزيارة قبر الرسول «محمد» في المدينة المنورة بالحجاز ، ولذلك طاروا معها الى هناك وعادوا خلال يوم واحد • غير ان عالية بدأت تتهالك بسرعة وحين اقترب موعد حلول عيد الميلاد اصبح واضحا بأنها لن تبقى على قيد الحياة سوى ايام قلائل ، حيث توفيت في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الاول سنة ١٩٥٠ • وحين جاءت النهاية اظهر فيصل اليتيم من ضبط الاعصاب اكثر مما اظهره عبدالاله ، او اى فرد آخر من افراد العائلة وذلك دليل على تربيته الغربية • ولكن عبدالاله لم يتخل عن الحكم مثلما سبق له ان قال بأنه سوف يفعل ذلك اذا ماتوفيت شقيقته •

بعد شهور قلائل من ذلك الحادث أى في العشرين من شهر تموز ١٩٥١ قتل رأس العائلة الهاشمية ، عبدالله ملك الاردن حين كان يهم بالدخول الى المسجد الكبير في بيت المقدس ، وعلى يد عضو شاب في منظمة «الحرب المقدسة» وقد قتل القاتل من قبل الحرس في الحال • أما «حسين» حفيد عبدالله والذى كان في السادسة عشرة من عمره ، فانه لم ينج من القتل في ذلك اليوم الا بعد ان استدار منطلقا من باب المسجد ، وهكذا اخذت قائمة القتلى بين افراد الشرق الاوسط الذين يتكلمون اللغة العربية تتصاعد •

فقد قتل الدكتور عبدالرحمن الشهبندر ، الزعيم السوري الموالى للهاشميين، قبل ذلك بوقت سابق في تموز سنة ١٩٤٠ . اما في سوريا فقد حدث فيها منذ الحرب ، مقتل «حسنى الزعيم» رئيس الجمهورية ، والدكتور محسن البرازى في الرابع عشر من شهر آب سنة ١٩٤٩ ، والفريق سامى الحناوى الذى قتله ابن عم محسن البرازى انتقاما لابن عمه في اليوم الثلاثين من شهر تشرين الاول سنة ١٩٥٠ .

وفي اليمن قتل الملك البالغ من العمر ثمانين سنة مع ثلاثة من اولاده ، وذلك في اليوم السابع عشر من شهر شباط سنة ١٩٤٨ . كما قتل فيما بعد آخرون من اليمانيين الذين شاركوا في عملية الاغتيال .. وقد عزي مقتل الملك اليمانى المسن الى جمعية الشبان المسلمين المصرية، في حين قتل «فخرى النشاشيبى» من الاردن[٢٦] في الشارع الرئيس في بغداد . وفي عمان وقبل مقتل عبدالله بأربعة ايام ، قتل رياض الصلح رئيس الوزراء اللبنانى السابق ، عندما كان في طريقه الى المطار بعد زيارته لعبدالله ، على يد شابين لبنانيين وواحد من الشبان الفلسطينيين .

وفي مصر قتل احمد ماهر باشا رئيس الوزراء المصرى ، وصديق بريطانيا ، والخصم اللدود للانظمة الدكتاتورية ، داخل بناية البرلمان على يد محام من الاخوان المسلمين يبلغ السادسة والعشرين من عمره . وذلك في الرابع والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٤٥ . كما قتل محمود فهمى النقراشى باشا في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الاول سنة ١٩٤٨ في وزارة الداخلية في القاهرة ، اذ اطلق النار عليه احد الطلاب من الاخوان المسلمين . اما امين عثمان باشا صديق بريطانيا ، والذى درس في انكلترا ، وانتمى الى نقابة المحامين البريطانية ، فقد اغتاله طالب في العشرين من عمره في اليوم الخامس من شهر كانون

(٢٦) اسرة النشاشيبي فلسطينية المولد والمنشأ والموطن وليست اردنية.

الثانى سنة ١٩٤٦ ، بأن اطلق عليه ثلاث رصاصات حين كان يزور مدرسته القديمة في ميدان الاوبرا بالقاهرة •

وقتل الشيخ حسن البنا رئيس جمعية الشبان المسلمين في القاهرة في اليوم الثالث عشر من شباط سنة ١٩٤٩ على يد قاتل نجا من القاء القبض عليه • ويعتقد بأن القاتل كان قد ثأر لمقتل احمد ماهر • وهناك اعمال قتل اخرى وقعت لاناس اقل شهرة ممن اتينا على ذكرهم •

لقد كان المسنون ممن تجبرهم الضرورات السياسية على تحسين علاقاتهم مع بريطانيا ، او الهاشميين ، هم الهدف الرئيس لمنظمى اعمال القتل تلك ، من امثال هؤلاء ، فقد كان هدف منظمى تلك الاعمال التى كانوا يستخدمون لها المتطرفين من الشباب هو ان يجعلوا من التعامل مع بريطانيا او اصدقائها ، سببا يستلزم الحكم على هؤلاء المتعاملين بالموت • فلقد وقعت حوادث قتل كثيرة من هذا النوع في الشرق الاسلامى ، من بينها مقتل الفريق «على رزم آرا» رئيس وزراء ايران في شهر تشرين الاول سنة ١٩٥١ •

× × ×

بقي فيصل الثانى في مدرسة «هارو» • وكان خاله الوصى عليه يدرك مدى الخطر الذى يتهددهما حين كانا في الشرق • واذ عاد عبدالاله الى انكلترا سنة ١٩٥٢ قادما اليها من زيارته للولايات المتحدة الامريكية مع ابن اخته ، نقل الي معلومات عن المنهاج السخي والدقيق الذى اعد لهما هناك • ويبدو انه قد تنفس الصعداء لكى يجد من يتحدث اليه عن كل تجاربه في الولايات المتحدة الامريكية •

لقد تضمنت الترتيبات التى اعدت للفريق الملكى في امريكا ، سفرة لمشاهدة احد الاصطبلات التى تربى فيها خيول من اصول عربية•

كان عبدالاله مغرما بالخيول ، شديد المعرفة بها • ففي احدى السنوات، وعند اجراء عرض سنوى للخيول في العراق ، ورد ذكر حصان اسود اللون قيل عنه ان صورته لابد وان تظل حية في الذاكرة • ولقد مسك المحكمون انفاسهم ، وقرروا منح صاحب ذلك الحصان ، وهو وزير سورى ، الجائزة المقررة لاحسن حصان • ولم يخف عبدالاله اعجابه وحسده لذلك ، وراح يلمح الى ان الذهب لا قيمة له بالنسبة الى جمال ذلك الحيوان !•

ونقل لى ذلك الوزير فيما بعد ماذكره عبدالاله بشأن الحصان الاسود • كان الابن الصغير للوزير السورى مريضا ، وكانت سلوته الوحيدة هى رؤية ذلك الحصان المسمى «امير الحسن» • فقد كان الطفل ، وهو في غمرة احلامه المنعشة ، يسأل كل يوم عن ذلك الحصان • وحين تحسنت حالته قليلا كان يهبط كل مساء لرؤيته • لقد كان حبه الوحيد لذلك الحيوان ، ولهذا السبب خالف ذلك الوزير ادراكه الدبلوماسى ، واحتفظ بذلك الحصان لديه • غير ان الطفل مالبث ان شفي من المرض ، فاشترى دراجة ، وعاد الى المدرسة ، واختار له اصدقاء هناك • ولهذا فنادرا ماكان يطرح الاسئلة عن «امير الحسن»•

وحين التقى حاكما الاردن وسوريا في مدينة «درعا» ، عن طريق الوساطة التى قام بها حاكم العراق ، انتهز ذلك الوزير السورى تلك الفرصة لكى يقدم جواده ذاك هدية الى عبدالاله الذى تقبلها في الحال• نقد قال الوزير يخاطب عبدالاله « اتحبون سموكم الخيول كثيرا ؟ » فرد عليه عبدالاله مبتسما « اقول لك الحقيقة لو كان ذلك امرا مستطاعا لكنت آخذها معى الى غرفتى وادعها تنام معى ! » •

كانت لعبدالاله ، مثل بقية افراد اسرته ، نظرة جيدة نحوالخيول،

وان من اليسير في العراق التغاضي عن مثل هذه الامور ، وذلك لان نسبة الخيول التى يملكها سكان العـراق ، هى اعلى نسبة في العالم • فالخيول العربية تصدر من العراق الى الهند منذ قرون عديدة ، وكانت تستعمل في وقت من الاوقات للفروسية الخفيفة في اوربا • ويهتم العرب في العراق على الدوام باعراق خيولهم ولكن ليس بصفة منتظمة ، الى ان شرع بتنظيم الاجتماعات الخاصة بذلك وفق امر اصدره رئيس الاركان البريطاني ، الذى كان يهتم بمسرة افراد قواتـه الذين كانوا ينتظرون العودة الى اوطانهم في نهاية الحرب العالمية الاولى • ومن تلك البدايـة اخذت سباقات الخيل تتعاظم في بغداد •

لقد اختير ثلاثة من الانكليز لتولي مسؤولية الاشراف على تنظيـم السباقات حسب الاسس المطبقة في اوربا • وكان لسباق الخيل ، والصيد ، وتربية الخيل ، تأثير ملموس على ارتباط عدد كبير من ابناء الشعب ، رغم اختلاف ميولهم وعروقهم وطبقاتهم ، لمصلحة مشتركة هي سباق الخيل • ولذلك كان من المهم بالنسبة الى حكومة الجمهورية الجديدة ، ان تأمر بعد الثورة مباشرة في سنة ١٩٥٨ ، باغلاق كل ساحات سباق الخيل التى كان عبدالاله يهتم بها كثيرا •

نادرا ماكان عبدالأله يمكث طويلا خارج بغداد كما يشاء ذلك • كان يفضل الحياة كثيرا في الارياف عنهـا في المدن • فقد يغتنم الفرص هناك لممارسة متعة الصيد ، ذلك لانه في شـمال العـراق يكثر وجود المزيد من الثيران الوحشية ، والماعز الجبلى ، والغزلان الجبلية ، في حين يكثر في وسط العراق ، الدراج الاسـود ، والحجل والغزلان بأعـداد عظيمة ، وكذلك القطا في الروابى ، والقيام بجولة تفتيشية في البصرة ، يعنى اتاحة الفرصة والمناسبة للصيد بواسطة الصقور في الصحراء باتجاه الحدود السعودية ، وصيد طائـر « الخضيري » في بحيرة « الحمّار »

عند نهر الفرات • ويعتبر صيد البط في جنوبي العراق من افضل مايحدث مثله في العالم • وبمساعدة من دليل خبير وصياد ماهر من البصرة ، كان عبدالاله يستمتع بذلك الى اقصى حد ، ويفضله على غيره من انواع الصيد الاخرى •

كان يتم قطع الاميال الاخيرة من الرحلة في الاهوار ، في نوع من القوارب الخفيفة التي يستعملها سكان الاهوار ، والتي كانت تدفع بالمرادي لزيادة سرعتها ، وتحرك بالمجاذيف في المياه الضحلة ، او لشق الطريق عبر القصب الهائل الذي ينمو في الاهوار •

ولا يزيد المكان المعد للجلوس في القارب عن بوصة او بوصتين حين يكون محملا • وكثيرا ماتؤدي الريح التي تهب في المياه المفتوحة الى انقلاب تلك القوارب • ويتم الوصول الى الاماكن التي تختفي الطيور فيها قبل الفجر • فهي تكون عادة على عمق قدمين في مياه باردة وموحلة • وتكثر الغنائم عندما يسطع النور ، اذ تهب مئات الطيور من نومها ، فيستيقظ الاوز قبل غيره ، ثم يعقبه هنا وهناك مختلف انواع الطيور الاخرى •

وفي الصباح يتم تناول الفطور في كوخ الشيخ المشيد من القصب ، حيث يبدأ صيد طائر الجهلول عند حافة الهور التي تأوي القوارب اليها •

وكثيرا ماكان عبدالاله يتحدث باشتياق عن الايام التي يمضيها في الريف • ويندر ان يمضي هناك اياما قليلة قبل ان تصله رسالة من المدينة تطلب اليه العودة لحل بعض الازمات الجديدة ، ولذلك كان يقول دائما « ان القوم لايحبون ان اخرج الى الصيد ، وانهم يرتبون بعض المتاعب حالما اغادر المدينة ! » •

× × ×

ليس من الهين وصف العلاقة القائمة بين عبدالاله ونوري السعيد. ذلك لان اي زوجين ، وتقريبا كل الرجال الذين يعملون بشكل وثيق سوية طيلة وقت طويل ، وفي غمار العديد من الازمات ، لابد وان يقدر احدهما عيوب الآخر تقديرا جيدا ، الى درجة انه قد يثور احيانا بسبب تلك العيوب ، ولو انهما يثمنان صفاتهما الجيدة ، ويعملان معا بسعادة ولوقت طويل ، ويتحسسان بقسوة مدى خسارة الآخر اذا مامات أحدهما.

لقد كان كل من عبدالاله ونوري معا يتشكى احدهما سرا من الآخر. ولكن من الخطا التأكيد بأن مايحدث بينهما كان اكثر من انفعالات مؤقتة ومفهومة . كان عبدالاله يتهيأ لكي يسافر نوري معه في رحلاته الى اوربا ، والى العالم الجديد . وان كان نوري يخاف من عبدالاله الا انه كان يعجب به ، وبكل ماكان يفعله في سبيل الاسرة الحاكمة والبلاد. والحقيقة ان نوري السعيد لم يكن يكل ابدا من اهتمامه بواجباته ، مثلما كان عليه في ايام فيصل الاول ، بما في ذلك مقابلاته لعدد كبير من الوافدين عليه يوميا . فلم يكن العراقيون والشرقيون وحدهم الذين كانوا يأملون رؤيته حسب ، وانما الاجانب ايضا بما في ذلك الصحفيون، وبأعداد تتزايد باستمرار . فما خلا الاوراق الرسمية كان لابد من الاطلاع على عدد كبير من طلبات الاسترحام . وكانت هذه الطلبات تلقى داخل سيارته في بعض الاحيان . وقد يجري احد المترجمين امامه محاولا الامساك بركبته ، وتقبيل قدمه ، في الوقت الذي يقدم اليه الاسترحام بيد الاخرى . ولم يخفق مرة في منح هؤلاء المسترحمين مايستحقونه من الاهتمام .

وكان في بعض الاحيان يكتشف بعض المشاق التي ينبغي تحقيقها، ولا سيما بالنسبة الى القضايا التي تتطلب العلاج الطبي . فلقد وجد في احدى المرات صبيا تلفت عينه ، واصيب وجهه بحروق وهو يقف الى

جانب سيارته ، فما كان منه الا ان دعاه اليه ، وراح يسأله عن امره .
واذ ذاك تحقق ان من المستطاع عمل شيء ما له عن طريق الجراحة
البلاستيكية في اوربا ، ولذلك تقرر ارسال ذلك الصبي الى انكلترا .
وكثيرا ماكان يرسل المصابين بالمرض الى لندن على حسابه الخاص .

ولربما كان ميله الطبيعي الى التخفيف من عمله اليومي المضني ،
هو الذي جعله يستمتع بالسخريات العملية . ففي احدى المرات تظاهر
بالموت لكي يرى كيف يتلقى الناس ذلك النبأ . وفي احدى المرات
ايضا اضطجع على الارض وهو ملطخ بالدماء ، فكان خدمه السود اكثر
سرعة في اسعافه من مرافقيه الخاصين . وحدث في وقت آخر ان التقى
به عدد من اعضاء السفارة البريطانية عندما كانوا يتناولون عشاءهم في
بيت أحد الاصدقاء ، فاذا به قد اعد العدة لانفجار قنبلة اثناء تناول
العشاء ، وتهيئة احد الجنود لكي يشاهد منبطحا خارج الباب الامامي
لتلك الدار وقد غطى رأسه بجواريب من النايلون !.
غير ان هذه كانت من اعمال المزاح النادرة ، ولم يقدم على الاتيان
بها الا في السنوات الاخيرة ، وكان غرضه كله هو ان يعرف مدى رد
الفعل للنوائب التي تصيبه .

× × ×

كان من بين الخدم النوبيين في القصر ، خادم يدعى « حسن »
اصبح الخادم الخاص لفيصل الثاني ، وقد اصطحبه معه الى انكلترا
عندما سافر للمكوث فيها . وكان فيصل وافراد العائلة يحبونه كثيرا ،
لانه كان من الخدم الكفوئين بصفة استثنائية ، وكان على الدوام نظيفا
انيقا ، وملابسه البيضاء مكوية تماما حتى في اشد اوقات الجو حرارة .
وقد تحدث فيصل عن كيفية اكتشافه سر الخادم «حسن» فقال « كنت
ادق الجرس طالبا اياه ، واحدد الوقت اللازم له . لكنه كان يصل

الي في وقت اطول نسبيا مما يستغرقه وقت وصوله من غرفته • وكان سبب ذلك التأخر انه كان يخلع كل ملابسه فيكويها ويعلقها ، ولا يرتديها الا حين اطلبه ، او حين يقوم بالواجب » • وهناك حكايات اخرى عن ذلك الخادم النوبي المحبوب •

كان فيصل شديد الملاحظة بشكل استثنائي • وكانت شدة الملاحظة هذه واحدة من خصائصه التي لوحظت عنه عند وصوله الى مدرسة «هارو» في شهر ايار من سنة ١٩٤٩ ، وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وبعد ان امضى سنة واحدة في مدرسة « ساندرويد » التمهيدية • وفي «هارو» ذهب الى «موريتونز» وكان ناظر البيت فيه هو السيد «بولبي» وقد قالت امه عالية بأنها ترغب في ان يعامل ولدها مثل بقية الصبيان الآخرين ، وان لا تعطى له اية امتيازات خاصة ، وان يأخذ دوره في التلمذة مع البقية •

وحين حان الوقت لان يصبح فيصل تلميذا تابعا لاحد التلامذة الكبار ، سئل اولئك التلاميذ بعد اسبوعين من ذلك الوقت عمن برهن على جدارته بذلك من الصبيان الجدد ، فرد الجميع بأنه «فيصل !» •

ولقد كتبت ارملة الناظر «بولبي» فيما بعد عن فيصل تقول بأنه « كان يتصرف تصرفا جيدا مع كل انسان وكان معتدلا ذا فكر ثاقب • غير ان هناك جانبا اكثر عمقا في خلقه ، ربما لم يستطع معاصروه فهمه •••• كان يتحدث الي كثيرا عن وفاة امه وكان اهتمامه الرئيس منذ سنواته الاولى ، برخاء شعبه • وبمرور الوقت استطعت ان ادرك بأن آماله قد تركزت على ان يصبح قادرا على رفع المستوى المعاشي لافراد الشعب ، وان يوفر الخدمات النافعة والصناعات الحديثة لمساعدة بلده • وبحكمة لم تتوفر لشاب مثله تأكد لديه بأنه لن يمتلك السلطة

لتحقيق هذه الخطط الا بعد ان يكبر ويغدو رجلا مجربا • لقد كان من حزني العظيم ان اشعر بأن تلك المنافع قد يمكن تحقيقها في المستقبل ، فيدعيها الآخرون لانفسهم ، في حين انها كانت في الواقع هي ذات الاهداف التي كان فيصل يكنها في صدره لشعبه الذي كان يحبه حبا جما » •

تخصص فيصل الثاني في موضوع التأريخ ومارسه جيدا ، ولو انه لم يكن متميزا في الموضوعات الاخرى ، وبلغ فيه الدرجة العليا الخاصة. ولقد كانت خصائصه التي اشار اليها في اول الامر اساتذته في «هارو» الذين يتذكرونه ، تتميز بالرقة ،والانفتاح ،والاعتدال ودفء الاحاسيس. فلقد اعطيت له في اول الامر غرفة خاصة بدلا من ان يشاركه فيها تلميذ آخر ، لكنه لم يكن هنالك أي فرق في المعاملة • وهو لم يظهر اي تذمر اثناء تتلمذه على من معه من الطلاب الكبار ، بل على العكس من ذلك ظهرت عليه دلائل المباهاة لتتلمذه على الآخرين ، لانه ظل يحتفظ فيما بعد ، بين الاشياء الاخرى المختلفة ، بالمزيد من الاوراق في المنزل الذي سكن فيه بمنطقة «ستاتول» ، والتي تم العثور عليها في قطعة من ورق مبطن من دفتر ، ملاحظات كتبت خلال ايامه الاولى في «هارو» على الشكل التالي :

واجبات الصبيان اليومية ١٩٤٩

- حضور الاوائل الستة بعد التمرين الى الدوش (الحمام) •
- ان يكون الماء خارج الحمام •
- ان يرتدي الاوائل الستة ملابسهم استعدادا للحمام •
- ان يجري جميع الصبيان عندما يدعون ، وان يجروا بسرعة حسب المستطاع ، ولا يصح التوقف للحديث اثناء الطريق •
- قطع دعوة الصبيان يعاقب عليه بشدة •

شارك في تربية فيصل الثاني ، مربية ، ومشرفة ، ومعلم ، وكلهم من الانكليز ، بالاضافة الى مدرستين انكليزيتين احداهما تمهيدية والثانية عامة • واعطيت له دروس في اللغة العربية في العـراق وفي انكلترا • وكان تأثير اسرته عليه قويا جدا طبعا • ومع ذلك فقد كان في تدريبه اشبه بنتاج بريطاني تقريبا ، حسبما يتهيأ لاجنبي ان يصير اليه • كان دافئا في احاسيسه عن المدرسة ، وعن الاصدقاء الذين كونهم له هناك ، وبقي مرتبطا بهم حتى بعد ان غادر المدرسـة • وفضلا عن ذلـك فقد أرسل خطيبته لكـي تشاهد كليـة «هارو» • ولا بد انه كان يأمل ان تصبح تلك الخطيبة اما لفتى يدخل تلك المدرسة •

وكان يبعث برسائله باستمرار الى مدير المدرسة الدكتور «جمس» ويرسل اليه في كل مناسبة بكراريس عن التطور والتقدم اللذين حصلا في العراق ، وظل يواصل مراسلاته مع الفتيان هناك ، والاساتذةوالناظرين وغيرهم • ولقد اظهر ارتباطه بمدرسته النادرة في العالم العربي ، والتي كانت تقع شرقي بيروت •

× × ×

وما ان اعلن العيد الثامن عشر لميلاد فيصل الثاني ، وحلول سـن التتويج في اليوم الثاني من شهر ايار سنة ١٩٥٢ ، حتى اعلن عن قيام ذات الاحتفالات لتتويج الملك حسين في عمان في نفس ذلك اليوم • ويمكن تصور القلق الذي ساد الاوساط الدبلوماسية المعنية • وفي النهاية توجه رجال بارزون من امثال «دوق غلوستر» الى بغـداد أولا ، ومنهـا الى عمان مباشرة • ولـم تحدث ذات الصعوبـة بالنسبة الى عدد من الزوار الوافدين من انكلترا ، ممن وجهت الدعوة اليهـم من لدن البـلاط في بغداد • فقد كان هؤلاء كلهم من الرجال الذين خدموا في العـراق ، ومن المعروفين معرفة جيدة لدى الاسرة الملكية والحكومة • وكان مـن

بينهم اربعة من الشبان الذين كانوا مع فيصل في مدرسة «هارو» ، بالاضافة الى السيد « هاردوود » الممثل الجديد لشرطة سكوتلانديارد ، والذى كان على اتصال بالزوار الملكيين العراقيين الى انكلترا ، وكان محبوبا جدا لديهم ، والسر « ستيفن غبسون » رئيس مجلس ادارة شركة النفط البريطانية التى هيأت الطائرة لنقل الضيوف ، مع عدد من موظفيها .

ولاول ليلة في بغداد لم تقم وليمة رسمية . وفي المساء ذهبت مع الدكتور هارى سندرسن لمقابلة فيصل الثانى وعبدالاله في قصر الملك علي . لقد كان الاثنان يمضيان الامسية بمفردهما مع مرافقيهما وقلة من الاصدقاء ، في جناح جديد مؤلف من طابق واحد على ضفة النهر ، والذى قام مقام القصر المتداعي الذى كان الملك علي يسكن فيه ، قبل ان اسكن انا فيه مؤخرا . جلسنا في حديقة او مرج يقع فوق النهر مباشرة ، وذلك تلمسا للبرودة ، فقد كان الوقت بداية موسم الصيف في العراق ، وكان النهار حارا جدا .

وحينما اردنا ان نغادر دعينا للمكوث لتناول العشاء . اخذ الظلام يسدل استاره ، واخذت اضواء بغداد تصل الينا عبر النهر ، فقد كانت الاضوية اكثر من المعتاد . ذلك لان كل الدور والفنادق والدوائر الحكومية كانت تتلألأ انوارها بشكل غير اعتيادى من مصابيح ملونة ،وذلك مشاركة في الاحتفالات . ولقد بدا كل فرد في تصرف سعيد وبهيج . وكانت اصوات الموسيقى الطاغية تتدفق عبر النهر .

كان فيصل وعبدالاله الذى غدا وليا للعهد في الوقت ذاته ، مغتبطين، تطغى على وجهيهما الابتسامات والمرح . اعدت مائدة طويلة للعشاء . وكان النور الوحيد الذى يقع عليها عندما جلسنا اليها ، هو النور

الساقط من الدار • كان الطعام حسب الذوق الشرقي يتألف من الرز الملفوف بأوراق العنب ، مع أنواع من الحلويات السكرية والمعجنات • وحين كنت اتحدث الى الشخص الجالس الى جواري من ناحية اليسار، والذى كان يفصل بينى وبين فيصل ، ملأ احد الخدم قدحا من الشراب من ابريق زجاجى ذى رأس فضى • اشترك فيصل معنا في الحديث ، واذ رفعت له قدحى وكأننى احاول ان اشرب نخب صحته ، وطول عمره ، تذوقت الشراب فوجدت مذاق ذلك السائل الاسود ، قبل ان اضع القدح ، غريبا تماما • حاولت ان اتذوقه خلسة مرة اخرى • ترى ايكون مسمما ؟• انه تفكير سخيف في مثل هذه الليلة • ارتشفت منه مرة اخرى ، فوجدت ان ذلك السائل هو «البيبسى كولا» ، الشراب المفضل لدى فيصل !•

وصل « دوق غلوستر » ممثلا عن ملكة انكلترا في اليوم التالى • وكان ممن رافقه في حاشيته بهذه المناسبة ، «الفريق رنتن» رئيس البعثة العسكرية البريطانية في العراق • وكان من بين ممثلى الدول الاخرى ، الامير سعود بن عبدالعزيز السعود ولى عهد المملكة العربية السعودية •

تميز انتهاء عهد الوصاية ، وتولي فيصل سلطاته الدستورية ، بقسم اداء فيصل في البرلمان ، وباذاعة الاحتفال الى الشعب ، وباطلاق التحية بمائة طلقة وطلقة •

كان فيصل وعبدالاله يرتديان بدلات بيضاء ، وقبعتين مفرطحتين ، ويركبان عربة من مبيعات شركة «هور» في شارع «سنت جمس» بلندن. ترافقهما حاشية من الحرس الخاص يمتطي افرادها الخيول ،ويرتدون البدلات الحمر الجميلة،والخوذ البيضاء التى كانت تلتمع في شمس الصباح• كان عبيد عبدالله آمر الحرس الخاص يمتطى بمباهاة جواده على رأس

ثلة الحرس تلك ، في حين كانت الحشود تهتف فرحة في الشوارع « يعيش ملكنا اليتيم ! » .

وفي اللحظة التى غادر فيها فيصل البرلمان ، لاحظ هو وعبدالاله ان السيد محمد الصدر رئيس مجلس الاعيان والدكتور فاضل الجمالى وزير الخارجية ، ليست لديهما سيارات ولذلك اشارا عليهما بأن يركبا معهما .. اقيمت استعراضات للجيش شوهد فيها نورى السعيد وقد حضر مبكرا ، وراح يعطي التوجيهات ، ويأخذ على نفسه القيام بدور الضابط المنفذ بدلا من ان يكون احد المشاهدين . فقد كان يقف عند زاوية المنصة طوال الوقت بدلا من الجلوس مع كبار الساسة .

كانت هنالك مواكب من الطوافات التى اعدتها الوزارات لكى تشير الى اعمالها ، وكانت بعض تلك الطوافات مثيرة وممتعة . فعلى ظهر الطوافة التى اعدتها وزارة الاشغال ظهر معمل للتصليح ومعه عدد من الفتيان . وقد استقبل هذا المنظر خاصة بعاصفة من التصفيق والهتاف ، تقديرا للتقدم الفنى ، وهو من الامور الحديثة جدا . كذلك استقبل العرض الذى اعدته مديرية الآثار القديمة بالتصفيق ايضا ، نظرا للذكرى التى يمثلها ، وهو عبارة عن عربة تجرها خيول عربية من خيول الحرس الخاص يركبها بعض افراد الحرس ، وتحمل منظرا يصور افريزا فيه صور لاحد ملوك اشور وحملة الرماح ، ورجال يركبون الخيل ، من ذات العصر الاشورى .

اما مشهد وزارة المعارف فقد كان يمثله طلاب كانوا يؤلفون شكل تنين طويل كان يرفع رأسه الكبير ويخفضه باستمرار ، ويفتح اشداقه ويطبقها . وكان المنظر واقعيا كثيرا . وهنالك مشاهد اخرى لم تخطط بعناية تامة ، ومع ذلك كانت تستقبل بحرارة ، وهى تموج بالفتيات

اشارة الى ان تحرير المرأة قد غدا يلاقى الترحيب على نطاق واسع .

وفي الليل كانت الموسيقى المنبعثة من الاجواق ، ومكبرات الصوت للمذياع ، ودور السينما والملاهى ، تملأ المدينة كلها . وحتى في الاحياء الفقيرة من المدينة ظل قرع الطبول والرقص متواصلين حتى الفجر . لقد كان شعب بغداد في السماء السابعة من السعادة . وكان اكثر الناس سعادة هو عبدالاله ، لان عهد وصايته قد انتهى بنجاح ، ورست سفينة الدولة على شاطئ الامان بعد مسيرة طويلة وفي اوقات عصيبة . فهو مايزال شابا بصفة نسبية ، لانه لم يزد على سن الاربعين بكثير ،وفي مقدوره التطلع الى سنوات سعيدة كثيرة مقبلة .

كان فيصل اثناء الاحتفال يقوم بين فترة واخرى بتفقد اصدقائه من مدرسة «هارو» ، فيستحم معهم ، ويشاركهم في تصويب النار الى الاهداف ، ويساهم معهم في انواع الالعاب التى كانوا يستمتعون بها في انكلترا قبل ان يكبروا .

كان من بين اصدقاء فيصل في مدرسة «هارو» ايضا «بركات بن الامير بيرار» الابن الاكبر لنظام حيدر آباد ، والذى كان يمارس معه تلك الالعاب ، ومن بينها التزحلق على الماء .

وفي احدى المرات تراهن فيصل مع بركات هذا على قنينة من الكوكاكولا ، ان هو استطاع ان يقطع بسيارته الف ميل في مدة اربع وعشرين ساعة ، ففاز بركات بذلك الرهان . اما فيصل فلم يشاركه رغبته في قيادة السيارة بسرعة .

وهناك اصدقاء آخرون من الشبان العراقيين ، من بينهم اولاد جميل المدفعى ، وعلى جودت ، وواحد افراد عائلة «الجوربجى» ببغداد ، وابن

عم ابيه «رعد» وهو في مثل عمره[٢٧] ، لقد نفذ فيصل الثانى وعده الاول. لقد حقق في حياته الاعتيادية والخاصة اشياء كثيرة بشكل جيد • كان صيادا ماهرا ، يحب السباحة ، ولعبة الشطرنج ، وجمع آخر التسجيلات الموسيقية العصرية ، وممارسة الرسم بنجاح • وكان يختار الصور بحصافة ، ويشرع في انتخاب اعداد صغيرة لها قيمتها •

وعلى خلاف والده كانت له هوايات منتظمة • فقد اعتاد ان يذهب الى النوم في الساعة الحادية عشرة ، وان ينفق في القراءة مدة ساعتين ، ولا سيما في قراءة الكتب العلمية • وكان يهتم بالتصوير الشمسى ، والاشرطة الملونة • وكانت لديه سينما خاصة • وكان من احد الاشرطة المحببة لديه ، وبالحجم الكامل ، هو شريط « الصحراء الحية » للفنان «والت دزني» •

وبعبارة موجزة كان فتى قديرا بشكل غير اعتيادى • واكثر من هذا انه ما ان بلغ السنة الثالثة والعشرين من عمره ، حتى اخذ يتحول الى ملك دستورى ، ويحمل في قلبه الاهتمام برفاه شعبه •

لقد كان الاحساس الشامل لدى الناس بأن الاحتفال بتتويج فيصل الثانى في ذات السنة كان اشبه باحتفال تتويج في انكلترا • ففى غضون شهر واحد من ذلك كان عبدالاله في لندن يحضر الاحتفال بتنصيب الملكة اليزابث ، حيث ظن البعض في العراق ان سبب سفرته تلك هو ان يزيد من التقارب بين العراق وبريطانيا بصفة اكثر • وفي شهر تموز سنة ١٩٥٦ قام فيصل الثانى بزيارته الرسمية للملكة

---

(٢٧) هو ابن الامير زيد بن الحسين ملك الحجاز • وكان يعيش مؤخرا في الاردن في خدمة الحكومة الاردنية الهاشمية اما ابوه الامير زيد فقد توفي قبل بضع سنوات •

اليزابث ، فكانت الكلمات التى استعملها مراسل جريدة التايمس اللندنية، عن وصول فيصل الى «الدوفر» ومن ثم الى انكلترا ، يشوبها الدفء بشكل اعتيادى .

كان الجو مدهشا ، اذ كان ذلك اليوم مشمسا ومشرقا . وقد سار كل شيء سيرا حسنا جدا ، فقد اجتمع حشد كبير للترحيب بفيصل ومشاهدته . كان يصحبه في سفرته تلك خاله عبدالاله ، وحاشيته التي كانت تضم نورى السعيد . ولقد تحدثت المقالة الافتتاحية الرئيسة لجريدة «التايمس» بالرضا ، فقالت ، بأن العراق هو البلد الوحيد الآن بين الحكومات العربية الذى يحظى اليوم بالاهتمام الفائق من لدن بريطانيا ، وان « بغداد لوحدها بين العواصم العربية ليست لديها علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتى ... ففى جميع البلدان العربية في الغالب اخذت البعثات التجارية والفنية والسياسية الشيوعية تنشط وتعمل على نطاق واسع . ولكن العراق وحده رفض تلك البعثات ... » .

وبعد ان تحدثت «التايمس» عن الاصلاح ، والتقدم ، ورفاه الشعب في العراق ، اختتمت مقالها بالقول « ليس مستطاعا توقع نتائج سريعة ، لان المشكلة واسعة . ولكن اذا مامنحت الطاقة ، والحماسة القوية ، والتصميم المتواصل لضرب الحركة الشيوعية داخل العراق ، فلن يبقى هناك اى سبب يحول دون تحقيق النجاح » .

وفي الوليمة التى اقيمت في قصر بكنغهام قالت الملكة اليزابث بأن العراق قد اصبح نموذجا للدولة العصرية ، وانه قد تلقى قبل سنة خلت ، قوة جديدة عندما ارتبط مع الامم الصديقة في تحالف اوسع عن طريق حلف بغداد .

قام فيصل بزيارة ال «ستي»[٢٨] لتنـاول طعام الغداء مع «اللورد ماير»[٢٩] في «غلد هول» • وفي الوقت الذى حضر فيه نورى السعيد الى قصر بكنغهام مبكرا ، وهو ينتظر ان يشارك في ذلـك الغداء ، انتحـى جانبا بأحد الضباط البريطانيين الذين انضموا الى حاشية فيصل ،فجلس لوحده معه على احدى الارائك ، وراح يتحدث اليه عن اهدافه الواسعة• ومما قاله نورى السعيد لذلك الضابط الانكليزى « لقد كبرت الآن كما ترى ، واصبحت حياتى شاقة لاننى بلغت السبعين من عمرى • واكثـر من هذا اننى اصبت بالصمم • فأنا متعب وغالبا ما افكر بأنه يجب علي ان اتقاعد • والآن قد تكون اللحظـة الصالحة لذلـك هـى عند انتهـاء الزيارة الرسمية لهذا الفتى • غير اننى لااستطيع ان افعل ذلك ابدا » •

وتأوه نورى السعيد ، ومن ثـم وضـع يده على ذراع الضـابط ومضى في حديثه يقول « انك ترى ان الخطة المعدة لتطوير القطر خطة جيدة ، واننى انا المخطط والمنفذ لها ، ويجب ان اراقب تنفيذها • ففى الوقت الذى ينضب فيه النفط سوف يتوفر المزيد من الانتاج الزراعى ، وستصبح صناعاتنا الحديثة في الحد الاعلى من الانتاج • وحين تتوفـر لدينا تلك الثروة سوف يتحقق لنا الامن الداخلى •••• وفي الوقت ذاته فأنا لست محبوبا لدى الكثيرين مـن العـراقيين ، وذلـك لان جمـال عبدالناصر يثير لنا كل المصاعب التى يقدر على اثارتها • فقد يقع كـل شيء ، ولكن ليس من اليسير ان تحمل الناس هنا على ان يتحققوا كـم هو عسير علينا ان نحتفظ بموقعنا • فاذا ما استطعنا ان نواصل مسيرتنا

---

(٢٨) الحى المالى الرئيس في لندن •

(٢٩) اللورد ماير هو المنصب الذى يعرف عندنا باسم «امين العاصمة» وهو من المناصب المهمة في بريطانيا وغيرها من الدول الغربية •

خلال السنوات الخمس او الست القادمة بنجاح ، فان كـل شيء سوف يصبح جيدا ، ولسوف ابرهن بأنني كنت على صواب فيما نفعله الآن ، واذ ذاك سنرى نتائج مـا قدمناه للشعب ، وسيعم الرخـاء الواسـع . انني اراهن بأن العراق سيكون اقوى بلـد ، واكثـر رخاء في الشرق الاوسط كله . فاذا ما استطعنا ان نمضي السنوات القلائل المقبلة .. » .

عند هذه اللحظة وصل فيصل وعبدالاله ، واذ ذاك انهى نوري السعيد حديثه ، لكي يذهب الى الحفلة الرسمية في «غلد هول» .

في المساء اقيم حفل استقبال من لدن الحكومة في «لانكستر هاوس» ثم قام فيصل بزيارة القاعدة الجوية في «اودهام» ، ومدرسة «هارو» ، كما اقام حفل عشاء في السفارة العراقية للملكة اليزابث ، وحضر عشاء في الجمعيـة العراقيـة الانكليزية في احـد الايام التي اعقبـت الزيارة الرسـمية .

وضعت هذه الزيارة خاتمـة لعهد الحداثـة الطويلـة التي قطعتها الدولة ، ولفيصل نفسه . لقد كان في سنة ١٩٣٣ كثير من الذين كانوا يراقبون الامور ، والذين كانوا يدعون بأن العراق غير لائق بالاستقلال الذي ظفر به . وقد وجد هؤلاء فيما بعد حقائق تدعم ادعاءهم ذاك ، ومنها مذبحة الاثوريين والانقلابات العسكريـة الاربعـة التي قام بهـا الجيش . ولكن اخيرا وفي سنة ١٩٥٦ ، وان كانت تبدو هنـالك دلائل على الاضطراب كمـا قال نوري السعيد بعـد ذلـك ، فقد بدت الدولة العراقية وكأنها قد نضجت تقريبا .

الفصل السادس

في صبيحة يوم صيف

ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨

« اخفقت البرلمانات والاضاليل الاوربية الاخرى في »
« تحقيق الدمقراطية في الشرق • فلقد شرع العرب »
« يشعرون بصفة متزايدة ، بأن تلك الوسائل »
« لم تفعل شيئا سوى تسهيل الفساد والضعف ليس »
« الا • ذلك لان سر الغرب لم يتم اكتشافه بعد !••• »

(النقطة الخلفية للمأساة) ١٩٥٧
تأليف «بول ستاملر» و «عصفور»

POLE STAMLER AND ASFOUR: BACKDROP IN TRAGEDY 1957.



« غالبا جدا مايتناسى بأن الدمقراطية ليست مادة »
« للتصدير ، وانه لا يوجد ضمان ذاتي • ذلك لان »
« النماذج الظاهرية للدمقراطية قد ابتدعت في »
« تربة غريبة ، وان الدمقراطية ذاتها سوف »
« تسود على حين غرة •••• »

(العلاقات الانكليزية التركية وظهور القومية العربية) ١٩٥٨
«زين نورالدين زين»(١)

---

(١) من الكتب المهمة عن ظهور القومية العربية وضع اصلا باللغة الانكليزية ونال به صاحبه شهادة الدكتوراه وهو من الشبان الاردنيين اللامعين •

حين بلغ فيصل الثاني سن الرشد ، واصبحت نهاية الوصاية وشيكة ، تحدث عبدالاله عن المستقبل فأوضح بأنه سيمكث مع فيصل سنة واحدة حسب ، لكي يساعده ، وان من الافضل ان يتركه بعد ذلك لكي يتحسس بنفسه طريقه الى امام . اما مستقبل عبدالاله نفسه فقد قال عنه بأنه قد يشترى له مزرعة في انكلترا ، ويحتفظ فيها ببعض الخيول ، ويشارك بها في سباقات الخيل .

غير ان عبدالاله كان في الوقت ذاته وليا للعهد . ذلك لانه اذا ماحان الوقت وساءت الحالة العامة في البلاد ، فلسوف يؤخر فيصل اليوم الذى يبقى وحيدا فيه . وحين كان عبدالاله يهم بمغادرة لندن ، بعد ان اجريت له عملية طبية لالتهاب اللوزتين ، وراح طبيبه الدكتور «ريموند فرث» يحاول اقناعه بتأخير وقت مغادرته ، ادلى بالسبب الذى يدعوه الى العودة بسرعة ، واضاف الى ذلك ذكر بعض المتاعب السياسية وقال « آه . حسنا ! اننى اتوقع بأنهم سوف يصطادوننى في النهاية !! » .

ان ماكان بعض المراقبين يرونه من التفكير المكتوم الذى كان يغرق فيه عبدالاله في ايامه الاخيرة ، لم يكن اكثر من تقبل جريء للمصير الذى كان ينتظره . وحين سألته فيما بعد عن مغادرته العراق اجاب «ينبغي لى ان امكث . فالملك مايزال في حاجة الي» . ولو انه غادر البلاد لتم توجيه الانتقاد اليه بأنه قد ترك الملك في وضع حرج ، واخفق في تأدية واجباته باعتباره وليا للعهد . ولذلك فلا بد له ان يمكث الى ان يتم زواج الملك على ادنى تقدير .

ومن ناحية اخرى كان مكـوث عبدالاله الى جانب فيصل مـن الاسباب التى ادت الى فقدانه لشعبيته • فلقد كان كـل فرد يأمـل ان يتزلف الى الملك الشاب ، وعدد هؤلاء كبير ، ويشـعر ان اخفاقـه في نجاحه ذاك ، يعود الى وجود عبدالاله ، الذى لم يقـاس المتـاعب مـع اولئك الذين لم يكونوا يتوددون اليه من قبل •

وعلى غرار الملوك والرجال الذين يتولون المراكز العظيمة في كل بلد ، كان عبدالاله عرضة للاحتفاظ بالاشخاص المفضلين لديـه لبعض الوقت • ولذلـك كان الآخرون الذين لـم يحظوا بالاهتمام الملـكى ، ضحايا للغيرة الطاغية عليهم ، في الوقت الذى يتميز فيه المقربون غيظا اذا ما ابعدوا عن اماكنهم •• لقد ادت مشاركـة عبدالاله في المشـاريع الاقتصادية ، وتشـجيعه الصناعـات الخفيفـة ، الى جلـب المزيـد مـن المتاعب له •

ولقد اعتبر منتقدوه ان منفعته المادية التى كانت هى السبب الرئيسى لاهتمامه بكل حالة من تلك الحالات •

نشر شقيق «صلاح‌الدين الصباغ» في بيروت كتابا بذيئا عنوانه «فرسان العروبة»[٢] وقد شنق صلاح‌الدين علانية لاشتراكه في ثـورة ١٩٤١ وقيل ان ذلك الكتاب كان من تأليفـه هـو • ولقد نجح ذلـك الكتاب في فضح الاوضاع ، واضـاف المزيد من الوقود الى النـار التـى

---

(٢) اخطأ المؤلف في ذكر عنوان الكتاب اذ قال عنه انه [فرسان العربا] ولربما تعمد في ذلك استهزاء بالكتاب وصاحبه • وقد ظل هـذا الكتاب محظورا دخوله الى العـراق منذ صدوره الى قيـام ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ حيث وصلت كميات كبيرة منه الى اسواق بغداد واقبل النـاس على قراءته بنهم على الرغم من عدم اتساق الحوادث فيه •

كانت تتأجج مسبقا . فهـذا الكتاب الذى جعـل من «غازى» بطـلا ، وذكر بأن غازى نفسه قد قتل على يد كل من عبدالاله ونورى السعيد، قد اصبح مصدرا لاذاعة «القاهرة» .

كانت فتوة الملك الشاب فيصل الثانى هدفا هينـا للضربات . وقد تحمل نورى السعيد وعبدالاله ثقـل الهجمات التـى انصبـت على الحكم القائم . ولقد كانت هنالك فرصة لشد طلقات المدفع . فالبريطانيون الذين كانوا على الدوام عرضة لنيران الصحافة العراقية ، كانوا يقرنون باسم عبدالاله ، ورجال الدولـة القدامى المعـروفين بولائهـم لحلفائهـم الانكليز ، والذين كانوا يزورون بريطانيا باستمرار .

ومنذ ان استقرت ، ولعدة سنوات ، في اذهان الجمهور في كل من مصر والعراق ، الفكرة القائلة بأن الامبرياليين هم السبب في كل عيب يمكن تصوره ، لم يعد هنالك من خلاص لربط اسـم عبدالاله ونورى السعيد باسم بريطانيا ، وذلك بقصد الحط من سمعتهما . لقد كان نورى السعيد يدعى « خادم الغرب » ، واطلق على عبدالالـه لقـب « كلب الامبرياليين » . وهكذا اخذ الشبان في العراق بالتدريج يتقبلون الفكرة القائلة بأن ذينك الشخصين هما من الطغاة .

ومن ناحيـة اخرى كان الهجـوم العنيف ، طويل الامد ، عـلى البريطانيين في الصحافة وفي البرلمان ، عرضـة لان يصبح اداة تضليلية بواحدة من الطرق . لم يكـن البريطانيون في الاساس جـد ممقوتين لكن الهجوم كان ينصب عليهم بصفة اكثر لانهم كانوا هدفا مهما لذلك، وان ظلوا في امان . فالسياسى الذى يعرف عنـه بأنه يحب الانكليز ، ويشترك معهم في الرأى ، قد يثير دهشة اصدقائه البريطانيين بالخطب العنيفة التى يلقيها ضدهم . وقد يوضح لهم بأن مثل هذا التظاهر امر

ضروري لتصرفه ويقول « لا يوجد احد يصدق بذلك لان كل انسان يفهمه ! » • فمهاجمة الحكومة القائمة في الحكم ، تحتاج الى الحذر • وكان الشيء الوحيد الذي اثار حنق رجال الصحافة العراقية بعد زمن، هو سلامة الاهداف البريطانية • فلم يتم الثأر من البريطانيين ، وذلك امر يشير الى مدى الخطة التي كانوا يزنون بها الرجال الشهيرين • ذلك لان الذين عرفوا البريطانيين جيدا لم يؤمنوا بصواب اعمال التشهير تلك ، ولذلك كان يظن بأن اولئك الذين لايعرفون تلك الاعمال ، لم يدرجوا الى تلك القائمة !•

لقد وصل هذا الهجوم في بعض الاوقات الى الدرجة التي اصبح فيها تأثيره يرتد الى القائمين به • فلو كان الامبرياليون دوما على مثل هذه الدرجة من الفساد ، الم يكن من المستحسن للمرء ان يتصل بهم بطريقة حصيفة ؟[٣] • ومهما يكن الامر فقد اثار فشل معاهدة بورتسموث دهشة الناس ، كما ان استيلاء الفرس على «عبادان» ، ومن دون اي رد فعل مباشر من قبل بريطانيا ، قد جعل دهشة الناس اكثر وأعم •

لقد كان من مصلحة بريطانيا ان تحمي مؤسساتها في ايران ، وتحافظ عليها ، سيما وان تلك المؤسسات مملوكة جزئيا من قبل الحكومة

---

(٣) يحاول المؤلف هنا ان يبرىء ساحة الانكليز من التهم التي كان الشعب العراقي يلصقها بهم ، متناسيا ان الانكليز ، مثل غيرهم من اية دولة أو فئة استعمارية ، لا يخدمون الا مصالحهم الاستعمارية في كل الاحوال وعلى مختلف المستويات ، وان كل مايتظاهرون به من مساعدة الشعوب على الظفر بالاستقلال والحرية ، يكذبه واقع السياسة الاستعمارية المتبعة والتي تجسدت في مواقفهم من قضية فلسطين •

البريطانية ، كما يعرف ذلك كل انسان[٤] • فاذا لم يفعل البريطانيون ذلك فقد يكون السبب هو عدم قدرتهم على القيام به ، ولذلك تغير الجو • فمن في الشرق العربى النفعى يرغب ان يرتبط ، او يعتمد على دولة فاشلة ؟ • وعندما تم الاستيلاء على قناة السويس من دون اى عمل مضاد مباشر ، غدا الموقف واضحا كل الوضوح •

× × ×

كان ملك العراق الشاب يتناول طعام الغداء مع رئيس الوزارة البريطانية في ذات اللحظة التى سلمت فيها اليه برقية تنبىء باستيلاء المصريين على قناة السويس • ولم يخف « السر انطونى ايدن » عن ضيوفه ، ذلك الامر الذى سوف يصبح معروفا لدى العالم كله في غضون ساعات قلائل • ومن تلك اللحظة وما بعدها راح نورى السعيد يضغط يائسا وبشكل مستمر على اتخاذ اجراء ما ضد مصر •

ولقد انبأنى عبدالاله بأنه لم يكن ليعرف آنذاك ما اذا كان في مستطاعه ان يقابل «انطونى ايدن» مرة اخرى قبل ان يغادر انكلترا ، لكنه كان يود ان يكون معروفا لدى الاوساط الحكومية الانكليزية ان وجهة نظره القوية في الموضوع هى : اذا كان العمل العسكرى المباشر مستحيلا في الوقت الحاضر ، بسبب عدم استعداد الجيش البريطانى ، فانه بعد ان يصبح الجيش البريطانى مستعدا لذلك ، لا بد من العثور

---

(٤) يشير المؤلف بذلك الى نفط الاحواز الذى كان حرا بيد الشركات الانكليزية وحدها منذ العثور عليه في سنة ١٩٠١ حتى سنة ١٩٥٤ وكانت الحكومة الانكليزية نفسها تمتلك اربعا وخمسين في المائة من اسهم شركة النفط الايرانية انظر كتابنا « معركة النفط في ايران » •

على ذريعة للقيام بذلك الاجراء • كان عبدالاله متأكدا بأنه ما ان يزول السخط العام في بريطانيا وفي فرنسا حتى يصبح العمل القوى المضاد اكثر صعوبة واشد ، ولكن هل من المستطاع حقا تدبير حادث ما ؟ وهل يمكن القيام بعمل شيء ما ، كارسال سفينة عبر قناة السويس مثلا ؟ • ولقد كان جوابي على تساؤله ذاك ، ان المصريين بعد شهور قلائل ، قد يتجاوزون تلك الحدود ، وهكذا سوف يؤدي الامر الى تدخل لا يمكن تجنبه •

وواصل عبدالاله حديثه بحدة يقول « ان الامر بالنسبة الينا ليس قضية شهور ، بل اسابيع » • وهكذا راح يزن النتائج التي سوف تعقب ذلك في العراق ، وفي اي مكان آخر ، في اعقاب انتصار جمال عبدالناصر • ولقد كان مصيبا في ذلك حقا في حينه ، ولو ان الذروة فيما حدث كانت اطول مما كان يفكر فيه • وطفق عبدالاله يكرر قوله بانه اذا لم يسقط جمال عبدالناصر في وقت قصير جدا ، اي في اقل من بضعة اسابيع ، فان الامر قد يغدو متأخرا جدا ، وفي ذلك الوقت سوف يعم الشرق اضطراب لا سبيل الى علاجه ، وسوف يتفكك «حلف بغداد» ، في حين يشرع الروس بتعزيز مصر على نطاق واسع بالطيارين والفنيين وبكل شيء •

واضاف الى ذلك قوله بأنه يرى ــ وليس هذا لمجرد انه من اسرة مالكة ، بل حسبما استقر عليه تفكيره بعد امعان طويل في مبدأ الحكم الملكي وتطبيقه ، واستمراره ــ ان من الأفضل للشرق ، ان تتم اعادة النظام الملكي الى مصر ، وان لا يسمح للملك فاروق بالعودة ولا لوريثه المباشر الى العرش ، ثم قال « ان الامير «منعم»[٥] هو افضل

(٥) كتب المؤلف اسم «منعم» «منعن» واظنها غلطة مطبعية واضحة والمقصود به هو الامير عبدالمنعم من الاسرة المالكة في مصر •

رجل لذلك المنصب ، وان يصبح «على ماهر» رئيسا للوزارة » •

ولقد كانت الجماهير في القاهرة منفعلة الى اقصى الحدود ، وانها سوف تهتف لكل حادث جديد ، في حين كانت الطبقة المتوسطة ، ومعظم رجال الجيش ضد جمال عبدالناصر • ومن ثم كرر عبدالاله القول بأن كل نوع من عناصر الفوضى المدمرة في مصر وفي العالم العربى سوف تنطلق من عقالها ، اذا لم يسقط عبدالناصر في وقت قصير •

دأبت محطة الاذاعة المصرية ليلة بعد اخرى على مهاجمة الحكومة العراقية • بل فعل المصريون اكثر من ذلك فراحوا يضعون الخطط المدبرة مع العناصر العراقية الساخطة ، ومع العملاء الروس • ولقد دفعت هذه الحالة نورى السعيد بصفة مباشرة الى توجيه خطاب مطول منطو على الاقناع ، الى الشعب العراقى من دار الاذاعة العراقية • وفي سنة ١٩٥٧ غدا واضحا قيام تحالف غير مقدس ، بين اعداء العراق •

فقد ذكرت صحيفة «التايمس» في تعليق لها على ماتنشره الصحافة القاهرية من مقالات ، نشر في اليوم الرابع من شهر كانون الثانى ، ورد فيه ان تلك المقالات كانت « جزءا من الحملة التى توجهها كل من القاهرة ، ودمشق ، وموسكو ، ضد الحكومة العراقية الحاضرة » ، واعلنت الصحيفة عن املها بأن لايكون لتلك الحملة تأثير على نزع الثقة من الحكومة العراقية ، سواء في بريطانيا ام في امريكا ، واضافت الى هذا قولها بأن العراق غدا متقدما ومرفها تحت زعامة نورى السعيد ! » •

كانت زيارات عبدالاله الى الخارج متواصلة • فتارة الى لندن ،

واخرى الى أمريكا ، واليابان ، وفرموزا ، والباكستان • وكانت هـذه الزيارات تقع مرتين أحيانا في السنة الواحدة •

ولقد وجه النقد اليه على تلك الزيارات ، وقال منتقدوه ان تلك الرحلات تظهر بجلاء كيف كانت تلعب به ايدى الغربيين والاجانب • ولكن نسي اولئك المنتقدون ان تلك الرحلات كانت مناقضة لنواياه • فقد كان عبدالاله يرغب في ان يرى الساسة والافراد من هو المفيد للعراق ، او يريد ان يجعلهم يفهموا مشاكل العراق ومتطلباته ، ووجهة نظر بلدان الشرق الاوسط • ذلك لان معرفة عبدالاله باللغة الانكليزية ، وصفاته ، ومسلكه ، قد جعله احسن من يختار لمثل هذه المهمة •

لقد كانت قدرته الفائقة في هذا الامر هى التى جعلت مصر تغتاظ من نجاحه • ولذلك عملت الصحافة بكل جهدها على التندبد بزياراته تلك ، وراحت تشبهها بألاعيب الاطفال المبددة للاموال • وكان عبدالاله في وقته مبرزا بين رجال الشرق الاوسط في استخدام الطائرة، بذات الطريقة الاعتيادية المألوفة لدى الساسة ورجال الاعمال في الولايات المتحدة الامريكية ، وفي اقطار اوربا الغربية •

كانت مصر تعرف جيدا ان العراق سوف يبزها ، بمدى شاسع جدا ، في الثراء ، وفي زعامة الشرق العربى •

لقد اصبح للعراق دخل كبير من عوائد النفط (يقرب من مائة مليون جنيه في السنة) ، كما تم الكشف عن المزيد من آبار النفط ، بالاضافة الى ان العراق يملك نهرين مقابل نهر واحد تملكه مصر ، واراضى خصبة واسعة ، ومشاريع للرى يجرى العمل فيها على نطاق

واسع • ولدى العراقيين المزيد من الجبال ، ويسقط الكثير من الامطار فيه • وشعبه ارفع مستوى من شعب مصر من الناحية الصحية والمعاشية، كما ان الخدمات الطبية والمؤسسات التدريبية فيه ، والتي تحظى بالمساعدات الغربية ، اعلى بكثير مما هو موجود منها في مصر • ولقد بدأ سكان العراق ، وعلى عكس سكان مصر ، يتقدمون بسرعة ، ولسوف يتضاعف عددهم في غضون عشرين سنة مقبلة •

ان العملية التي بدأها فيصل الاول في توحيد بلد مؤلف من عناصر مختلفة ، قد قطعت اشواطا بعيدة • فاللغة العربية اصبحت معروفة في كل مكان ، ماعدا بعض القرى الكردية النائية جدا • كما انه لاتوجد في الواقع حركة كردية انفصالية ، وان الاكراد مثلهم في ذلك مثل الاسكوتلنديين في انكلترا ، يحتلون الكثير من المراكز المهمة في البلاد ، واكثر بكثير مما كان يتناسب مع عدد نفوسهم •

ولقد غادر معظم اليهود العراق ، بعد الحرب اسرائيل ، واصبح المسيحيون ممتزجين امتزاجا جيدا بحياة البلاد • ومن الاقليات الاخرى التي امتصتها المكائن والآلات ، هي اقلية «اللر»(٦) الذين اعتاد افرادها القدوم من موطنهم عبر الحدود الفارسية ، للحصول على لقمة العيش من وراء العمل حمالين • كما ان الصابئة ، واليزيدية ، والاقليات الاخرى ، قد تخلوا عن عنعناتهم ولم يعودوا يشعرون بأي اذى يوجه اليهم ، او ان يعاملوا كأقليات • وما خلا مجموعة صيانة صغيرة العدد

---

(٦) يقصد بها الاقلية الفارسية المعروفة باسم «الفيلية» وهم من اللر سكان منطقة لورستان على الحدود الشرقية للعراق وليسوا من الاكراد كما يحاول بعض المتطرفين الاكراد اعتبارهم •

في القاعدة الجوية في «الحبانية» ، فلم تعد توجد في البلاد اية قوات بريطانية •

وعلى هذا اصبحت المهمة التى بدأها فيصل الاول على وشك الانتهاء • فقد أمكن الحفاظ على استقلال البلاد ، وغدت الامة موحدة ، ولم تتغير الصفات الجيدة التى كان العراقيون يتحلون بها قبل عهده • لقد بقي العراقيون كرماء اسخياء على الدوام سواء في ذلك فقيرهم أم غنيهم ، طبقا لوسائلهم • كما ظل العراقيون اصحاب افئدة دافئة كالسابق ، مليئة بالمرح ، وهى تلك الصفة التى لايمكن تحديدها • لكم كان الرحالون الغربيون الذين يقدمون الى بغداد ليمكثوا فيها مدة اسبوع بغية مشاهدة شوارع العاصمة ، وارضها المنبسطة ، وليجربوا حرارة مناخها وغباره ، يصممون على مغادرتها بأسرع وقت ممكن ! ومع كل ذلك فانهم كانوا يمكثون في بغداد عشرة ايام أخر ، بعد ان تكون صفات العراقيين قد اسرتهم •

لقد بقيت هذه الخصائص قائمة ، ولو ان طريقة حياة الشباب غدت مختلفة • ولكى نعطى فكرة مقربة عن مدى التغيير الذى حصل ، نضع هذا الجدول الذى اعد من دون تدقيق ، لانه لايمكن وضعه بشكل مصيب الا عن طريق البحث والاحصاءات ، والذى يعرض ما يلي :ـ

سنة ١٩٢١	سنة ١٩٥٨
الديـــن	
المسلمون المتمسكون بشعائر الدين	اقل ممارسة للشعائر ما خلا شهر رمضان

المواصـــلات

السـفن التــى تتحــرك بالدولاب ، والخيل ، والعــربات التى تجرهــا الخيول ، او السير على الاقدام

سيارات النقل العامــة والسفرات الجويــة الداخليـــة ، وسيارات الاجــرة ، والسيارات الخـــاصة والدراجات والقطار

الاتصالات مع العالم الخارجى وانحاء العراق

نقل الاخبار شفاها بواسطةالمسافرين جريدة واحدة تخضع لرقابةالحكومة

خمسون صحيفة يومية من داخل العـــراق والاقطـــار المجاورة عدد مــن الاذاعات عــن طــريق الراديو والتلفزة ، والصـــحف الامريكية والاوربية

بعض مظاهر المتعة واوقات الفراغ

قسوة عوائد النساء • متع النساء قليلة جـدا ومعظمهـــا بين اليهـــوديات والمسيحيات • الغنــاء والرقص عــلى النمط الشرقى • قيـام الذكور مــن الشبان بدور الفتيـات في الملاهــى العربية • مكافأة الممثلين بالقاء نقــود عليهم اثناء التمثيل

تم تحرير المرأة على نطاق واسع • اخذت دور السينما تعرض الافلام الغربيــة عن الجريمــة والجنس ملاهى نصف اوربية يعمل فيهــا فنانون اوربيون ومصريون وقلــة مــن الراقصات ، انتشار الخمور بين مختلف الاصناف ، واجهــزة الراديــو والحـــاكيات وبعــض الرقصات الغربية •

الطعـــام

الاطعمة المكونة من الحبوب :كالرز، نفس الشىء ، او على وجبات غير

والخبز غير المنقى ، والتمور واللبن. الكباب في البيت او المطعم . «العرق» المصنوع من التمر او العنب	منتظمة في المقهى او المطعم ، او الحانة . انواع المشروبات الروحية
وسائل تناول الطعام	
بالاصابع	السكين والشوكة والملعقة
الملابس	
الملابس الطويلة الضيقة المنسدلة قميص من القطن ، مع لباس رأس عربى او القبعة الواطئة ، والبدلة مصنوعة في الغالب	مقاسات دقيقة للملابس . ملابس اوربية غالية الثمن نسبيا ، تعرية الرأس
التعليم	
قليل جدا وغالبا لا يتجاوز تعليم القرآن وباللغة العربية وحدها	مدارس ثانوية وفنية ، مدرسة للحقوق ، كتب تأريخية مثيرة ، ولغة اجنبية هى الانكليزية عادة
عدد الزوجات	
الى حد اربع زوجات ، يعشن حياة غير متحررة	زوجة واحدة متحررة ، أو بدون زوجة

وهناك تغيير آخر له اهميته ، هو وضوح الفرق بين الاغنياء أو الناجحين ، والفقراء وغير الناجحين نسبيا . ذلك ان السفر بطريق الجو ، والحوانيت الملئى بالمواد من امثال الثلاجات مرتفعة الثمن ، وامتلاك السيارات الامريكية الكبيرة ، وأجهزة التلفزة ، والغسالات ، ووجود الفنادق التى تقدم وجبات طعام وشراب مرتفعة الاثمان ، حتى وان كانت لذائذ الحياة هذه قد تم شراؤها بأسعار عالية ، أجل ان كل

هذه الاشياء يمكن استخدامها لتأكيد الفرق الذى لم يكن ملحوظا في سنة ۱۹۲۰ مثلا بين رجال الاقطاع ، والموظفين ، أو المعلمين من ناحية ، وبين العمال ، وصغار الموظفين أو الضباط ، والكتبة من الناحية الاخرى.

ولقد تغيرت مدينة بغداد ذاتها هي الاخرى تغيرا واسعا . فلقد أصبح عدد سكانها يعادل ثلاثة أضعاف ماكانوا عليه قبلا . وتحولت بسرعة مثل أى من العواصم الاخرى الصغيرة ، فبرزت أبنية وظيفية فارهة في جميع الانحاء ، تقع على مجموعة من الطرق والساحات الحديثة العريضة التى تشق خلالها السيارات الامريكية طريقها الى مجمع الطرق .

وقامت حوانيت جديدة ذات واجهات زجاجية ، ودور كبيرة للسيما في المراكز الرئيسة ، حيث تنطلق أثناء الليل أنغام الموسيقى من مكبرات الصوت وأجهزة المذياع في المقاهى والحانات ، وحيث تنفلت صفوف من الناس من تلك الطرق التى تعرض الحوانيت فيها أجهزة التلفزة التى تبهر أنظار القوم ، وتنصب أصوات المذياع في أسماعهم .

ولقد زالت معظم الاكواخ القديمة ، وحلت مكانها بيوت نموذجية، ولو ان أكواخا جديدة أقامها سكان الارياف المتدفقون على العاصمة ، والذين جاؤوا يبحثون عن العمل لدى المتعهدين الذين بدأوا بتنفيذ المشاريع الكبرى . أما في خارج النطاق الذى كان يعيش فيه أفراد الطبقة الوسطى ، والاسر القديمة ، وضباط الجيش ، والموظفين ، في الضواحى ، فلربما كانت الظاهرة المهيمنة على الحياة في بغداد الحديثة ، هى السرعة التى بدأت ببطء ، وأخذت تظهر في الشوارع ، بدلا من أن تكون داخل المنازل ، عدا ساعات القيلولة ، ونعنى بها كثرة الناس فكأنهم في خارج دوائرهم ومساكنهم اكثر مما هم في داخلها ، بحيث لم تعد هنالك من كلمة عربية يمكن ان تترجم كلمة «منزل» الانكليزية

ترجمة كاملة[٧] .

لقد كان الشباب العراقى في قلقه يتطلع الى وجود حاكم مستبد معين، أى كبش فداء، يستطيع ان يوجه اللوم اليه. في الوقت الذى كانت فيه «مصر» التى أكلتها الغيرة ، تنبىء ذلك الشباب العراقى باستمرار ، بأن الاستبداد يتركز في قلب نظام الحكم القائم ذاته في العراق .

خلال واحدة من فترات الاضطراب السياسى كثيرة الحدوث في

---

(٧) ليأت المؤلف او اى من الذين كتبوا عن العراق الحديث في العهد الملكى ، الى هذا البلد الآن وليشهدوا بأم اعينهم ذلك التغيير الواسع الذى حدث في اوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في عهد حكومة الثورة القائمة وزعامة الرئيس الفذ صدام حسين ، اذن لشاهت ابصارهم ، وذهلت عقولهم مما يرونه من دلائل التطور السريع الشامل . فلقد اصبح جميع سكان العراق سواء في المدن ام فى الارياف يعيشون عيشة مرفهة ، وتوفرت لديهم موارد من الثراء والرفاه لم يكونوا يحلمون بها قبل ثورة السابع عشر من تموز قط ، كل ذلك بفضل الخطة الحكيمة التى اختطتها القيادة الناجحة ، والتى صممت على ان تنفق كل فلس من موارد العراق ، على ترفيه شعب العراق ، ورفع مستواه المادى والحضارى ، بخلاف العديد من الاقطار العربية التى تفوق العراق في ثرائها ، ومع ذلك تعيش شعوبها فى فقر مدقع ، لان حكامها يكتنزون موارد البلاد فى المصارف والشركات الاجنبية التى يسيطر عليها الصهاينة في الدرجة الاولى ، والتى تتحول ارباحها الى اسلحة جديدة بيد اسرائيل كيما تقوم بالاعتداءات المتكررة على العرب .

ومن هنا وجد المستعمرون وعملاؤهم من بعض الحكام العرب وغيرهم ، في العدوان الفارسى الاثيم على العراق منذ اليوم الرابع من شهر ايلول سنة ١٩٨٠ خير وسيلة لايقاف عجلة التقدم والنهوض في العراق الجديد .

بغداد ، وعندما أخذ نظام الحكم القائم يقترب من نهايته ، سئل رئيس الديوان الملكي « تحسين قدري » عن الحالة ، وبعد ان اضاف الى تعليقاته حسرة راح يقول « لو ان شعب هذه البلاد استطاع ان يغفو مدة عشر سنوات ومن ثم يستيقظ ! » • لقد كان تحسين قدري يقصد بهذا ان ساسة المعارضة ، وانتقادات الشباب ، لم تترك للحكومة يوما واحدا يكفي لاجراء تقدم سريع لا يعتوره التوقف •

لقد كانت الحكومة على الدوام عرضة للهجوم • فقد يعمد صحفي شاب غير متدرب ممن يوجد من امثاله الكثيرون ، الى الانتقاد بلغة عنيفة ، ثم يتجاهل الحقائق كأعمال الحكومة ، والمشاريع التي كان يقوم بها مجلس الاعمار مثلا •

× × ×

عند انتهاء الحرب العالمية الثانية قال عبدالاله «انه لابد من ايجاد وسيلة لتجنب نقص الاستمرار في العمل ، والناجم عن تغيير الحكومات بشكل ثابت» • ونتيجة لذلك بدأ نوري السعيد يفكر في الوسائل التي توطد منهاج الاستثمار العام في العراق ، تحت ادارة مجلس يتمتع باستقلال ذاتي ، أو شبه استقلال ذاتي ، وذلك منذ سنة ١٩٤٧ ، عندما أقدم على اجراء أول اتصال مع المصرف الدولي للانماء والتعمير • فلقد تم وضع لائحة قانون لهذا المجلس في بغداد قبل وصول اول بعثة من المصرف في سنة ١٩٤٩ • ولقد تمت المصادقة على القانون النهائي ،وبدأ مجلس الاعمار أولى بداياته في شهر أيار سنة ١٩٥٠ تحت رئاسة نوري السعيد نفسه • فهو باعتباره رئيسا للوزراء ، غدا رئيسا للمجلس أيضا ، وعين له سكرتير عام بريطاني ، ذو خبرة مالية سبق له ان عمل في السودان •

كان مجلس الاعمار يتلقى سبعين في المائة من عوائد النفط ، ويكون وزير المالية واحدا من أعضائه • ولقد قامت بعثة التحرى العامة للمصرف الدولى التى زارت العراق في سنة ١٩٥١ ، بطرح مقترحات لتحسين امكانيات المجلس ، وأعضائه ، وجوهر المنهاج الاعمارى المعد له • غير ان مفهوم المجلس ، وصيغته الاستقلالية الذاتية ، واستخدام الخبراء الاجانب فيه ، وتخصيص سبعين في المائة من عائدات النفط له ، كل هذه كانت من نتائج مبادرة عبدالاله ، وتأثير نورى السعيد ومسؤوليته •

في سنة ١٩٥٣ تم الغاء منصب السكرتير العام لمجلس الاعمار ، وانشئت بدلا عن ذلك «وزارة الاعمار» • وطبقا لما ذكره «اللورد بوددود» في كتابه «نورى السعيد»(٨) ، «كان مستطاعا تغيير وجه العراق في وقت محدود» • فلقد كان هذا المشروع يفوق أى مشروع آخر يمكن ان يقارن به في الشرق كله • ولقد تم تنفيذ الكثير منه ، ولكن أوقف العمل به بعد ثمانى سنوات ، لان الثورة قد أقدمت على تقليص الاموال التى خصصت له قبلا ، وجرى تحويلها لاغراض أخرى •

في شهر آذار سنة ١٩٥٧ أقيم اسبوع الاعمار الكبير الذى افتتحه فيصل الثانى في بغداد ،وحدد اليوم الثانى منه لافتتاح مشاريع الاسكان• لقد بدأ العراق بتنفيذ خطة لبناء خمسة وعشرين ألف دار للسكن حتى سنة ١٩٦٠ ، وأربعمائة ألف دار أخرى ، خلال الخمس والعشرين سنة المقبلة • وافتتح عبدالاله محطة جديدة للكهرباء ، وهى واحدة من

---

(٨) صدر هذا الكتاب في لندن بعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ وهو يضم صفحات واسعة عن تكوين العراق الحديث منذ الاحتلال البريطانى له خلال الحرب العالمية الاولى حتى قيام الثورة وركز فيه المؤلف على مشروعات الاعمار في الدرجة الاولى •

جملة مشروعات أخرى كانت تكلف خمسة وعشرين مليون دينـار •
وكان المشهد الطاغي هو اندفاع فيصـل وعبدالاله عبر مركز بغـداد في اليوم الاول من أسبوع الاعمار لافتتاح الجسر الجديد في الباب الجنوبي فهذا الجسر الذي يبلغ طوله ألفا وخمسمائة قدم قد كلف بناؤه مليونا ونصف مليون من الدنانير •

ولقد شاهد أكثر من ربع مليون من الناس ، فيصل الثاني وهو يفتتح الاحتفال حيث برزت المشاهد الكثيرة للحماسة المتناهية • كذلك فتح فيصل جسرا ثانيا في الضاحيـة الشمالية ، وهـو الجسر الخامس الذي يتم انشاؤه في بغداد •

ففي أيام مثل هذه الايام التي تغمرها الافراح ، لم يكن هنالك سوى قلة من الناس الذين يتذكرون الاسطورة القائلة بأن بغداد سوف تنهار اذا ما قامت فيها خمسة جسور ![٩] •

وكان فيصل متحمسا هو الآخر • ففي اليـوم الثامن من شـهر نيسان من تلك السنة كتب رسالة الى السيد «مالان» الذي علمه اللغة الانكليزية في مدرسة «هارو» يقول له فيها « كانت لدينا مؤخرا ايام

---

(٩) تعزى هذه الاسطورة الى العصر العباسي وظلـت متداولـة عبـر العصور حتى الى وقت غير بعيد لدى سكان بغداد • ويقال بشأن هذه الاسطورة ان المغول اجتـاحوا بغـداد واستباحوها في الوقت الذي اصبحت تقوم فيه خمسة جسور من القوارب الخشبية على نهر دجلة •

وحين قامت ثورة الرابع عشـر من تموز ١٩٥٨ ، لفت بعض الاشخاص المؤمنين بالغيبيات انظار الناس الى تفسير «ابن كثير» الذي ورد فيه وصف قيل انه ينطبق على وصف بغداد في تلك الايام ، الى ماسوى ذلك من الخزعبلات والاوهام •

مليئة بالعمل ، انه الاسبوع الثانى للاعمار • كان الاول في بغداد لافتتاح جسرين ، والاحتفال بتدشين مشروع اسكان يضم حوالى ستة آلاف دار سكنية في بغداد وحدها ، ووضع حجر الاساس لانشاء متحف جديد».

« ومن ثم سنتوجه الى الشمال ، الى الموصل لنضع حجر الاساس لبناء معمل حديث للسكر ، وافتتاح معمل للنسيج • وفي اليوم التالى سنتوجه الى السليمانية لافتتاح معمل حديث للسمنت ، ووضع حجر الاساس لانفع سد هو «سد دوكان» الذى يقوم على نهر الزاب الصغير ، احد روافد نهر دجلة • أرفق طيا كراسين نشرتهما الحكومة حديثا ، احدهما يعطى كل المعلومات عن المشاريع ، وعما ينبغى عمله في المستقبل ، مع خلاصة عامة لوضع القطر • أما الكراس الثانى ، واظن ان «السيدة مالان» سوف تهتم اهتماما خاصا به ، فانه يحتوى على تاريخ ابداعى ثقافي للعراق أعدته مديرية الآثار العامة » •

كذلك كتب فيصل الى الطبيب «ريموند دكسون فرث» رسالة في الخامس عشر من ايار تلك السنة ، اعتذر فيها عن تأخير الاجابة عن رسالته التى تحدث فيها عن هدية الخطوبة المقترحة له • وقد قال فيصل في رسالته تلك « اننا منشغلون نوعا ما هذهالايام باسبوع الاعمار، وبأشياء أخرى مختلفة ومهمة ••••• ان الترتيبات الخاصة بالاتحاد على وشك أن تتم ، وذلك بفضل العمل المتواصل الذى دأب عليه من يعنيهم الامر »[١٠] •

---

(١٠) كان التفكير في توحيد الاردن مع العراق قد بدأ بصفة جدية بعد فشل ثورة ايار ١٩٤١ • وكان عبدالله ملك الاردن من المتحمسين لهذا المشروع • وما لبث نورى السعيد وعبدالاله ان جددوا مساعيهما لتوحيد القطرين بعد ان فشل العدوان الثلاثى على مصر ، وتعاظمت شهرة جمال عبدالناصر في العالم كله ، بعد ان

كانت المشاريع التى تم افتتاحها أو تدشينها خلال اسبوع الاعمار تؤلف جزءا من مشروع الخمسمائة مليون دينار الذى سيتم انفاقه حتى سنة ١٩٦٠ ، ويشتمل على اعادة الرى لمناطق واسعة من الاراضى الخصبة التى بقيت مهملة من دون ان تستغل منذ الغزو المغولى قبل سبعمائة سنة خلت • وفي شهر نيسان افتتح نورى السعيد مركز البحث والتدريب النووى ، تحت اشراف خبير تم ارساله من «هارول» • فما عدا مشاريع الرى والاسكان ، قدمت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، مساعدات تقنية للعراق • وقد تم استخدام عدد كبير من التقنيين الاجانب • وبوجود عدد من المستخدمين والمتعهدين الاجانب ، وشركات النفط ، ارتفع المجموع العام لعدد الاوربيين في العراق الى آلاف كثيرة ، وأخذ يرتفع باستمرار الوقت •

غير ان المساعدة الاقتصادية والتقنية ، لم تحظ بالدعم السياسى المهم للتماسك وللعضوية الكاملة في حلف بغداد ، من جانب الولايات المتحدة الامريكية[١١] • وفضلا عن ذلك فان بعض ممثلى أمريكا ، من الارلنديين الامريكيين الذين كانت توجد نسبة عالية منهم في الشرق ، قد أخذوا من وقت لآخر ، يتجاوزون حدود الحكمة في الدفاع عن

كان المستعمرون وعملاؤهم يتوقعون سقوطه في اعقاب ذلك العدوان، ولكن الاتحاد جاء بعد ان اتحدت سوريا مع مصر في اوائل سنة ١٩٥٨ •

(١١) لقد تظاهرت امريكا بالعدول عن العضوية الكاملة في حلف بغداد لكي لا تثير مخاوف بريطانيا التى تزعمت ذلك الحلف ، فضلا عن ان السعودية واسرائيل ، كانتا في خوف من حلف بغداد الانكليزى • فقد كان المؤمل ان تتزعم المملكة السعودية هذا الحلف بدلا من العراق الاداة الصالحة آنذاك بيد بريطانيا • انظر كتاب الوزير البريطانى انطونى ناتنغ المعنون «لقد علمته بنفسى» •

تغيير بريطانيا حليفة العراق ، والتنديد بها ، وتناسى الخطر الشامل على قضيتهم الخاصة •

ما ان بلغ نورى السعيد السبعين من عمره حتى بدت عليه دلائل ظاهرة على كبر السن ، ولذلك كان يعمد الى زيارة الاطباء في لندن دائما وجد هناك • لقد تزايد صممه الطفيف • ومع ذلك كان يلاحظ عليه انه عندما يريد ان يسمع حقا ، يكون أقل صمما من أية أوقات أخرى • غير ان دماغه كان مازال محشوا بالاحلام الرفيعة • لقد حقق الاتحاد بين الاردن والعراق ، وأصبح هو نفسه رئيس وزراء الاتحاد • لقد كان فيصل الاول يأمل أن تتشابك الايدى في كل من سوريا والعراق ، فلربما يتحقق الاتحاد بينهما في يوم من الايام •

كان نورى السعيد يرعى الملك الشاب رعاية ابوية ، بعد ان أخذ يكبر ، ولو انه كانت تحدث لحظات كان نورى يرغب خلالها ان يزيد من اهتمامه بالجيش • ولا بد ان يكون عقله قد عاد الى الايام التى شهدها جد الفتى ، فيصل الاول ، والذى كان فيصل الثانى يشبهه أكثر من شبهه بأبيه «غازى» ، فضلا عن ذكريات جده الاكبر الحسين بن علي أمير «مكة» • وفي بعض الاحيان كان نورى السعيد يحلق عائدا بفكره الى أيامه الاولى في تركيا ، و «جمعية العهد» السرية، والثورة العربية ، والجنرال «اللنبى» ، ولورنس ، ودخوله الى دمشق راكبا على رأس القوات العربية في اليوم الاول من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، وكذلك راح يتذكر الرجال العظام الذين التقى بهم في «مؤتمر فرساى» بعد الحرب العالمية الاولى •

لقد كان يجلس على أريكة واحدة مع اللورد «غراى» ، وينصت الى اللورد «كرزن» ، ويصافح لويد جورج ، والرئيس ولسون •

كما أنه شهد حكومات ، ورجالا أقوياء ، يأتون ويمضـون ، في حين انه نفسه طار من العراق وعاد اليه ثلاث مرات بعد اتصاله مع مصطفى النحاس الذى لعب دورا بارزا في تأسيس « الجامعـة العربية » ، وعاش كـل المؤامرات الكثيرة التى دبرت ضده .

ومنذ الحرب العالمية الثانيـة حدث الانقسام في القوة العالميـة ، وظهرت قوى جديدة عظيمة لم يفهمها أحد في بغداد فهمـا كامـلا ، سواء ، وفئة ضئيلة جدا من الناس . ومن التيارات الجديدة هبت أعاصير شديدة الخطر على العراق ، وعلى البلدان الاخرى التى كانت تقـع في مجرى ذلك التيار .

× × ×

كان فيصل الثانى عند بلوغه السنة الثالثة والعشرين من عمره قد تغير ـ مثلما يتفق على ذلك كل من عرفه ـ وتطور تطـورا مدهشـا جدا خلال السنتين الاخيرتين . فقد كانت أسئلته ، وتفكيره ، وقراراته أو نصيحته عند الاجابـة على الاسئلة ، موضوعات لتعليقات مسـرة . ذلك ان جميع الذين كانوا من حوله ، قد توقعوا له مستقبلا رائعـا . وكان نورى السعيد قد انشغل جدا بالسياسة العليا ، والسياسات المحلية ، عن اسداء النصيحة الى فيصل الثانى ، والتى كان يعتبرها من امتيازات عبدالاله طالما هو موجود في بغداد .

أصبح تحسين قدرى رئيس الديوان الملكى ، يميل هـو الآخر مثل نورى السعيد وبصفة مفهومة ، الى التقاعد عن العمل بعد تلـك الخدمة المتواصلة في البلاط منذ وصوله مع فيصل الاول سنة ١٩٢١ ، وكان يعتبر نفسه نصف متقاعد حقا . وما خلا عبدالاله فلم يكن مع فيصل الثـانى من الرجال المجربين المبـدعين الذين يمعنون النظـر ، ويقترحون المغامرات الملوكية ، أو يصرون في مقترحاتهم على أن يقـوم

الملك بزيارات للجيش ، وللاماكن المحترمة في الاسواق ، وساحات الالعاب ، والمؤسسات التقنية ، أو المقصورة الملكية في البرلمان . فمثل هذه الآراء اذا مافكر فيها بعض رجال البلاط فسرعان مايكون نصيبها الرفض ، على أساس ان من المخطر جدا عرضها .... فكأن بعض الامور كانت تسير سيرا خاطئا ... وانه في خلال سنة أو سنتين سوف يمسك الملك ، بكل تأكيد ، بهذه الامور ، وبالهزات المخالفة لها.

ولقد لاحظ المقربون من عبدالاله بأنه أخذ يقلل من اهتمامه السابق وذلك خلال السنة أو السنتين الاخيرتين . فكان يقوم برحلات خلوية أكثر مشقة من السابق . وأضحى يدرك المؤامرات التى كانت تحاك ضد العرش . وربما نتيجة لذلك ، بدت عليه الدلائل في تعاظم تهكمه ، وضعف التسامح والتجاوب في معاملته مع الذين كانوا يحيطون به ، وشدة الضجر من الزوار الذين يفدون لزيارة القطر ، ومن أخاديع الساسة أيضا .

في مستطاع المرء أن يختار احدى البواخر بربانها وملاحيها للقيام برحلة ما . بل انه ليسمح حتى للنساء المؤمنات بالخرافات بأن يخترن اليوم الذى تبحر الباخرة فيه . ولكن اذا ماهبت عاصفة عاتية فما الذى سوف يحدث عندئذ ؟.. انه ولا شك ضرب من الهلاك العنيف يطويه بقبضته !..

في شهر أيار تم اكتشاف مؤامرة أعدها ضباط عسكريون مصريون للقضاء على عرشى العراق والاردن معا في وقت واحد . فأما اللجنة المصرية المؤلفة من الضباط الذين عهد اليهم أمر القيام بتلك المؤامرة ، فقد وجدت ان من أول واجباتها ، وأكثرها أهمية هو توطيد العلاقات بين الحزب الشيوعى وحزب البعث العربى الاشتراكى (١٢) وقد حظيت هذه

---

(١٢) ان هذا الزعم مردود اطلاقا فلم يثبت وجود لجنة مصرية شاركت =

الخطة بمباركة الاتحاد السوفياتي[١٣] .

ولكن حتى بعد أن تعرض المصريون للطعنات ، وطردوا ، ظلوا يواصلون العمل لتنفيذ مخططاتهم تلك .

كانت هناك مؤامرتان في العراق للفتك بفيصل ، ونوري السعيد ، وعبدالاله ، لكن أيا منهما لم يتم تنفيذه . فقد الغيت المؤامرة الاولى التي كان مقررا لها ان تتم في محطة ضخ النفط (ك٣)[١٤] لان نوري السعيد لم يذهب الى هناك مع الفريق الملكي حسبما كان ذلك متوقعا . اما المؤامرة الثانية فلم تكن فعالة في هدفها الاول ، اذ لم يقتل فيها سوى بستاني ، نتيجة انفجار قنبلة موقوتة في غطاء سيارة كانت تقف عند باب القصر . فلم يخرج الفريق الملكي ، ولا نوري السعيد في اللحظة التي كانت معلنة ومتوقعة . ولم يسمح بعد وقوع هذا الحادث بوقوف اي سيارة داخل أبواب القصر ، وكانت الشكوك تحوم حول

= في تكوين «جبهة الاتحاد الوطني» التي تألفت من الحزب الوطني الدمقراطي ، وحزب الاستقلال ، وحزب البعث العربي الاشتراكي ، والحزب الشيوعي العراقي ، والحزب الدمقراطي الكردي في سنة ١٩٥٧ واصدرت بيانها السري الاول الى الشعب العراقي في اليوم التاسع من شهر اذار سنة ١٩٥٧ ، والذي شرحت فيه اسباب قيام الجبهة واهدافها التي تلخصت في تنحية نوري السعيد وحل المجلس النيابي ، والخروج من حلف بغداد ، ومقاومة التدخل الاستعماري ، واطلاق الحريات الدمقراطية ، والغاء الادارة العرفية واطلاق سراح السجناء السياسيين .

(١٣) حاشية للمؤلف « من تقرير من مدينة عمان نشرته صحيفة التايمس اللندنية في الثالث عشر من ايار ١٩٥٧ » .

(١٤) تقع محطة الضخ هذه قرب مدينة «حديثة» على نهر الفرات وقد رمز اليها بالحرف «ك٣» للدلالة على انها المحطة الثالثة ، بعد محطتي كركوك ، وبيجي ، اذ ان الحرف (ك) يشير الى كركوك .

أية سيارة تكون قريبة من هناك[١٥] .

ولقد نبه عبدالاله بشدة ، أمه التى حدث ان اطلت من احدى النوافذ لترى سيارة جديدة من طراز «بنتلي» لا تحمل رقم القصر ، والتى اوقفها هو امام البوابة .

وعلى الرغم من قلقه من الحالة السياسية في الشرق الاوسط ، واضطراب الحالة الاجتماعية في العراق ، نتيجة الهجمات المصرية في الصحافة والاذاعة ، وحبك المؤامرات ، فقد حافظ عبدالاله على مرحه القديم الممتاز . فما ان عاد الى لندن ، بعد رجوعه من الولايات المتحدة الامريكية في شهر شباط سنة ١٩٥٨ ، حتى دبر لي ، كما أظن ذلك ، واحدا من أحد مقالبه ! فلقد التقى حال وصوله بصديق لنا نحن الاثنين ، والذى ذكر لى بأنه سوف يزورنى عند المساء . لقد كنت أعتزم بكل طريقة ان أسأله ان يفعل ذاك ، متى ماوصل صديقنا في الوقت المحدد . غير انه لم يدع صديقنا المشترك ان يخبرنى بذلك، حيث قال لى ذلك الصديق بأن عبدالاله سوف يأتى من دون دعوة لكى يفاجئنى بذلك . ولقد كانت تلك مفاجأة حقا ، حيث تظاهرت بالفرح المدهش عندما دخل .

عند وصول عبدالاله الى لندن في شهر كانون الثانى ١٩٥٨ ، وهو في طريقه الى أمريكا ، تناول طعام الغداء مع رئيس الوزارة

---

(١٥) لم يرد ذكر لهاتين المؤامرتين قط فيما نشر حتى الآن عن ثورة الرابع عشر من تموز ولا سيما رسالة السيد ليث عبدالحسن الزبيدى المعنونة (ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق) التى ذكر فيها جميع المحاولات التى سبقت قيام الثورة ، والتى بلغت سبع محاولات . كما لم يشر اليها حسين الحبيب في كتيبه عن ثورة تموز الذى صدر سنة ١٩٨١ .

البريطانية قبل أن يستقل الطائرة الانكليزية التى كانت مراوحها تدور استعدادا للتحليق • لقد توقفت الطائرة عن الحركة ، ومكثت في دائرة المدرج ساعة ونصف الساعة • ولقد تحدث عبدالاله عن ذلك فقال « انه ضرب من المضايقة والازعاج • والذى اعتقده ان معظم المسافرين قد شاهدوا المزيد من منطقة «ستنز رزفوار» لكي يطيل النظر الى هذه المناطق من أمد حياتهم • فقد كنا في كل وقت ندور فيه حول الدائرة يتوفر لدينا مشهد حسن لقلعة «وندسور» كان يعوضنا عن الاشياء الاخرى » •

غير ان تلك لم تكن نهاية المتاعب • ففى المحاولة الثالثة بدأوا بداية حسنة ، ولربما ظن المؤمنون بالخرافات ، ان ذلك كان نذير شؤم •

والواقع ان أواخر الربيع وبداية الصيف ، كانت تمثل هدوءا غير معتاد في السياسة العراقية • ولقد شك بعض العراقيين أنفسهم في أمر ذلك الهدوء • ففي شهر حزيران أثير الاضطراب المتعمد في لبنان • وكان اولئك الذين تنبأوا عن علم بأمر انتشار ذلك الاضطراب ، قد اصبحوا أنفسهم هم «النار التى اكتسحت القفار» ، كما كتبت بهذا الى أصدقاء برلمانيين في ذلك الوقت • وفي بداية شهر تموز تحققت تلك التنبؤات بنوعية ما • فقد كانت تطبخ مؤامرة في الاردن هذه المرة ، حيث تم اعتقال اثنى عشر ضابطا في الجيش بتهمة الخيانة ، ثم اتخذت الخطوات الاخرى لاحباط المؤامرة •• ولقد قام حسين ملك الاردن بابلاغ ابن عمه في بغداد بالامر • وفي الوقت الذى حذره فيه ، طلب منه معونة عسكرية قوية ، وتم ارسال القوات العسكرية بأسرع وقت مستطاع •

لم تعد أكثرية الجماهير في العالم العربي ، مجرد فئات قومية ساذجة وصريحة • فقد تحولت بعد أن ساء تنظيمها ، واحبط عزمها في

التأثير على الغرب الى الصفة الاعتدائيـة ، وتشـجعت الآن على المبادرة بالعمل • كانت رقصة الجنون تسرع في الحركـة • وكانت دورات الرقصة ، التى تشبه رقصة «الباليه» ، وتوجـه الاهتمام الى ذاتهـا ، قد تغيرت الى شيء ما اكثر شراً • كانت هناك أعصاب معقدة تعمـل بكل عزيمتها ، وأخذت تضغط على الخنجر الذى كانت تمسك به في يدها •

ومع ذلك فهناك أمور أخـرى غير السياسـة • ذلـك ان فيصـل الثانى ، الذى أصبح هاويا لا يبارى لاعمال الفن ، لم يكن قد اقدم من قبل على شراء مثل هذه المشتريات في لندن • حتى اذا ماوصل مؤخرا تمثال صغير لا يزيد طوله عن قدم واحد ، مـن صنع المثـال الشـهير «رودان» ، أقبل على شرائه بسعر مساوم وذلك في نهايـة شهر آذار ، وقد سر بذلك سرورا كبيرا •

كان ذلك التمثال عبارة عن جذع فتى ، لا أيدى ولا أقدام له ، وحالما اخرج ذلـك التمثال من صندوقه ، وضعـه فيصـل على منضدة التلفزيون ، زيادة في الاعجاب به •

وما ان فعل ذلك ، واخذ هو وصديقه طبيب العائلة ، والذى كان يشجعه ويساعده على شراء «الاشياء الفنية» ، يثنيان بحماسة بالغة على ذلك النمثال ، حتى دخل عبدالاله الغرفة ، وقال متسائلا :

ـ ما هذا ؟

ـ انه «رودان» •

ـ ومن هو «رودان» هذا ؟

ـ انه نحات عظيم • الم تتأكد من ذلك ؟

ـ اظنه مثير ! • انني لن استطيع النظر الى التلفزيون ما دام هذا الشيء المرعب هناك ، ومن ثم استدار عبدالاله وخرج وهو غير راض •

كان فيصل وعبدالاله منشغلين بالترتيبات اللازمة لزواج فيصل في شهر تشرين الاول المقبل ، من الآنسة «فاضلة» ابنـة الامير «محمدعلي ابراهيم» • وكانت «فاضلة» ، وهي فتاة جميلة جدا ، موجودة في انكلترا آنذاك تعمل على تحسين لغتها الانكليزية ، وستمكث هناك الى ان تلتقي بخطيبها في الموعد الذي حدد لذلك ، وهو نهايـة شهر تموز ، وقبـل الزواج الذي سيتم في اوائل الخريف • كانت هنالك لقاءات متواصلـة بهذا الشأن بين العائلة المالكة ورئيس الديوان ، وكتبت رسائـل دعوة كثيرة ، ومع ذلك بقي الشيء الكثير الذي ينبغي عمله •

كان الامير زيد سـفير العـــراق في لنـدن ، يمضـي بعض أيـام الصيف في العـراق نيابـة عن عبدالالـه خـلال تغيبـه عـن العـراق • ولكـن تقـرر في سـنة ١٩٥٨ ان يبقـى عبدالالـه في العـراق وصيا عـن فيصـل اثنـاء غيـابه في تركيـا واوربـا • وكـان عبـدالالـه يشعر بأن السمنة قد اخذت تظهر عليـه ، وانه كان يعتزم ان يمضي أطول وقت مستطاع في قصر صغير في كردستان ، لان الجو هناك أكثر هدوءا وبرودة من بغداد • ولذلـك كان على الدوام سريـع الانفعـال ، والتوتر العصبي الحاد ، بحيث غدت هذه الصفات فيه مؤخرا ، ظاهرة لدى الاطباء أكثر من المعتاد • حدث هذا في الوقت الذي سافر فيه الامير زيد ، وزوجته ، وولده «رعد» الى جزيرة «إسشيا» الايطالية لتمضيـة الصيف فيها[١٦] •

---

(١٦) عدل عبدالاله عن فكرة البقاء ببغداد ، وكان منتظرا وصول الامير زيد للحلول محله •

كان التأريخ الذى اختير لمغادرة فيصل بغداد على متن احدى الطائرات لحضور اجتماع حلف بغداد ، وكذلك اجتماع رؤساء دول الحلف في تركيا ، هو اليوم التاسع من شهر تموز • غير ان هذا التأريخ قد تم تأجيله الى اليوم الرابع عشر منه ، نتيجة للنصيحة التى أبداها نورى السعيد ، وبسبب التأخير الذى حدث في اعداد الاجراءات المطلوبة لانشاء «مجلس الاتحاد الاعلى» ، والصيغ المتطلبة لتغيير صفة الجيش الاردنى ، وكلاهما من الامور الناجمة عن قيام الاتحاد العربى الجديد• وفي نفس اليوم ، أى الرابع عشر من تموز ، صدرت الاوامر بتحرك القوات العراقية التى كانت تشتمل على لواء آلي • فقد كان على هذه القوات ان تمر خلال بغداد وهى في طريقها الى الاردن ، بناء على الطلب الذى وجهته الاردن بذلك ، وحسب الترتيب الذى اتخذ للدفاع المشترك عن البلدين •

وما خلا المؤامرات التى اكتشفت ، فقد أخذ الاضطراب المتنامى يشعر به عدد من الساسة المجربين ، من بينهم «على جودت الايوبى» ، والذين راحوا يعلنون عن قلقهم لكل من فيصل وعبدالاله ونورى السعيد خلال الشهور الماضية •

وفضلا عن ذلك فان هجمات اذاعة عبدالناصر على العراق لم تتوقف ، كما ان نشاط عملائه في العراق ، والاضطرابات الناشبة في لبنان وفي الاردن ، كان لها تأثيرها الفعال ، بحيث اصبح أى منها يعتبر شديد الخطورة • ولقد تأثر افراد الشعب انفسهم تأثرا بالغا • ذلك لان سقوط لبنان ، سوف يعزل العراق عن البحر الابيض المتوسط ، ويؤدى الى سقوط الحكم القائم في العراق ذاته •

أخذ نورى السعيد يعلن بشكل ثابت ، ولاول مرة ، عن قلقه من

هذه الدلائل التي ظهرت في كل من الولايات المتحدة الامريكية ، وفي لندن خلال شهر حزيران المنصرم ، عندما قدم نصيحته بانزال القوات الامريكية في كل من لبنان والاردن بأسرع وقت مستطاع . كما انه راح يرحب ، وللمرة الاولى أيضا ، بالادلاء ببيان مفصل عن هذا الموضوع الى الصحافة البريطانية .

لقد اصبح نوري السعيد رئيسا لوزارة الاتحاد العربي ، فلا بد اذن ان يكون سعيدا . لكنه ما ان غادر لندن حتى غدا حزنه ظاهرا . لم أكن قد عرفت نوري السعيد ابدا يائسا الى مثل تلك الدرجة التي وجدته عليها في آخر صباح أمضيته معه .

ففي تركيا كان قد التقى مع عبدالاله الذي أراد ، بل اقترح عليه عدم العودة الى بغداد ، لكنهما مالبثا ان عادا الى هناك سوية ، ومن ثم . نوري يستعد لعودته المبكرة الى تركيا مع فيصل لحضور اجتماع رؤساء حكومات حلف بغداد .

اخبرني احد ضباط الشرطة المتقاعدين ممن نالوا ثقة نوري السعيد، بأنه قد تحدث اليه عند وصوله الى بغداد عن الاضطراب الخطير المتعاظم بين ضباط الجيش ، وان اللواء عبدالكريم قاسم مشترك في ذلك الاضطراب . كان عبدالكريم قاسم معروفا لدى نوري السعيد بأنه «رجل عبوس» . وقد سبق لنوري السعيد ان حذره ذات مرة بأنه عضو في كتلة من الضباط تم تحطيمها باجراء تنقلات واحالات على التقاعد بين اعضائها. ومع كل ذلك فان نوري السعيد لم يكن يميل الى اعتبار التحذير الذي فاه به مدير الشرطة المتقاعد ، أمرا يتطلب العمل ، قبل ان يغادر خلال ساعات قلائل الى تركيا ، ومغادرة عبدالكريم قاسم نفسه الى الاردن، ولذلك كانت مثل تلك الانباء تكذب في الغالب .

تذكر احدى الحكايات ان عبدالكريم قاسم ، طلب في احدى المقاهي التى اعتاد الجلوس فيها قدحا واحدا من القهوة . ولذلك قال صاحب ذلك المقهى بصوت عال لدى سماعه نبأ تحرك عبدالكريم قاسم من الارن « حمداً لله فان ذلك الرجل لن يجلس هنا في المستقبل ! » . والحقيقة ان ذلك القهواتى كان مصيبا فيما قاله ، لان عبدالكريم قاسم سوف يجلس على كرسى رئيس الوزراء !.

لم يكن من المعتاد في الغالب ان يسمح لمسيرة تقوم بها القوات المسلحة عبر بغداد ، ولم يكن يسمح لمثل هذه القوات ان تحمل الذخيرة معها . وفي اليوم الثالث عشر من تموز سئل احد كبار ضباط الاركان عما اذا كانت القوات التى ستمر عبر بغداد تحمل ذخيرة لاسلحتها ؟. ولقد أجاب على ذلك السؤال ، بأن مثل هذا الامر مخالف للاوامر القائمة ، ولتعليمات الحكومة . وحين تم التأكيد على الاسس التى تقول بأن من الافضل لهذه القوات أن تحمل معها اسلحتها من بداية مسيرتها بدلا من ان تسحبها اثناء الطريق . قال ذلك الضابط بأن احدا لايستطيع ان يأذن بمثل ذلك سوى رئيس الوزراء .

ولقد اشيع مؤخرا بأن نورى السعيد كان قد وافق على ذلك . لكنه لم يكن في الواقع قد اعطى تلك الموافقة ، وانما كانت الذخيرة القليلة التى حملها الجيش ـ وهى حوالى خمس اطلاقات لكل نفر ـ قد اخذت من اماكن اخرى في بغداد ، مثل مستودع الشرطة الآلية في «كرادة مريم» ، و «مدرسة تدريب الخيالة» ، وذلك خلافا للاوامر ، ومن دون معرفة نورى السعيد أو القصر بها . لقد وزعت تلك الذخيرة على الضباط وافراد الجيش لغرض تخفيف الشكوك بين اولئك الذين لم يشتركوا في الثورة ، وان تلك الاسلحة سوف تستخدم في التدرب على

القتال من بيت الى بيت خارج بغداد •

كان من أهم الخطوات التى اتخذها الاشخاص الذين اشتركوا في الثورة ، انه تم أثناء الليل اطلاق سراح الشيوعيين المسجونين في سجن «بعقوبة» ، على بعد مسيرة ساعة واحدة بالسيارة عن بغداد[١٧] والاتيان بهم الى بغداد • وقد عين من بينهم قادة لمجموعات وسلمت اليهم تعليمات مكتوبة ، مع شعارات واعلام لغرض استخدامها عند الفجر لاثارة الدهماء وتوجيههم •

لقد ذكر ان «جميل عبدالوهاب» وزير المواصلات في الحكومة[١٨]، كان قد انبأ عبدالاله في ليلة الثالث عشر من تموز ، بأنه متأكد من وجود مؤامرة ثورية ، وان اعضاء من الجيش المنتشرين في كل مكان، موجودون في بغداد ، وانهم يتصرفون بطريقة سرية وخفية • وقيل ان عبدالاله رد على ذلك بقوله ان تحرك القوات المسلحة نحو الاردن قد حصل بعلمه هو ، لكن جميل عبدالوهاب أصر ، مع ذلك ، على تأكيده بوجود سبب يدعو الى التحذير والى العمل •

---

(١٧) سبق لطبيب العائلة الملكية في العراق «هارى سندرسن» ان ذكر في مذكراته مثل هذه الاقوال عن اطلاق سراح السجناء الشيوعيين في سجن بعقوبة وجلبهم مع القوات المتقدمة الى بغداد في ليلة الرابع عشر من تموز • ومع ذلك فان ايا من الذين كتبوا عن الثورة لم يتطرقوا الى هذه القضية • والمعتقد ان اطلاق الشيوعيين السجناء في بعقوبة قد تم بعد ان اذيع البيان الاول للثورة في صبيحة اليوم الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ •

(١٨) لم يكن جميل عبدالوهاب وزيرا للمواصلات بل كان وزيرا للعدل في الوزارة التى رأسها احمد مختار بابان والتى تألفت في اليوم التاسع عشر من ايار ١٩٥٨ وهو نفس اليوم الذى اعلنت وزارة الاتحاد العربى بين العراق والاردن برئاسة نورى السعيد •

ولربما شعر عبدالاله بوجود شيء ما فيما نقله اليه جميل عبدالوهاب • فقد قيل عنه بأنه تحدث الى «جسام محمد» قائد الطائرة الخاصة للملك ، وطلب اليه ان يعمد الى تحليق الطائرات قدما خلال ساعة واحدة • غير ان «جسام محمد» الذى عينته حكومة عبدالكريم قاسم بشكل مستغرب في اليوم التالى للثورة مديرا عاما للطيران المدنى ، رد على عبدالاله بأن الوقت جد متأخر لكى ينذر ملاحى الطائرات بضرورة القيام ببداية تحليق مبكرة •

وبعد تحر آخر تأكد جميل عبدالوهاب من وقوع الثورة ، ولذلك اختفى في أحد الفنادق ، وبعد مضي وقت متأخر تنكر بمساعدة أحد الخدم ، وتوجه باحدى السيارات الى بلدة «علي الغربي» ، وهو أقرب مكان الى الحدود الفارسية ، على الطريق الممتد الى الجنوب ، ومن هناك سار عبر الحدود وغادر العراق من دون ان يتعرض للاذى •

أما في القصر الملكى ، وحيث مازالت الحرارة شديدة في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم الثالث عشر من تموز ، فقد كانت هناك الاعيب يقوم بها ساحر باكستانى ، لخمسة من الاطفال دعاهم فيصل ، وهم الاولاد الثلاثة للشريف حسين وزوجته الاميرة «بديعة» شقيقة عبدالاله، ابن وبنت لاحد قادة الفرق في الجيش العراقى • كانت ألاعيب ذلك الساحر تشتمل على تحطيم ساعة أحد الصبيان التى وجدت فيما بعد صحيحة في جيب صدر فيصل • وكانت هناك حمامتان تسحب احداهما الاخرى في عربة صغيرة ، وتطيعان أوامر سيدهما في التقاط أشياء صغيرة ، وتركبا عندما تؤمران بذلك واتمد قام فيصل نفسه باحدى لعب الاوراق •

ونظرا لان هذه الالعاب قد بدأت في وقت مبكر فقد أوشكت على

الانتهاء في الساعة السادسة مساء • وتم تناول وجبة من الطعام ، ومن ثم أرسل الاطفال في سيارة الى اهلهم ، وتخلفت امهم وشقيقتها عنهم • ولقد سألت «عبدية» شقيقة عبدالاله – والتى قتلت معه بعد أربع عشرة ساعة من ذلك الوقت – عما اذا كانت الفتاة سوف تمضى الليلة معها ؟ ولكن ارتؤي ان من الافضل ان لا تبقى ، لان السفر سوف يتم في وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، وعلى هذه الشاكلة نجت تلك الطفلة البالغة من العمر ثلاث عشرة سنة «بأرفع شعرة» من الموت المؤكد !

وفي الوقت ذاته تسلم فيصل رسالة ناولها الى خاله عبدالاله • وما ان قرأها هذا حتى ظهر الضجر على محياه • كانت الرسالة قد كتبت بالانكليزية ، واذ ذاك سمح عبدالاله لنفسه بأن يخرج باحدى السيارات الملكية لبعض الوقت • وعند عودته الى القصر ، استقبل أحد الاشخاص، في حين ظل فيصل وبقية الجماعة ينتظرونه قبل ان يتناولوا طعام العشاء الذى تأخر أكثر من المقرر ، الى حدود الساعة التاسعةوالنصف •

وجدت السيدة التى كانت تجلس بقرب عبدالاله ، بأنه لاول مرة في حياته ، فقد صفاته الطيبة • فنادرا ماكان يرد على ملاحظاتها ، وكان غارقا في تفكيره العميق • ذهب فيصل وبعض اليافعين بعد ذلك لمشاهدة شريط سينمائى في قصر الزهور المجاور للقصر المشؤوم ! وحين عاد فيصل ، أوضح بأن الشريط لم يكن حسب ذوقهم تماما ، وكان عنوانه «لعبة البيجاما» • وفي الساعة الثانية عشرة والنصف آوى فيصل الى فراشه ، وغادر الزوار القصر •

كان مقررا ان يسافر الشريف حسين ، وزوجته الاميرة «بديعة»، ومربية الاطفال الانكليزية « السيدة هزلدين » ، مع فيصل بناء على اقتراحه • لقد مضى نصف الصيف • وكانت «بديعة» مترددة في تأجيل

السفر ، ولو لايام قلائل ، لكى يسافروا بشكل أوفر راحة • وقد سبق لهم ان حزموا أمتعتهم ، وتعاقدوا على استئجار « شقة » لهم في لندن •

بعد الساعة السادسة من صباح اليوم الرابع عشر من تموز ، كان الطباخ التركى في القصر يقطع الشرائح ، وقد سبق له ان قدم الشاى لعبدالاله الذى أتم حلاقة وجهه من قبل • واذ فزع الطباخ لدى وصول جنود يحملون اسلحتهم باستعداد الى أرض القصر ، فقد تدلى من «بيت المؤونة» ، واتخذ سبيله عبر الاشجار ، وهو يسير متوجسا • وعقب مرور زهاء اربعين دقيقة ، سمع الشريف حسين الذى لا تبعد داره عن القصر سوى بضع مئات من الياردات ، أصوات عيارات نارية• وحين استمرت الاطلاقات ، وغدا صداها قريبا جدا منه ، صعد الى الطابق العلوى من البيت فرأى سيارات النقل تعبر الجسر الجديد ، وأصحاب الخضروات وغيرهم يسلكون طريقهم الى السوق كالمعتاد • واذ سمع اطلاقات جديدة أكثر ضخامة ، اتصل بالقصر عن طريق الخط الخاص وراح يتحدث الى الملك الذى انبأه بأنهم قد أصبحوا محاصرين ، وطبقا لما أذاعته الاذاعة فان ثورة قد وقعت ثم قال له « ان كنت ترغب فلسوف ابعث اليك ببعض من حرسى ! » • ولربما كان فيصل يفكر في الحرس الاحتياطى الموجود في قصر الزهور ، والذى لا بد وان طلب ارساله •

كان فيصل يتحدث بهدوء • وكان الشريف حسين ، اضافة الى قرابته له ، يعد من اوثق أصدقائه ، ويمضى كل مساء تقريبا معه ، ويستحمان معا في بركة السباحة في مثل تلك الايام الحارة من الصيف• ولقد كانا يستحمان كالعادة وبرفقتهما اولاد حسين قبل ابتداء الالعاب

السحرية بعد ظهر اليوم الثالث عشر من تموز ، واجتمعا سوية في مساء ذلك اليوم أيضا • وحين حاول حسين الاتصال هاتفيا بالقصر مرة أخرى ، كان « الخط ميتا ! » •

بعد الساعة السادسة بدقائق أقبل آمر الحرس وأحد المرافقين الى القصر[١٩] لينقلا أخبار الثورة • كان أحد الضباط الشباب يأخذ طريقه في سيارة من طراز «جيب» الى مهمة جديدة في الجنوب وهو غارق التفكير في تعيينه هناك ، قد أصابته الحيرة عندما وجد القوات العسكرية على مقربة من القصر ، ولذلك استدار لكي يتجنبها وسار في طريقه غير مدرك بأن الموت كان يحوم في الجو !•

استمر اطلاق النار في القصر بصفة متقطعة زهاء نصف ساعة ومن ثم توقف • لم يعد الشريف حسين يرى بناظوره شيئا سوى ان الجند ما يزالون يحيطون بالقصر • كانت أبواب مسكنه قد اغلقت ، وتم انزال الاطفال من السلم ، وبعد وقت قصير متأخر لا يستطيع امرء أن يحدده بدقة ، ولكنه كان في باكر الصباح ، وفي حدود الساعة الثامنة والربع ، جرى أحد الضباط المخلصين وهو منفوش الشعر ، عاري الرأس ، مفتوح الثوب الى بيت حسين ، حتى اذا مافتحوا له الباب راح يصرخ في وجوههم « لقد ماتوا • لقد قتلوهم جميعا ! يرحمهم الله • اخرجوا بسرعة مادمتم تستطيعون ذلك ! » •

---

(١٩) كان آمر الحرس الملكى هو العقيد «طه البامرنى» الذى انضم الى الثورة بعد المناوشات الاولى بين الحرس والمهاجمين للقصر • وكان الرائد «منذر سليم» من لواء العشرين المشاة هو الذى ترأس السرية التى توجهت الى قصر الرحاب • وكان الملازم فالح حنظل من الحرس هوالذى اخبر الملك وعبدالاله بقيام الثورة « ليث عبدالحسن الزبيدى : ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ في العراق

اما ماحدث في القصر فلربما يمكن الاطلاع عليه تماما عندما يحين الوقت . ولكن اذا ماجمعنا المعلومات القليلـة المتباينة ، ظهـر ان احد الخدم ما ان سمع المذياع يعلن قيـام الثورة حتى اسرع راكضـا الى فيصل الذى سبق له ان سمع النبأ ايضا فاتخذ طريقه الى عبدالاله الذى كان مايزال يحلق وجهه . كان عدد من الجنود قد اصطفوا على السدة الترابية قرب القصر ، لكنهم لم يطلقوا النار في اول الامر . وبعد وقت متأخر شرعوا يطلقون النار من اسلحتهم الصغيرة .

كان العقيد ناجى طالب احد ضباط الفرقـة الثالثـة من المرافقين السابقين ، وشغل منصب الملحق العسكرى في لندن قبلا ، من بين الذين ذكر المذياع اسـمه بين وزراء الثـورة الجدد . ولذلك قال عبدالالـه لفيصل معلقـا « الله كريم ! فرقة غازى الداغستانى ! » التـى يعرفهـا عبدالاله جيدا . ولكـن هـل كان عبدالاله يعرف بأن الفـريق غـازى الداغستانى قائد الفرقة الثالثـة ، كان قد اعتقـل قبـل قيـام الثـورة بسـاعات ؟.

عندما اصطحب عبدالاله ، وهو وصى قبـل عشر سنوات ، ناجى طالب مرافقا له ، لاحظ ما اعربت له عن شـكي في ذلـك الشخص . ولكن عبدالالـه رد علي قائلا « اننى اعرف ماتعنيـه ، ولكنك ترى ان هذا الشاب تماما هو الطراز الذى اريد ان ادربـه ، واقوم افكاره . فالذى اعتقده اننا اذا ماظفرنا به ، ورأى مايحدث بشكل واقعى ، وان كل جهودنا هى في سبيل الشعب ، فانـه سوف يفهـم ذلـك ، ويغير آراءه ! » . وهكـذا كانت محـاولة عبدالالـه في تغيير ناجـى طالب فاشلة تماما .

لم تكن القوات المهاجمة قد احاطت بالقصر كله في تلك المرحلـة

ولقد حاول سائق الملك اقناعه بالخروج من أحد الجوانب ، ومغادرة بغداد الى الديوانية ، ولكن فيصل رفض ذلك . وصلت قوات اخرى بعد وقت قليل ، وسمعت اصوات اطلاقات قليلة من مدفع مشاة مضاد للدبابات ، اخذت تنهال على مكان العتاد في القصر . وهكذا بدأ اطلاق النيران ، واصبح وقت الهرب متأخرا جدا .

بعد المرحلة الثانية من القصف نادى احد الضباط ومعه احد العرفاء ، معلنا اعطاء الامان لسيارات القصر بأن تمر عبر القوات الثائرة ، وتخرج من البلاد اذا ماوثق الملك وجماعته بهذا القول(٢١) . ويبدو ان القوم كانوا في شك من قوله ذاك . كانت الذخيرة وفيرة في القصر . وكان رجال الحرس كثيري العدد ، وعاقدي العزم على الصمود ، لانهم كانوا يؤلفون سرية ونصف السرية . غير ان فيصل وعبدالاله ابيا ان يطلقوا النار . وعلى أثر ذلك غادرت العائلة القصر مصحوبة بعدد من خدمها ، بما فيها فيصل ، وعبدالاله ، وامه نفيسة ، وشقيقته عبدية ، وزوجته هيام ، والعقيد ثابت(٢٢) وجميع الخدم الذين تطوعوا للخروج

---

(٢١) لم يكن الضباط الاحرار قد قرروا السماح للعائلة المالكة بمغادرة البلاد فقد أمرت القوات التي ارسلت لمحاصرة القصر ، بأن تحول دون هروب احد من افراد العائلة وعلى الاخص فيصل وعبدالاله . ولكن كان المقرر في اول الامر نقلهم بسيارات عسكرية الى وزارة الدفاع ، غير ان النقيب عبدالستار سبع العبوسي ما ان دخل القصر من الباب الرئيس ورأى افراد العائلة يسيرون في الحديقة حتى اطلق النار عليهم من غدارته ، ثم انهالت الضربات عليهم فقتلوا جميعا .

(٢٢) هو ثابت يونس وقد اصيب بطلقة في رئته ففارق الحياة اثناء نقله الى المستشفى .

معهم ، بما في ذلك خادمة زنجية صغيرة تدعى «رازقية»[٢٣] ، حيث بلغ عدد القتلى بين خمسة عشر وعشرين فردا ، وراء الضابط والعريف اللذين كانا يحملان رشاشتين تجفة ، في الوقت الذى استبد فيه الخوف في الواقع بمعظم الجنود ولم يستطع كثيرون منهم ان ينظروا الى ما كان يجرى •

لاحظ عبدالاله عند قمة السلم ان زوجته لم تكن ترتدى سوى ملابس النوم تحت سترتها ، ولذلك قال لها « لا يصح ان تأتى على هذه الشاكلة ، اسرعى وارتدى بعض ملابسك » • ولذلك عادت راكضة الى المبنى في حين خرجت بقية الجماعة ببطء من القصر • وفي منتصف الطريق عند باحة القصر ، وبجوار درجات النافورة القائمة هناك ، استدار الضابط نحو الجماعة وشرع يمطرها بوابل من رشاشته مرة واخرى • اندفع المرافق ثابت بشجاعة صوب النيران في محاولة منه ان يحمى الملك بجسمه ، غير ان الجميع كانوا قد قتلوا في الحال ، ماعدا الملك الذى اصيب بجراح مميتة وتوفي من دون ان يستعيد وعيه الكامل•
وحين خرجت زوجة عبدالاله ثانية ترنحت عندما انفجرت النيران الجديدة فأصيبت بجروح طفيفة • وقد فزعت عندما تساقط الزجاج المتحطم على مقربة منها ، واحترقت الستائر ، ولذلك انبطحت في المكان الذى سقطت فيه •

اقبل احد نواب الضباط ــ وكان يعرف اسرتها ويعترف بالجميل لاحد افرادها ــ نحوها وسألها عن اسمها • واذ عرف بمشقة مانطقت به حين ذكرت اسم ابن عمها ، حتى وضع غطاء عليها ، وطلب اليها ان تظل هادئة حيث هى •

---

(٢٣) خيل للمؤلف ان الخادمة الزنجية كانت صبيا ولذلك اطلق عليه اسم «رازق» •

هتف به ضابطان حين دخلا الصالة « اطلق عليها النار في الحال » فرد عليهما « انها ميتة • ولكن يوجد آخرون في الداخل ! » • وعلى اثر ذلك قرر نائب الضابط هذا ان ينقلها الى بيت مجاور معروف لها ، حيث حملها الى هناك على اعتبار انها ميتة ، وينبغي دفنها • ولقد بقيت هيام في حالة انهيار الى ان قوض الرعاع قصر ابيها في «الحسينية» قرب الكوت • ويبدو ان الصدمة الثانيــة كانت تتطلب علاجا شديدا في اول الامر ، وهكذا اخذت تتماثل الى الشفاء تحت رعاية ابيها المسن •

× × ×

قام الجيش بدفن جثث الملك والنساء والخدم الذين قتلوا ، في حين قطعت جثة عبدالاله وسحلت في الشوارع •

في ذات الليلة كان نورى السعيد اكثر يقظة مما كان عليه القصر• فما ان تم تحذيره مرة اخرى حتى ادرك جدية ذلك التحذير ، الذى لن الاخرون يشعرون بــه • ولذلك بعث يطلب مجيء ولده «صباح» اليه ، واعد العدة لمغادرة البلاد • وقد قيل انه ظل ينتظر طويلا عودة ذلك الشاب العنيد «صباح» والذى اعتاد ان يتأخر في عربدته في المدينة حتى آخر الليل •

ولقد عثر الجيش على «صباح» في اليوم التالى ، فقتل والقدح في كفه ، والتنديد على شفتيه •

وعند الفجر وصل انذار آخر الى نورى السعيد ، بأن قطع الهاتف عنه ، ووافته انباء جديدة ، ولذلك غادر بيته وهو في «البيجاما» وسار في النهر بقارب يجدف فيــه اثنان من صيادى السمك ، حيث اشــار اليهما بمسدسيه الى الضفة الشرقية من النهر ، على امل الوصول الــى

منزل الشيخ «محمد العريبي» • كان محمد العريبي ، وهو عضو كبير السن في مجلس الاعيان ، يتزعم عشائر مهمة من سكان الاهوار قرب العمارة على نهر دجلة • وكان تحت امرته على الدوام عدد من رجاله الخاصين • وكان الطريق من بغداد الى العمارة ، ومن ثم الى ايران عبر الاهوار ، يقع على نفس الجانب من النهر الذى يقع منزله فيه •

لقد خيل الى نورى السعيد ان السلامة سوف تتوفر له هناك • لكنه ما ان اقترب من الضفة الشرقية للنهر حتى رأى مواطنين مسلحين يركضون الى الشاطيء ، وينطلقون منه وهم في هياج شديد • واذ لم يكن مأمونا له ان ينزل من القارب فقد عاد عبر النهر الى بيت الدكتور صالح البصام ، حيث ادخله الدكتور البصام الى بيته ، وراحا يناقشان مختلف الاحتمالات • وفي النهاية قرر ان ينقله ، بعد ان اخفاه في قعر سيارته الى بيت الحاج محمود الاسترابادى ، الذى كانت زوجته صديقة لزوجة نورى السعيد ، وارتبطت برابطة الزواج مع صديق نورى وهو الدكتور الوزير ضياء جعفر(٢٤) •

كان بيت الاسترابادى واسع المساحة ، قديما ومتداعيا ، يقع في الكاظمية الضاحية الشمالية لبغداد ، وفيه سراديب تستعمل اثناءالصيف، وترتبط بالسراديب الموجودة في المنازل الاخرى المجاورة التى تعود الى نفس العائلة أيضا • ففى هذا المكان يمكن ان يختفى نورى السعيد بأمان ، لكنه ما ان وصل الى هناك حتى شرع هو واهل البيت يفكرون في تفكير آخر •

---

(٢٤) كان مرتضى البصام شقيق صالح البصام هو الذى نقل بسيارته الخاصة نورى السعيد الى بيت الاسترابادى في الكاظمية بان اخفاه في صندوق السيارة •

لقد اعلنت الاذاعة عن تخصيص عشرة آلاف دينار لرأس نوري السعيد حيا كان أم ميتا • وعلى هذا فان بيوت عائلة الاسترابادي سيجري تفتيشها تفتيشا دقيقا ، بسبب الصداقة القائمة المعروفة بينها وبين عائلة نوري السعيد • قامت زوجة الاسترابادي واحدى خادماتها بعملية تنكر نوري السعيد وارتدائه عباءة نسوية وارادتا استدعاء السائق لجلب السيارة ، لكن تذكرتا بأن السائق كان قد منح اجازة في ذلك اليوم• ولقد تم العثور على سائق آخر أقل خبرة ، ومن دون ان يخبر بهوية الشخص الثالث الذي كان يضع الحجاب على وجهه •

توجهت السيارة الى منزل ابنة الاسترابادي المتزوجة من السيد «هاشم جعفر» شقيق ضياء جعفر الذي يقع في محلة «البتاويين» في بغداد[٢٥] • ويبدو ان الهوس قد عاد فدخل المدينة مرة اخرى • ولكن نوري السعيد كان مصرا على الوصول الى بيت الشيخ محمد العريبي ، والذي يمكن الوصول اليه من بيت هاشم جعفر ، غير ان نوري السعيد لم يكن متأكدا على وجه الدقة من المكان الذي يقع فيه بيت محمد العريبي •

وما ان وصلوا الى هناك حتى اخذوا يستشيرون جميع من وجدوه في البيت • ولقد قيل ان نوري السعيد قد لاحظ ، على حين غرة ، ان الشاب المضطرب ، وهو ابن صاحب الدار ، والذي احس بوصولهم الى البيت ، لم يعد يشاهد ، وعندئذ شك نوري السعيد بأن ذلك الشاب قد ذهب للاخبار عنه[٢٦] • ولذلك اسرع نوري السعيد خارجا من

---

(٢٥) اخطأ المؤلف فذكر اسم «قاسم جعفر» بدلا من هاشم جعفر وهو الاسم الصحيح •

(٢٦) كان عمر بن هاشم جعفر الذي علم بوجود نوري السعيد في

البيت وفي أثره زوجة الاسترابادي للبحث عن بيت محمد العريبي الذي كان نوري السعيد يعتمد عليه كثيرا .

واذ سار نوري في طريقه بانت البيجاما من تحت العباءة ، واذ ذاك هتف أحد البقالين وهو في باب حانوته « اوه ! يا اهالي بغداد اليس هذا هو نوري السعيد ؟ ان جائزتنا ياجيراني عشرة آلاف دينار ! » . وعندئذ ركض الناس نحو نوري السعيد الذي استدار واخذ يطلق النار من مسدسيه ، فردوا هم وبعض رجال الشرطة المتطوعين بالمثل ، فقتلت زوجة الاسترابادي التي جاوزت الستين من عمرها ، وسقط نوري السعيد على الارض ميتا ، ومن ثم نقلت الشرطة جثته الى المستشفى لغرض تشخيصه من لدن الاطباء ، وتم دفنه بعد ذلك في المقبرة التي تقع خلف البوابة الشمالية(٢٧) .

لم تبق جثة نوري السعيد في المقبرة سوى فترة قصيرة جدا حين أقبلت طائفة من الرعاع الهائجين الى المقبرة لكي تخرج الجثة من القبر ، وتسحلها في الشوارع . ولما لم يكن هؤلاء متأكدين من القبر ،

= الدار قد اسرع بالذهاب الى وزارة الدفاع وقابل عبدالكريم قاسم واخبره بمكان وجود نوري السعيد حيث اوعز عبدالكريم قاسم الى وصفي طاهر بالتوجه مع مفرزة من الجيش الى بيت هاشم جعفر لاعتقال نوري السعيد .

(٢٧) ذكر السيد ليث عبدالحسن الزبيدي في كتابه « ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق » ان نوري السعيد خرج متوجها الى منزل محمد العريبي في البتاويين وعند استفساره لدى احد المحلات عن المنزل، عرفه صاحب المحل واخذ يصرخ « نوري السعيد امسكوه »وتجمهرت الجماهير حوله فأخرج مسدسه واخذ يطلق النار يمينا ويسارا ولكن الجماهير الغاضبة بالاشتراك مع الجنود الذين تواجدوا في مكان الحادث تبادلوا اطلاق الرصاص معه فقتل نوري السعيد والسيدة «ببية قطب» زوجة محمود الاسترابادي .

فقد بادروا الى نبش كل القبور الجديدة ، حتى اذا ما عثروا على جثته مؤخرا ، اخرجوها وربطوها بحبل ، وراحوا يسحلونها في الشارع الرئيس .

× × ×

كانت زوجة نوري السعيد في لندن آنذاك . وكانت تجمع «الحوائج» لتهيىء لزوجها وجبة عشاء عربية حال وصوله الى هناك . لم يجرأ احد على اخبارها بالحادث أول الامر ، ذلك لان «عصمت» زوجة «صباح» كانت قد اعطبت المذياع ، كما اخفت الصحف عنها . وبعد يوم او يومين ، ذكرت لها عائلتها بأن نوري قد تأخر وصوله بسبب الاضطرابات الناشبة في العراق وهكذا اخذت الاخبار تعطى لها بالتدريج .



الشريف حسين

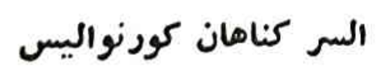
الملك علي وخلفه نوري السعيد





المس جروترد بيل





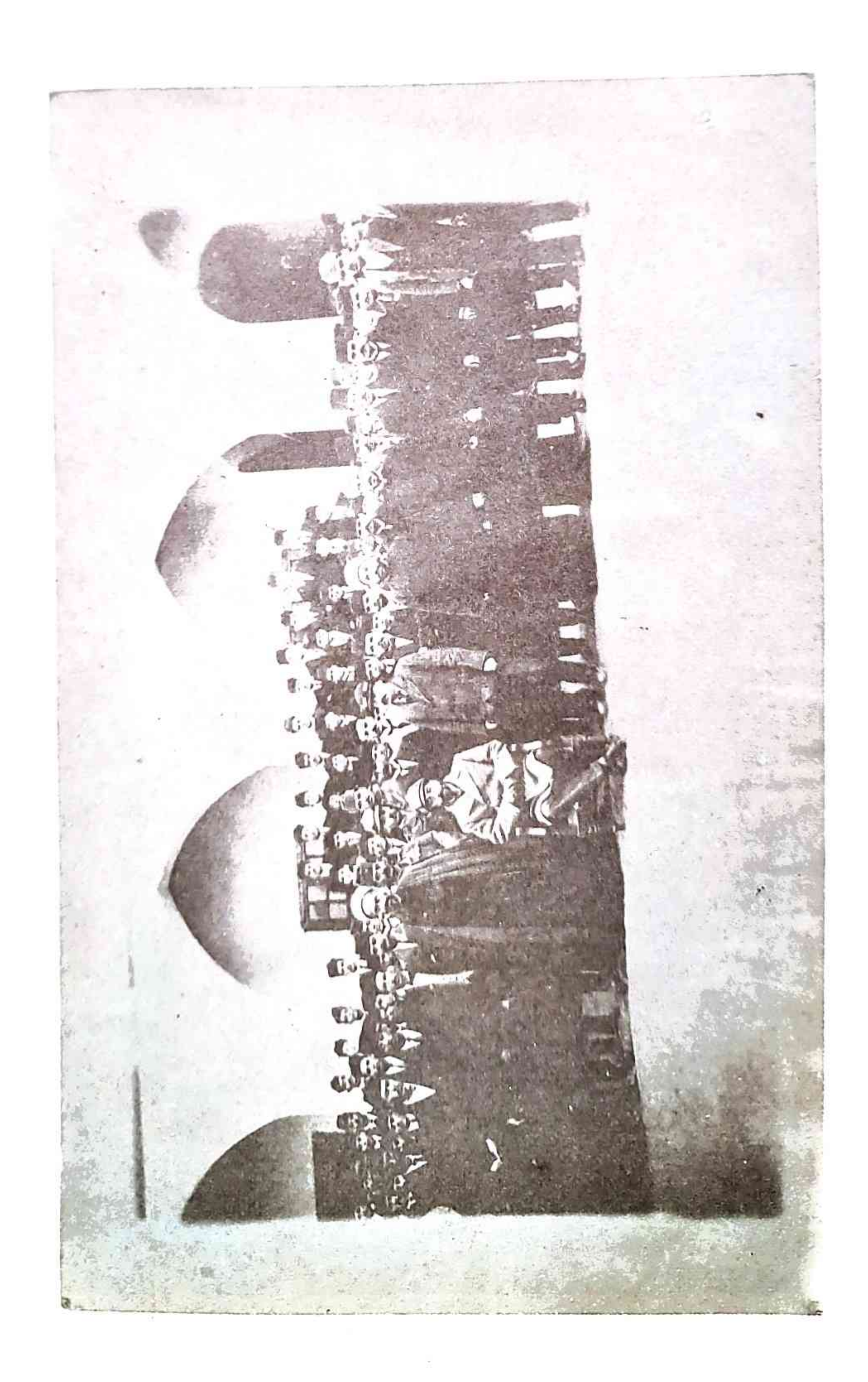
السر كناهان كورنواليس



الملك عبدالله

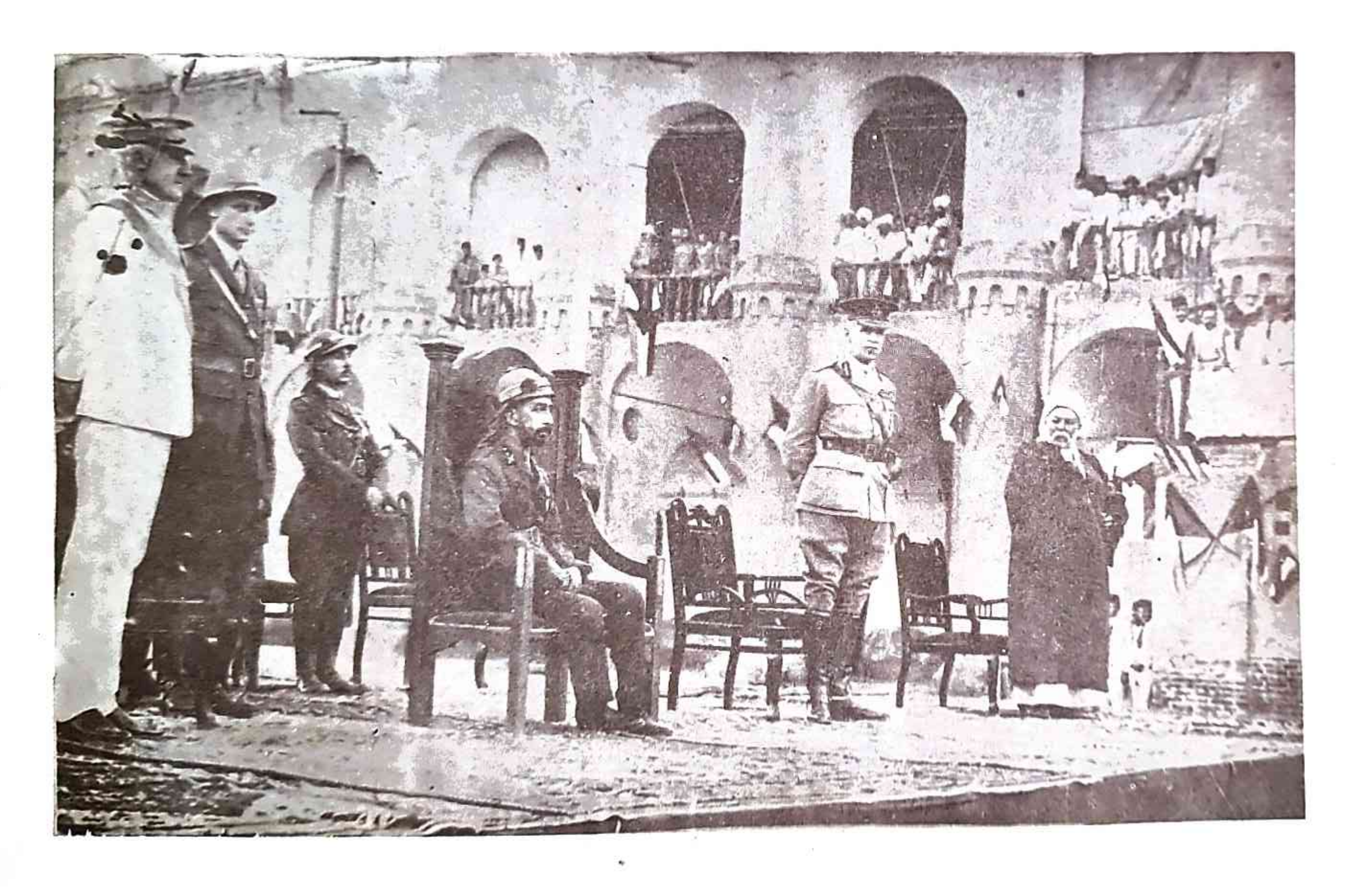


الملك غازي





الملك فيصل الاول



تتويج الملك في ١ ... ل ٢٣ آب ... ١٩٢١



الامير عبدالاله الوصي على عرش العراق

الامير عبدالاله في زيارته الى واشنطن سنة [illegible]



الاميرة بديعة



الاميرة عابدية



الاميرة جليلة ـ



نوري السعيد



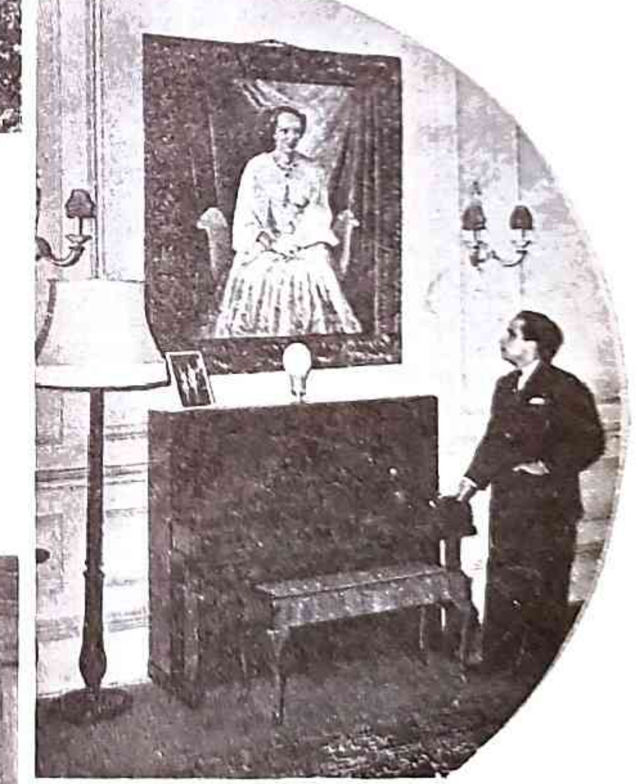
الملك فيصل الثاني والامير عبد ابن الامير زيد



الملك فيصل الثاني في حديقة القصر



القصر الملكي في انكلترا



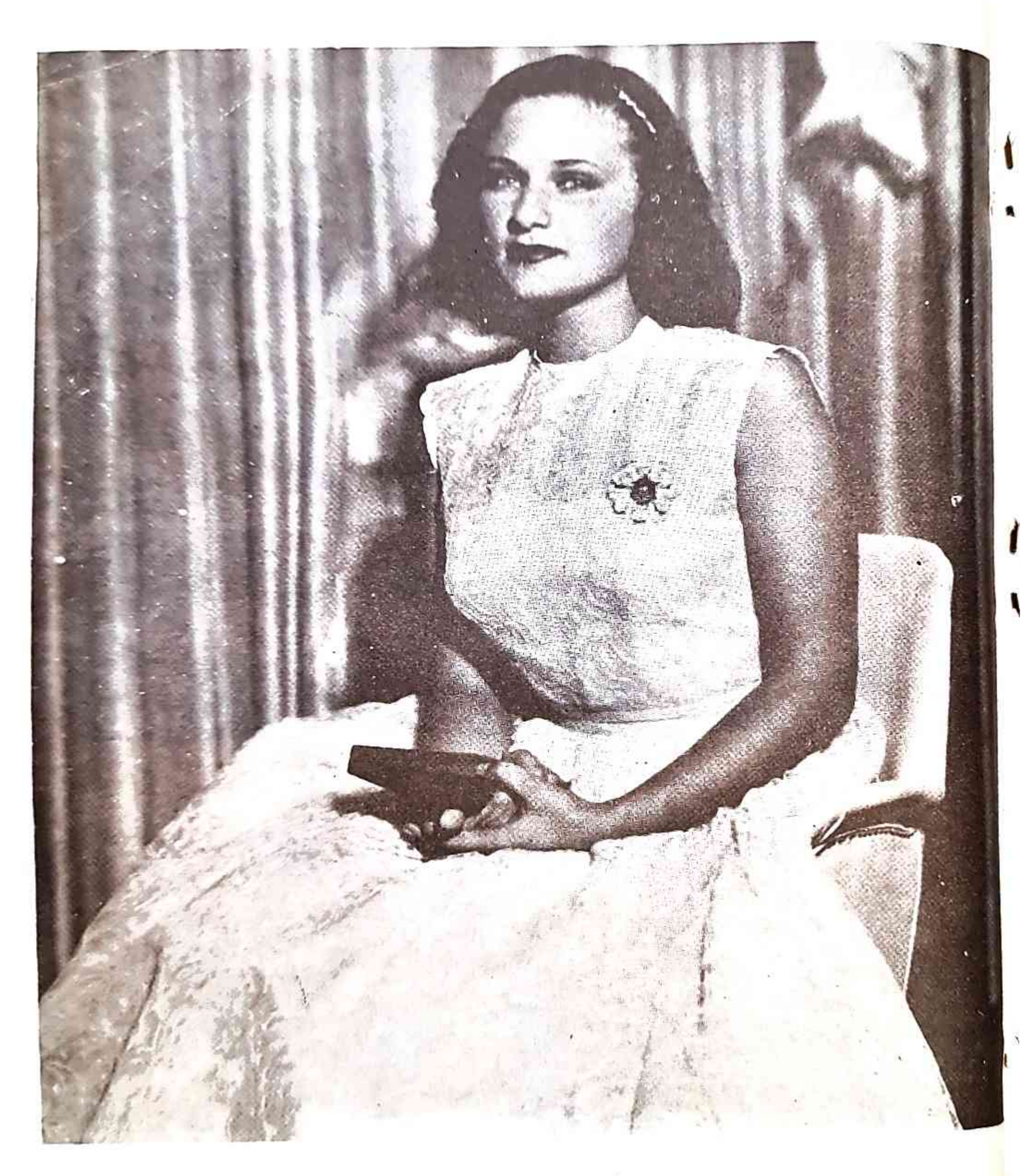
الملك فيصل الثانى
وصورة والدته الملكة عالية

الملك فيصل الثانى

الملك فيصل الثاني والملكة اليزابيث والامير دوق ادنبره والامير عبد

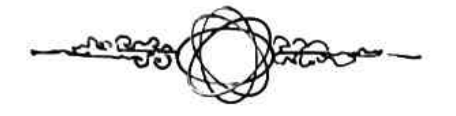


الملك فيصل الثاني



الاميرة فاضلة خطيبة الملك فيصل الثانى

الملك فيصل الثانى مع الملكة اليزابيث في انكلترا





رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٥٩ لسنة ١٩٨٣
٣ دينار